

مسيحيون في مكة المكرمة ..

الرحلات والاستشراق في الجزيرة العربية

استقطبت شبه الجزيرة العربية اهتمام الكثير من الباحثين والرحالة من مختلف أرجاء العالم، وذلك لما تتميز به من خصوصيات عديدة أهمها وجود الأماكن الإسلامية المقدسة واحتضانها العديد من كبرى حضارات العالم التاريخية إلى جانب موقعها الجغرافي الذي يضعها في قلب العالم القديم وبجانب الطرق الرئيسية للتجارة.

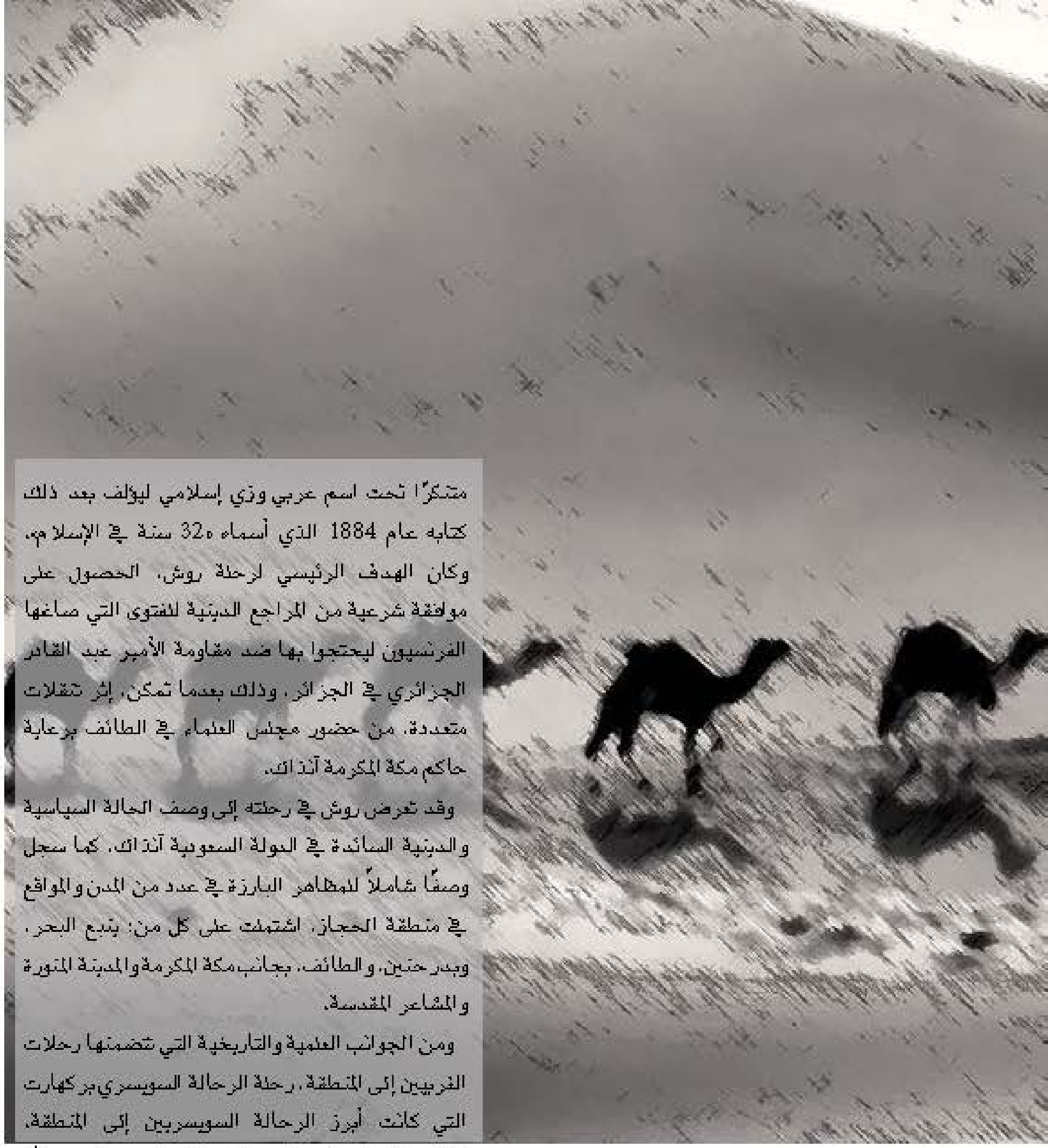
وهناك مغامرون كثيرون راودتهم فكرة الوصول إلى مكة المكرّمة والمدينة المنورة، وبالفعل وصل الكثيرون منهم، بَيْد أن غيرهم رجع بخفّي حنين، وأمّا الذين وصلوا فأكثرهم تعلّم العربية وتظاهر بالإسلام تيسيرًا للوصول، وبعضهم أسلم بالفعل وحسن إسلامه، والبعض ترك القرّاء في حيرة من أمر إسلامه، وأما أسباب هذه المغامرات التي قد تكلف المغامر حياته فتندرج تحت أسباب عدّة أهمها رُوح المغامَرة التي اتّصف بها الأوروبيون في القرون المنصرمة لتسجيل أسمائهم في سجل الأوائل، ومنهم من كان عميلاً للاستعمار الذي كان يُداول أن يدرس جزيرة العرب، ولاسيّما مكة والمدينة تمهيدًا لاستعمارها، ومنهم من كان يرغب في البحث العلمي والاجتماعي والاطلاع على عادات وتقاليد الشعوب ومنهم من أراد أن يتحدّى الآخرين بالولوج إلى الأرض التي حرّمها الله على المشركين.

وكان مفهوم الترحال من أجل العلم والمعرفة تبلور منذ القرن السادس عشر الميلادي، ويهدف في الأساس إلى جمع المعلومات الجغرافية ودراسة عادات الشعوب وأحوالهم المعيشية والسياسية. وكان الرحالة الغربي يوصف بأنه رجل متحضر، لديه تصورٌ راقٍ للحياة وهو صاحب رسالة حضارية، يريد نشرها في أوساط الشعوب المتخلفة، وقد عكف على التجوال والترحل ليدون مشاهداته السياسية وأخبار المناطق التي يزورها لصالح الحكومات أو المؤسسات التي أوفدته.

وكان أدب الرحلات عند الغربيين يعد امتدادًا لحركة الاستشراق، «وهو جزء من تراث الإمبراطوريات الغربية المستعمرة، التي كانت ولا تزال تحرص على دوام مصالحها في البلاد الأخرى، فحتى الرحلات ذات الطابع العلمي الأكاديمي كانت مرتبطة بالسياسة أكثر من ارتباطها بالعلم والحضارة».

وكان أدب الرحلات «عظيم الفائدة، ولا يضاهى في تنوعه وتعدد مجالاته، على الرغم من الغموض الذي يكتنف دوافعه الحقيقية، حيث يلتقي في هذا المجال العلم بالأدب والفلسفة بالتاريخ والاقتصاد بالسياسة، وتشتمل كتب العلماء ورجال الدين والساسة والعسكريين والمخبرين الذين زاروا المنطقة، على ركام هائل من المشاهدات والأبحاث الدقيقة، التي تتناول السكان والعمران والنبات والحيوان، وترسم الخرائط ومواقع المدن الأثرية، وتحدد الطرق ومواطن الثروات». ومن أسماء هؤلاء لودفيكو فارتيما، وجوزيف بيتس، ووليام جيفورد بالجريف وتشارلز دوتي وهاري سنت جون فيلبي، بالإضافة إلى باديا بليش ونيبور وبركهارت وبيرتون.

وكانت رحلة المستشرق الدكتور كريستيان سنوك هور خرونييه إلى مكة المكرمة بين عامي 1884 و 1885 التي وضع خلالها كتابه الشهير (مكة) والذي يتكون من جزأين، تناول فيهما تصوراته عن حال المسلمين في الجزيرة العربية وجزر الهند الشرقية، التي عاش فيها مستشارًا للشؤون الشرقية والإسلامية لمدة 17 سنة. ومن دوافع سنوك في رحلته إلى الجزيرة العربية، «إذا عرفنا أن العصر الذي عاش فيه، كان عصر حمى التوسع الاستعماري وحمى «التبشير» في ظل حماية السلطة المستعمرة، وحمى الاكتشاف والريادة «وذلك باكتشاف أي مجهول عند الأوروبيين للفوز بالشهرة، كالنقوش



والكتابات والآثار والمخطوطات وغيرها، وكانت من أبرز مهام سنوك وضع الخطط والتوصيات اللازمة للقضاء على الحركات المناهضة للنفوذ الهولندي، إذ كانت مكة المكرمة تنطوي على المحرك الرئيسي للثورة ضد الهولنديين في أندونيسيا من خلال الوافدين إلى الحج.

وكذلك من أهم دوافع رحلته التعرف على المؤثرات التي تدفع الأندونيسيين إلى الثورة والعصيان بعد قدوم حجاجهم من مكة المكرمة، وكان هؤلاء يشاركون بنشاط كبير في حركات التمرد على السلطات المستعمرة.

وكان للجانب الإيجابي من رحلة المستشرق الهولندي، إلى طغيان الجانب العلمي على الكثير من الدراسات، التي كتبها في رحلاته، وبالأخص في مجالات الفقه والأصول والحديث، الأمر الذي كان له أثر شامل على الحركة الاستشراقية في أوروبا، وكانت حياته في الشرق مكنته من أن يصبح أكثر دقة وروية في أحكامه ومواضيعه، وساعده في ذلك تضلعه في اللغة العربية وبعض اللغات الأندونيسية.

ومن ضمن رحلات المستشرقين الرحالة المستشرق الفرنسي ليون روش الذي زار منطقة الحجاز عام 1842 متنكرًا تحت اسم عربي وزي إسلامي ليؤلف بعد ذلك كتابه عام 1884 الذي أسماه «32 سنة في الإسلام».

وكان الهدف الرئيسي لرحلة روش، الحصول على موافقة شرعية من المراجع الدينية للفتوى التي صاغها الفرنسيون ليحتجوا بها ضد مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري في الجزائر، وذلك بعدما تمكن، إثر تنقلات متعددة، من حضور مجلس العلماء في الطائف برعاية حاكم مكة المكرمة آنذاك.

وقد تعرض روش في رحلته إلى وصف الحالة السياسية والدينية السائدة في الدولة السعودية آنذاك، كما سجل وصفًا شاملاً للمظاهر البارزة في عدد من المدن والمواقع في منطقة الحجاز، اشتملت على كل من: ينبع البحر، وبدر حنين، والطائف، بجانب مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة.

ومن الجوانب العلمية والتاريخية التي تضمنتها رحلات الغربيين إلى المنطقة، رحلة الرحالة السويسري بركهارت التي كانت أبرز الرحالة السويسريين إلى المنطقة، كان بركهارت، المعروف بـ«الشيخ إبراهيم بن عبد الله الشامي»، لم يكن الرحالة الأوروبي الأول الذي يزور المدينتين المقدستين في الجزيرة العربية، فإنه أول من كتب وصفًا دقيقًا لهما.

نشأ بركهارت في مدينة بازل (بال، في أقصى شمال غربي سويسرا) وسط عائلة تجارية غنية، عين بعد انتهاء دراساته في ألمانيا وإنجلترا، مندوبًا عن الجمعية البريطانية لتشجيع الاستكشاف في الأجزاء الداخلية لأفريقيا، وانتقل في ما بعد إلى منطقة الشرق الأوسط، فأقام في سورية لبعض الوقت بهدف إتقان اللغة العربية، ثم غادر إلى الأردن، وسجل أحد أهم إنجازاته بإعادة استكشاف البتراء، العاصمة السابقة للأنباط عام 1809، إلى جانب إمداد حكومته بالكثير من المعلومات المهمة عن الوضع السياسي المحلي في المنطقة.

ألف بركهارت كتابين (الرحلات في الجزيرة العربية) 1822 و (ملاحظات عن البدو السعوديين) 1829، تضمنا وصفًا دقيقًا ليس لأسلوب حياة البدو والتطور السياسي للجزيرة العربية فحسب، بل أيضًا معلومات تفصيلية عن كل ما تحتوي عليه المدينتان المقدستان وتصويرًا شاملاً للوضع الداخلي والخارجي للكعبة المشرفة.

ويؤكد الدكتور ديونيسيوس أ. اجيوس الأستاذ بقسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة ليدز، أن سيطرة مدينتي جدة وعدن على مفاتيح التجارة في البحر الأحمر خلال القرن السادس عشر، شجع المستكشفين البرتغاليين على الاستيلاء على هاتين المدينتين والقضاء على الحركة التجارية من شرق أفريقيا والهند والصين.

وكان الهدف الرئيسي وراء الحملات الاستكشافية للبرتغاليين الذين كانوا يتنافسون مع المماليك في مصر على السيطرة على طرق القوافل الشرقية، ومع البنادقة الإيطاليين (من مدينة البندقية) في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، ومن خلال الرحلات الاستكشافية للبرتغاليين في مدن البحر الأحمر، أمكن التعرف على الخبرات الإسلامية الكبيرة والدراية بالتيارات والشعوب والموانئ البحرية، وساهمت كتابات الرحالة في رفع مستويات المهارات الملاحية بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، بعدما كانت المصادر العربية صامتة عن شرح هذه المهارات، ولم يكن معلومًا حينها أن الملاحين المسلمين متمرسون في التقنية الملاحية باستخدام البوصلة والخرائط.

ومن ضمن الرحلات إلى الجزيرة العربية رحلة الأميرال الفونسو دي البوكرك البرتغالي الذي أبحر إلى البحر الأحمر وخطط لاحتلال المدينة المنورة للاستيلاء على تابوت النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) والمطالبة بفديته معتقدًا أن ثمنه هو كنيسة بيت المقدس لكنه فشل في مساعيه.

وهناك أيضًا رحلة غريغور داكودرا البرتغالي عام 1516، وارتشيبالد فوردر البريطاني الذي جاء إلى شبه الجزيرة العربية ودعا الناس بكل صراحة إلى المسيحية، وحاول أن يبيعهم نسخًا من الإنجيل، لكن كان الجانب الاقتصادي هو أحد جناحي الهدف الاستعماري مع الجانب السياسي، إذ تميز القرن السابع عشر بالصراع بين البرتغاليين وبين شركتي الهند الهولندية والبريطانية، وأخذت كل من الشركتين تسعى لإقامة علاقات تجارية مع حكام اليمن والجنوب العربي، وقد استطاع بعض التجار الأوروبيين إنشاء مراكز تجارية مختلفة على بعض السواحل اليمنية والخليجية خصوصًا بعد أن عرف الأوروبيون مشروب القهوة.

فقام جوردان بعثة إلى صنعاء مثلاً، وكذلك القبطان الهولندي بيتر فان دي بروك، وهنري ميدلتون وغيره، وكلهم كتبوا وسجلوا ملاحظاتهم وما شاهدوه في الجزيرة العربية واليمن.

وكانت أهداف الرحالة جميعًا لم تخرج عن رصد أوضاع الجزيرة العربية السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية، لذا نجد أول من زار الأراضي المقدسة، وأعطى تقريرًا عن رحلته ومشاهداته هو الأسباني بادبا لبلي الذي تنكر تحت اسم علي بك العباسي، وحتى روسيا



جوهان لودفغ بور كهارت



الليدي آن بلنت



جون لويس بوركهارت

كانت لها أطماع في المنطقة، إذ أرسل القيصر الروسي، أولريخ جاسبر سيتزن، الذي قام برحلته إلى الجزيرة العربية، واستطاع أن يدخل مكة ليحصل على لقب حاج، وبعدها ذهب إلى اليمن وقتل هناك عام 1811.

وتستمر الرحلات مثل رحلة السير ريتشارد برتون عام 1853 الذي كلف بدراسة المنطقة الواقعة بين مسقط وبلاد الحجاز، وجيرالد ليتشمان عام 1909، وجون فيلبي الذي أسلم، وسماه الملك عبد العزيز آل سعود باسم عبد الله.

وهناك دواتي تشارلز الذي التحق بقافلة الحجاج عام 1876 ويُعدُّ كتابه (رحلات إلى الصحراء العربية) من أفضل كتب أدب الرحلات لما تضمنه من مواد علمية مهمة، والليدي آن بلنت الإنكليزية وزوجها ويلفرد بلنت في رحلتهما إلى الجزيرة العربية للبحث عن الخيول العربية الأصيلة وقد سجلت مشاهداتها في كتاب بعنوان (الحج إلى نجد مهد العنصر العربي) 1881 والإيطالي كارلو غوارماني الذي ركز دراسته على شراء الخيول العربية، ونشر كتابًا بعنوان (شمال نجد رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم) (1866). وجوليوس أوتنغ الألماني الذي قام برحلته إلى الجزيرة العربية عام 1883. وحصل خلالها على آلاف النقوش الآرامية والنبطية واللحيانية ونشرها.

كانت لهؤلاء الرحالة إسهامات في التعريف بتاريخ الجزيرة العربية على الرغم من أن أكثرهم جاء لغايات سياسية بحتة، ولا شك في أن القيمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لتلك الرحلات لا تقدر بثمن، لأنها تؤرخ لحقبة زمنية اكتنفها الغموض، كما أن الأعمال التي قاموا بها وصبرهم على مناخ الجزيرة العربية، إضافة إلى فقدان الدولة الأمن والأمان كانت سببًا في فقدان بعضهم حياته، كل ذلك يجعلنا نحترم الجهود بصرف النظر عن تلك الأهداف التي جاؤوا من أجلها.

ويقول د. عبدالله إبراهيم العسكر في محاضرة في نادي الطائف الأدبي في 1423 هـ ونشر موجزًا لها في جريدة الرياض: إن الناظر فيما كتبه الرحالة الغربيون عن الحجاز، يجد كمًّا هائلاً من المعلومات الثرية، والملحوظات الجيدة، والتحليل العميق لشؤون المعاش والحياة، والحق أن نتائج تلك الرحلات قد أثرت في الفكر العلمي حول تلك البلاد. وليس من المبالغة في شيء القول إن ما كُتب عن الحجاز، والأماكن الدينية فيه، يُعد من أكثر مما كتب عن أي جزء على وجه الأرض. بل إن ما كُتب عن مكة المكرمة والمدينة المنورة في كافة المجالات يربو مئات المرات على ما كُتب عن المدن الأخرى في الجزيرة العربية برمتها.

استغرقت عمليات سفر الغربيين وترحالهم في جزيرة العرب قرابة أربعة قرون. بدأت من نهاية القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي، وانتهت في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري – العشرين الميلادي. أما ما بعد ذلك من رحلات فإنها تدخل في باب العمل الرسمي، إذ تحدها قيود ومواثيق واتفاقيات رسمية لا تدخل في باب الرحلات. مثل البعثة الاستكشافية العلمية بقيادة كونزاك ريكمانز المتخصص في اللغات السامية، التي قصدت وسط جنوب الجزيرة العربية عام 1371هـ – 1951م بدعم حكومة المملكة العربية السعودية وموافقتها. ضمنت البعثة إلى جانب كونزاك ريكمانز كلًا من: جاك ريكمانز المتخصص في التاريخ الحميري والسبئي، والحاج عبدالله فيلبي المؤرخ والسياسي المعروف، وفيليب ليبنز الخبير في تخطيط الرسوم وتصوير النقوش القديمة.

أو مثل اللجنة العلمية التي أسندت لها حكومة المملكة العربية السعودية إعداد دراسة شاملة عن مدينة الطائف، من أجل تنميتها وتطويرها. فقام ثلاثة علماء في تخصصات مختلفة بإعداد تلك الدراسة، ونشرت في كتاب عام 1413هـ – 1992م. والثلاثة هم: هاينز غاوبه، ومحمد شرابي، وغونتر شقايترز.

تتميز رحلات الغربيين إلى بلاد الجزيرة العربية ومدنها في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين – السادس عشر والسابع عشر الميلاديين بكونها ذات طابع فردي، ويكتنف أهدافها الغموض، وكانت في مجملها تتصف بالخطورة، ولكن نتائجها لا تخلو من الفائدة العلمية.

أما رحلات الغربيين في القرون اللاحقة فهي رحلات ذات طابع ديني/ تبشيري، أو ذات طابع عسكري، أو ذات سمة سياسية رسمية، أو جاءت لأغراض علمية واستكشافية. وفي العموم نظر الرحالة الغربيون إلى الأماكن التي زاروها من منظورهم الخاص، لذا أوردوا بعض الملحوظات التي قلما أثارت انتباه الرحالة العرب الذين زاروا الأماكن نفسها.

ولو بحثنا في سبب شغف الغربيين ببلادنا لوجدناه باختصار شديد يتلخص في كون القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي قد شهد اندفاع البرتغاليين بأساطيلهم إلى بحار العالم، ومنه طبعًا البحار المحيطة بالجزيرة العربية، مما أدى إلى نوع من المغامرة والصراع بين الدول الأوروبية. وكانت الدول الأوروبية في صراع سياسي واقتصادي وتجاري مع الدولة العثمانية التي تمثل المسلمين، فرغب بعض ساسة أوروبا ومثقفيها معرفة المزيد عن بلاد الحجاز، الذي يُشكل واسطة العقد في الفكر الديني لدى الدولة العثمانية.

كل هذا دفع الدول الأوروبية إلى إقامة علاقات سياسية


تشارلز مونتاج داوتي


كرستين نيبور


الحاج عبدالله فيلبي

مع بعض الدول الإسلامية. ثم تم تأسيس شركات تجارية غربية في سوريا ومصر، وأصبح لبريطانيا، على سبيل المثال، جالية ذات أهمية في حلب. وفي عام 1042هـ/1632م أنشئ كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج Cambridge. وبعد ذلك التاريخ بعشرين سنة طبع الكتاب المقدس بعهديه باللغة العربية. وفي مطلع القرن الثاني عشر الهجري – الثامن عشر الميلادي تُرجم القرآن الكريم لأول مرة إلى اللغة الإنجليزية، وكذلك تم الشيء نفسه لبعض الكتب الأدبية العربية مثل (ألف ليلة وليلة). وتبادلت أوروبا وبعض دول المشرق السفراء منذ عام 1080هـ – 1669م. ومنذ ذلك الوقت أصبح الشرق والدول العربية على الخصوص محط أنظار دول الغرب وشعوبه.

والتطور المثير هو كون السفر من أوروبا إلى الهند، تاج المستعمرات البريطانية فيما بعد، أصبح ميسورًا عبر البلاد العربية. كما أن للدعوة السلفية التي ظهرت في نجد أهمية كبيرة، وخصوصًا ما ترتب عليها من نتائج سياسية بالغة الخطورة. ثم اندفاع نابليون بونابرت نحو الشرق وحملته على مصر عام 1213هـ – 1798م. كل هذا استقطب اهتمام الغربيين بالمنطقة.. وما عاد القرن الثالث عشر الهجري – التاسع عشر الميلادي يحط رحاله حتى أصبح السفر والترحال للبلاد العربية، ومنها جزيرة العرب، من الأمور المطلوبة للسياسة، والجاسوسية، والتبشير والسياحة.

لهذا نستطيع أن نُجمل أهداف الرحالة الغربيين إلى جزيرة العرب ومنها الحجاز فيما يلي:

1 – الهدف الديني: لا ريب أن حركة الاستشراق وحركة الكشوف الجغرافية خرجت أول ما خرجت تحت نظر الكنيسة وسمعها، وكان الهدف الديني وراء إنشاء أقسام اللغة العربية وكراسيها في جامعات أوروبا. لهذا كان مُعظم من دخل مكة المكرمة أو المدينة المنورة إنما دخلهما لأغراض دينية، منها وضع مقارنة بين النصرانية والإسلام، كما فعل لودفيكو دي فارثيما Ludvico di Varthema الذي ألف كتابًا عنوانه (اتينياريو Itinario) ونشره عام 916هـ – 1510هـ. وكانت انتصارات البرتغاليين واكتشافهم رأس الرجاء الصالح عام 904هـ – 1498م دافعًا جعلهم يحاولون مهاجمة ديار الإسلام، مثل ما حاول أحد أمرائهم وهو الأمير ال فونسو دي البوكيرك Albuquerque المتوفى عام 921هـ – 1515م الذي أبحر إلى البحر الأحمر من أجل أن يحتل المدينة المنورة، ويستولي على خزائن القبر النبوي.

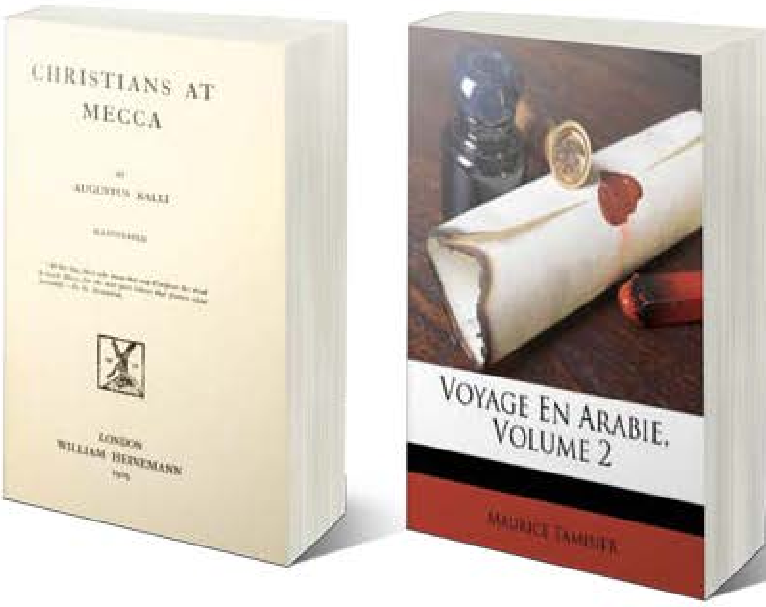
2 – الهدف السياسي: كانت الدولة العثمانية تمثل تهديدًا لدول أوروبا، وكنائس أوروبا، ولكن ذلك التهديد زال في القرن الثاني عشر الهجري – الثامن عشر الميلادي، ومع هذا رأت تلك الدول إن من صالحها دراسة وضع البلاد العربية، التي تخضع للعثمانيين، خصوصًا منطقة مهد الإسلام، فتقاطر الرحالة الجواسيس إلى الحجاز، وكتبوا تقارير عن أوضاع البلاد والعباد، كما فعل الرحالة الأسباني دومينجو بديا ليبيخ Domingo Badia Y Lebich، الذي كان يعمل لصالح نابليون، وأصبحت رحلات الغربيين بمثابة توظيف قدراتهم لخدمة السياسة الغربية ضد الدولة العثمانية.

3 – الهدف الاقتصادي: تميز القرن الحادي عشر الهجري – السابع عشر الميلادي بالصراع بين البرتغاليين من جهة والبريطانيين وحلفائهم من جهة أخرى، فأخذت كل جهة تُقيم علاقات مع بلدان المشرق العربي، وهي البلاد التي تنتج البن، أو يمر عبر أراضيها إلى أوروبا، ثم عمدت تلك الدول إلى إرسال الرحالة لأغراض تجارية، ولإعداد تقارير عن الوضع الاقتصادي، وحالة الموانئ العربية على البحر الأحمر.

4 – الهدف العلمي: لا يشك أحد أن نهضة أوروبا على العلم، وبعض العلم مصدره من الشرق ومن العرب على وجه الخصوص، وكانت تدور في أذهان الأوروبيين فكرة البحث والتقصي لأجل العلم. لذا أرسلوا الرحالة يجوبون أقطار الجزيرة العربية من أجل هذا الهدف، ومن يتفحص كتابات بعض الرحالة أمثال: العالم الدنماركي كرستين نيبور Carsten Neibuhr أو تشارلز مونتاج داوتي Charles Montage Doughty يدرك على الفور مقدار الجهد الذي بُذل من أجل العلم والمعرفة.

ولابد في هذا السياق من الإشارة إلى جهل الرحالة الغربيين الأوائل ببلدان الجزيرة العربية، وهم في بعض هذا معذورون، ذلك أن أعمال الجغرافيين والرحالة المسلمين لم تترجم إلى اللغة اللاتينية، وهي لغة العلم والثقافة في أوروبا، إلا في القرن الثالث عشر الهجري – التاسع عشر الميلادي، وبهذا لم يتمكن الرحالة الغربيون الذين زاروا الجزيرة العربية قبل ذلك التاريخ من الاطلاع على ما كُتب عن الجزيرة العربية.

مُعظم الرحالة الغربيين الذين زاروا مدن الحجاز، وخاصة الساحلية منها، أو المدن المقدسة فيها، يتفقون مع قول شهير قاله لورنس يصف مناخ جدة: «إن جدة لم تشهد هبوب النسيم منذ سنين» ومع هذا كان لورنس T.Lawrence وغيره معجبًا بفن العمارة الحجازية، وشبهها بالطراز الإليزابيثي. لقد حاول الرحالة الغربيون التغلب على مشكلة الحر في جدة وغيرها من مدن الحجاز، فعمد مثلاً الصحفي الشهير جيمس باكنجهام James Silk Buckingham إلى اصطحاب شبكة يلتف بها ويغمس نفسه في الماء كلما شعر بوطأة الحر.



الحجاز في كتب الرحالة والمستشرقين

مع رحلات الرحالة والمستشرقين الغربيين إلى الجزيرة العربية وخاصة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة خلال أوقات الحج، يأتون تحت أسماء عربية مستعارة مخفين مسيحيتهم، ويظهرون أنهم مسلمون، ويقومون بتدوين ما يشاهدونه ثم ينشر في كتب حين عودتهم إلى ديارهم.

وقد رصد الدكتور عبد الله العسكر جزءًا من انطباعاتهم بعد زيارة المدينة المقدسة في كتبهم. يحتوي كتاب أوغست رالي A. Ralli الموسوم: (المسيحيون في مكة Christains at Mecca) على عرض شيق لانطباعات رحالة أوروبيين زاروا هذه المدينة المقدسة بدءًا من سنة 909هـ/1503م وانتهاء بسنة 1312هـ/1894م. ومثله كتاب البرخت زيمة الموسوم (شبه الجزيرة العربية في كتابات الرحالة الغربيين في مئة عام: 1770–1870م) الذي يحوي مختصرًا لبعض الرحالة الذين زاروا الحجاز، وكتبوا عن مدنه. ومما ذكره المؤلف إشارة مقتضبة عن زيارة الكابتن فيلشتيت مدينة جدة عام 1247هـ/1831م.

وفيما يلي عرض سريع لأهم الرحلات إلى الحجاز مرتبة حسب تاريخ وقوعها:

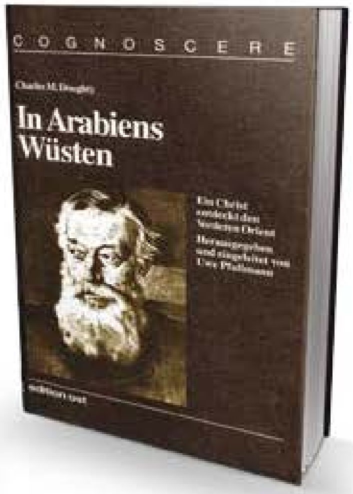
لا نستطيع أن نقرر على وجه الدقة تاريخ بداية وصول الرحالة الغربيين إلى بلاد الحجاز. وهناك على كل حال احتمال أن بعض البحارة الأوروبيين، وعلى وجه الخصوص البرتغاليين، قد وصلوا إلى ساحل البحار التي تحيط بالجزيرة العربية. هناك إشارات مقتضبة في أدبيات الرحلات الغربية إلى الجزيرة العربية لأن القبطان والرحالة كابوت john Cabot، الذي يقال إنه زار مكة المكرمة بين سنتي 881 – 896هـ/ 1476 – 1490م، وربما طاف سواحل البحر الأحمر الشرقية، ويُنسب إليه اعتقاده أن جزيرة العرب غير معروفة، لذا أطلق عليها اسم (الأرض الجديدة Newfoundland) وأعلن عن ضمها لممتلكات الملك هنري السابع، وكذلك البحار البرتغالي جريجوري كوادرا Gregeory da Quadra الذي صحب حجاج زبيد باليمن إلى مكة المكرمة في حوالي عام 906هـ/1500م وفي المدينة المنورة أصابت جريجوري لوثة مشوبة بعاطفة دينية، فأخذ يصيح بأعلى صوته شاتمًا النبي صلى الله عليه وسلم.

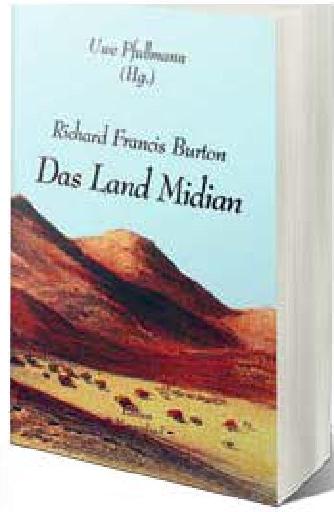
ويُعد في طليعة الرّحالة الغربيين الذين زاروا الحجاز الرّحالة الإيطالي لودفيكو دي فارثيما Ludvico di Varthema 861 - 932 هـ/ 1456 - 1517م الذي تسمى بالحاج يونس، ورافق قافلة من حجاج الشام في سنة 909هـ/1503م، ومكث في مكة المكرمة عدة أسابيع ووصفها، وقال: إنها تضم 6000 أسرة، وتحدث عن شح المياه فيها، وشبه المسجد الحرام بالكولیزيوم Colloseum في روما، ووصف مناسك الحج والتطهر بماء زمزم، وتحدث عن المدينة المنورة وجدة، ووصف الحياة المعيشية فيهما، وأورد حكايات طريفة، وقدر عدد أسر جدة بخمس مئة أسرة، ونشر عن رحلته كتابه إيتيناريو Itinario باللغة الإيطالية عام 1510م، ولقي كتابه بعد نشره رواجًا كبيرًا، وتُرجم إلى عدة لغات أوروبية، ونقل الدكتور عبد الرحمن الشيخ رحلة فارثيما، ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن سلسلة الألف كتاب عام 1994م.

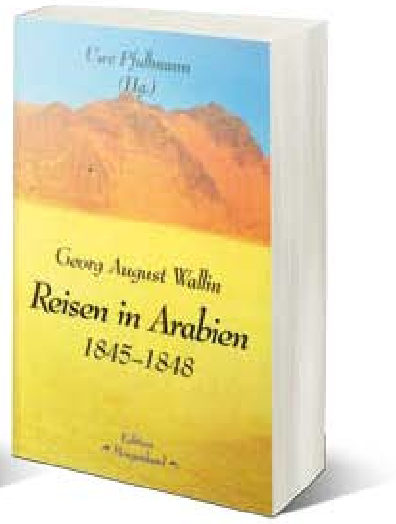
ومن الأخبار غير الموثقة عن مكة المكرمة، ما كتبه فنسنت لو بلان Vincent Le Blanc، وهو فرنسي من مدينة مرسيليا، في كتابه الموسوم (مسح عام للعالم)، والكتاب عبارة عن رحلات وصفية يدعي صاحبها أنه زار مُعظم العالم المعروف في زمنه، ويقول: إنه شاهد الثيران تسحب الماء من بئر زمزم داخل المسجد الحرام.

وفي عام 1012هـ/1604م زار أول رحالة ألماني الحجاز وهو جون وايلد Johann Wild، وقد كان ممن أسر ثم بيع في سوق النخاسة في استانبول إلى تاجر من مصر، فأخذه التاجر معه إلى القاهرة حيث بيع للمرة الثانية لتاجر من فارس، الذي أخذه معه لأداء فريضة الحج، يقول جون وايلد: إن الحجاج الذين رافقهم عانوا في الطريق معاناة كبيرة، ومات منهم عدد عظيم، ونفق من الجمال أعداد









لا تحصى، وصف وأبد مناسك الحج من دخول الحجاج مكة المكرمة حتى زيارتهم للمدينة المنورة، وهو قدّر عدد حجاج مصر، وسورية واليمن بأربعين ألف حاج.

وفي عام 1643م زار مكة المكرمة ماثيو دي كاسترو Matheo de Castro وهو مطران كاثوليكي من أصول هندية، وظل سبب رحلته، وكيفية وصوله إلى مكة المكرمة، وتقريره الذي كتبه أسرارًا لم يعرفها أحد حتى يومنا هذا.

وفي سنة 1097هـ/1685م وصل إلى الحجاز جورج بيتس George Pitts، وهو بريطاني الأصل، وكان في بداية رحلته من أوروبا تعرض للأسر في البحر الأبيض المتوسط، وبيع لأحد المواطنين في الجزائر، وقد انتقل بيتس من سيد إلى آخر، فصحبه سيده الأخير إلى مكة المكرمة، وصف بيتس المسلمين ولباسهم وتدينهم كما شاهدهم في مكة المكرمة وفي عرفات، وزار بيتس مع سيده المدينة المنورة، وقد دون ذكرياته عن بلاد الحجاز في كتاب بعد أربعين سنة من وقوع الرحلة.

ولعل العالم الدنماركي كرستين نيبور Carsten Neibuhr الذي وصل إلى جدة في نهاية سنة 1176هـ/1762م مع فريق علمي كلفه إمبراطور الدانمارك فردريك الخامس بدراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية والبيئية والجغرافية للحجاز. أقول لعل نيبور من أشهر الرحالة الجادين، وتُعد كتاباته عن بلاد الحجاز رائدة في مجال الاستكشافات العلمية، وكان نيبور دقيقًا في ملحوظاته، كما هو الشأن في كل كتاباته، سجل نيبور معلومات كثيرة من مدوناته ومدونات زملائه في الفريق العلمي، جاءت مكتشفاتهم وملحوظاتهم عن جزيرة العرب في مجلدين كبيرين، ونيبور أول من نقل خبر الدعوة السلفية إلى أوروبا، وهو أول من سماها بالوهابية، وقد قال عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب أخبارًا لا تصح، مثل قوله: إن الشيخ محمد سافر إلى فارس لطلب العلم، وهو قول نشاز لا دليل عليه، مكث نيبور في جدة ستة أشهر على أمل أن يزور مكة المكرمة ووسط الجزيرة العربية.

وفي ظني أن رحلة دومينجو باديا لبليخ Domingo Badia Y Leyblich من أجمل الرحلات وأمتعها، جاء لبليخ إلى الحجاز متظاهرًا بالإسلام، وسمى نفسه علي بك العباسي، وادعى أنه من سلالة بني العباس، يرجع أصل لبليخ إلى مدينة بتسية الإسبانية، ولاشك أنه كان يعمل لصالح نابليون إمبراطور فرنسا، وصل لبليخ مكة المكرمة عام 1222هـ/1807م، كانت كتابات لبليخ مفعمة بالحيوية، وهو أول من نقل للغرب فكرة منظمة وصحيحة عن مناسك الحج، وعن مكة المكرمة، بل هو أول من حدد موقع مكة المكرمة تحديدًا دقيقًا مستعينًا بأجهزة رصد فلكية، كما أنه الأوروبي الوحيد الذي تمكن من دخول جوف الكعبة، حيث شارك شريف مكة المكرمة الشريف غالب في غسل الكعبة.

يغلب على تقاريره عن الحجاز النزعة الروحية، ومن المهم الإشارة إلى أن لبليخ كان شاهد عيان على تقدّم القوات السعودية إلى مكة المكرمة، وتسنى له مشاهدة الجيش السعودي وقائده الإمام سعود بن عبدالعزيز (1218 – 1229هـ/ 1803 – 1814م)، فوصفه ووصف حجاج نجد، ولاحظ حماسهم الديني، وبساطتهم، وقدّر عددهم بخمسة وأربعين ألفًا، وكان مأخوذًا بحسن أجسامهم، وعيونهم وأنوفهم المستقيمة، ولأن لبليخ يعمل لصالح فرنسا فقد دست له المخابرات البريطانية السم فمات سنة 1233هـ/1818م.

وفي عام 1224هـ/1809م زار مكة المكرمة أولريخ جاسبر سيتزن Ulrich Jasper Ceetzen، وهو من إحدى الإمارات الألمانية التي كانت تابعة لقيصر روسيا، ومن المتخصصين في اللغويات، وهو موسوعي الثقافة، كانت رحلته بدعم من قيصر روسيا، وكان يهدف من زيارة مكة أن يحمل لقب حاج، ليستفيد منه في مهماته القادمة في آسيا وأفريقيا لصالح المخابرات الروسية، وقد تمكن سيتزن من الحصول على اللقب، بعد مشاق عسيرة، منها خضوعه لامتحان في المسائل الدينية، وهكذا بعد انقضاء موسم الحج، غادر سيتزن الحجاز إلى اليمن.

زار الرحالة السويسري جون لويس بوركهارت Gohann Ludwing Burckhart مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف وجدة وينبع، وتجول فيها مدة من الزمن تبلغ عشرة أشهر، من منتصف سنة 1230هـ/ 1814م إلى الربع الأول من سنة 1231هـ/1815م، وسجل كل ما شاهده، وكل ما عنّ له عن تلك البلاد وأهلها، وأنماط حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، لبوركهارت أربعة كتب هي: (1) رحلات في بلاد الشام (2) رحلات في بلاد النوبة (3) ملاحظات على البدو الوهابيين (4) رحلات في شبه الجزيرة العربية، عرّب الدكتور عبدالله العثيمين الكتاب الثالث، أما الكتاب الرابع فنقله إلى العربية الدكتوران: عبدالعزيز الهلابي وعبدالرحمن الشيخ.

وصل بوركهارت جدة تحت اسم مستعار هو إبراهيم ابن عبدالله الشامي ضمن قافلة من الحجاج النوبيين، يقول الكولونيل ليك Leake عن بوركهارت ومؤلفاته: «لقد قدم بوركهارت للجمعية الأفريقية في لندن أدق المعلومات عن الحجاز، خاصة عن مكة والمدينة، على نحو لم يصل أبدًا إلى أوروبا قبل ذلك، لقد مكنته معرفته باللغة العربية وعادات المسلمين من الظهور بشخصية مسلم بنجاح كبير، لقد أقام في مكة طيلة موسم الحج وقام بأداء مناسك الحج دون أن يثير أدنى شك حول حقيقة شخصيته»، قابل بوركهارت محمد علي باشا في الطائف، حيث كانت الجيوش المصرية تحارب، في جبهات عدة، جيوش الدولة السعودية الأولى، ودوّن بوركهارت بشكل دقيق ملحوظاته عن الدعوة السلفية وأتباعها، قدّر بوركهارت الواقفين في صعيد عرفات بسبعين ألف حاج، يتكلمون أكثر من أربعين لغة.

زار جدة المغامر الألماني إدوارد رابيل Edward Ruppel عام 1247هـ/1831م، وهو يُعد من المستكشفين العظام الذين قدموا للعلم التاريخي الشيء الكثير، وذلك من خلال استكشافه للآثار في مصر وبلاد النوبة، والشام، والساحل الشرقي للبحر الأحمر، وسيناء، وأثيوبيا، وكوردفان، وبعد عودته من رحلاته المتعددة، أمضى بقية حياته في مدينة فرانكفورت، وعكف على نشر مذكراته وأبحاثه التاريخية والآثارية والنباتية والحيوانية.

يُعد توماس كيث Thomas Kieth أحد المغامرين

والمرتزقة الذين شاركوا الحملة المصرية العثمانية معاركها في الحجاز. وكان توماس كيث يشغل رتبة ضابط في الفرقة الاسكتلندية، وهو من بقايا حملة نابليون على مصر. وكان توماس كيث خبيرًا في إدارة المعارك، ويتصف بالذكاء وحسن التدبير، لهذا عينه طوسون باشا عام 1231هـ/1815م واليًا على المدينة المنورة، عندما غادرها على رأس الجيش إلى نجد. وبهذا التعيين يكون توماس كيث أول أجنبي غير مسلم يتولى إمارة المدينة. ويُقال: إن كيث خلّف بعد وفاته مذكرات عن الحجاز، ولا يعرف أحد عنها شيئًا، وما وصلنا عنها قليل، ومنها يتضح مدى الشك في معلوماته.

ويضيف الدكتور العسكر، ومن أشهر الرحالة الخبير الفرنسي موريس تاميزية Maurice Tamisier الذي وصل الحجاز عام 1250هـ/1834م، وقد جاء مع الحملة المصرية كأمين سر ومساعد للطبيب شيرفو. وكان تاميزية يتصف بالذكاء ودقة الملاحظة، وقد كتب عن رحلته هذه كتابًا عنوانه: (رحلة إلى بلاد العرب Voyage en Arabie).

وتكمن أهمية رحلة تاميزية كون صاحبها سجل بشكل متسق وشمولي أحداث حملة محمد علي على الحجاز وعسير، وتحدث عن قضايا داخلية كثيرة. منها على سبيل المثال: وصف مدينة الطائف، التي قال عنها: إنها مدينة محزنة بسبب الدمار الذي أصابها، وذلك بسبب انتشار وباء الطاعون فيها، وهو داء قضى على عدد كبير من السكان، وكان تاميزية يكن إعجابًا شديدًا للرقعة الخضراء التي تُغطي معظم نواحي الطائف. وفي كتابه حديث شيق عن بيشة وأبي عريش، ثم حديث طويل وممتع عن عسير وتاريخها وصراعها مع محمد علي. وقد عرّب الدكتور محمد آل زلفة كتاب تاميزية عن نص إنجليزي مترجم، ونشرهما في جزأين: الأول تحت عنوان (رحلة في بلاد العرب: الحملة المصرية على عسير 1249هـ/1934م) الرياض 1414هـ. والثاني تحت عنوان: (رحلة في بلاد العرب: الحجاز) الرياض 1421هـ.

ومن أغرب الشخصيات الغربية الذين زاروا مكة المكرمة شخصية الفرنسي ليون روش Leon Roches، الذي قضى ردحًا من الزمن مستشارًا للأمير الجزائري عبدالقادر، ثم تظاهر بالإسلام، وقرر مغادرة الجزائر بعد قصة حب فاشلة، وبعد نشوب معركة بين الجزائريين والجيش الفرنسي، لا يستطيع معها حمل السلاح ضد مواطنيه. وصل ليون روش مكة المكرمة في نهاية عام 1257هـ/1841م في زي حاج مسلم، وتسمى باسم عمر ابن عبدالله، ثم زار المدينة المنورة، وأعجب بالمسجد النبوي وفوانيسه، والكتابات المذهبة على الجدران. ثم عاد إلى مكة المكرمة، وبقي فيها أسبوعين، غادر بعد ذلك إلى الطائف لمقابلة الشريف، الذي أكرم مثواه على أساس أنه عميل سياسي لفرنسا لا أكثر، وبحلول موسم الحج ذهب إلى مكة المكرمة. وكانت تراوده فكرة التحول إلى الإسلام، لكنه بقي على دينه حتى وفاته.

وفي جبل عرفات تعرف عليه بعض الجزائريين فصاحوا: (النصراني.. النصراني) وشعر أن نهايته قد اقتربت، وإذا ببعض الجنود يقبضون عليه، ويقيدونه، ثم يضعونه على ظهر جمل، وعرف أخيرًا أن أولئك الجنود، هم من حرس الشريف، الذي بعثهم لتخليصه، ووضعه في أول سفينة ترسو في ميناء جدة. كتب روش مذكراته بعنوان: (اثنان وثلاثون عامًا في الإسلام) وصدرت في جزأين، ويهمنا الجزء الثاني الذي خصصه للحديث عن مهمته في الحجاز، وقد ادعى روش أنه ثالث نصراني يدخل مكة المكرمة بعد الأسباني دومينجو باديا لبليخ Domingo Badia Y Lebich المعروف باسم علي بك العباسي سنة 1222هـ/1807م، والإنجليزي جون لويس بوركهارت Gohann Ludwig Burckhart .1229هـ/1814م.

ويأتي إلى الحجاز ملازم في الجيش الهندي ولكنه من إيرلندا هو ريتشارد بيرتون Richard Burton عام 1270هـ/1853م متنكرًا في صورة حاج من الهند. كانت رحلة بيرتون إلى الديار المقدسة مدعومة من قبل الجمعية الجغرافية البريطانية، لغرض تقديم تقرير عن أحوال الحجاز والمنطقة الواقعة بينه وبين مسقط من كافة الوجوه. وكان الحجاز آنذاك يقع تحت سيطرة الدولة العثمانية. وكانت بريطانيا ترغب في معرفة المزيد عن الأماكن المقدسة لتستخدمها في صراعها السياسي والاقتصادي مع الدول العثمانية. ولكن لسوء الحظ أو لحسنه، فإن التقارير التي كتبها بيرتون، وشكلت كتابًا كبيرًا، لم تكن ذات نفع كبير لحكومة بريطانيا، لأنها تقارير مشوشة وغير دقيقة من الناحية السياسية.

ومع هذا فقد ربحت أدبيات الرحلة الأوروبية سفرًا جميلاً ونفعًا كبيرًا. فقد استطاع بيرتون أن يكتشف بحيرة تنجانيقا. وترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية، بل ترجم ثلاثين كتابًا من العربية والفارسية. ذلك أنه يتقن خمسًا وعشرين لغة. وكان بيرتون متيمًا بالشرق، وكان يرى أن تقوم الدول الأوروبية بنقل نظم وتراث الشرق. وكان يعتقد أن استيراد الشرق لنظم غربية أمر مضحك، وهو تنبأ أن جهود الدولة العثمانية في الإصلاح بإصدار مجموعات قوانين وتنظيمات مستوحاة من الغرب، وهي المعروفة (بخط كلخانة) أنها لن تؤتي ثمارها المرجوة.

وصف بيرتون المدينة المنورة، وعادات السكان، والحرم النبوي، وكان يستعين بآيات من القرآن الكريم، والحديث الشريف. ثم عرج على مكة ووصفها، ووصف مناسك الحج، وكان في وصفه لتلك المناسك يصدر عن احترام للإسلام وعن تدين. وقد ذكر بيرتون الدعوة السلفية وقال: إن رجالها يتطلعون إلى أوروبا للتحالف معهم من أجل السيطرة على الحجاز. ولا نعلم مصدره في هذه المعلومة، ولكنه يتمتع ببعد نظر، ولهذا فقد صحت توقعاته، فقد تحالف أشراف الحجاز فيما بعد مع بريطانيا ضد الدولة العثمانية. ونقل الدكتور عبدالرحمن الشيخ رحلة بيرتون الممتعة إلى العربية بعنوان (رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز) ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ضمن سلسلة الألف كتاب عام 1994م في ثلاثة أجزاء.

وفي عام 1271هـ/1854م، وصل إلى الحجاز شارل ديدييه Charles Didier وأقام في جدة مدة، ثم غادرها إلى الطائف لمقابلة الشريف عبدالمطلب بن غالب الذي كان يقضي إجازته في قصره بالطائف. جاء ديدييه مبعوثًا سريًّا من الحكومة الفرنسية لمعرفة مدى صلابة الوجود العثماني في الحجاز، لذلك نراه يجتمع ويلتقي بأكبر رجالات الحكومة في الحجاز، وبالتجار وبعض المبعوثين الأوروبيين، وخاصة القنصل البريطاني. كانت حصيلة الرحلة كتابًا كبيرًا عنونه صاحبه (إقامة في رحاب شريف مكة) وفي الكتاب وصفٌ جغرافيّ وبشريّ لكل من جدة والطائف، وحديثًا عن الجغرافية الاجتماعية لهما. وفي الكتاب أيضًا حديث عن الحياة الاقتصادية في الطائف، وملاحظات عن السكان. وقام الدكتور محمد خير البقاعي بترجمة الرحلة بعنوان (رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي)، ونشرتها دار الفيصل الثقافية بالرياض عام 1422هـ/2002م.

وفي عام 1277هـ/1860م زار مكة المكرمة البارون مالتزن Baron H. von Maltzan، وكان في ريعان شبابه بصحبة حاج جزائري مدمن تعاطي الحشيش، واتفق مالتزن معه أن يستخدم جوازه للدخول إلى مكة المكرمة مقابل كمية من الحشيش. وهذا ما حدث، واستطاع مالتزن الوصول إلى مكة بجواز مرور مزيف، وبقي صاحب الجواز الأصلي في جدة لا يدري من أمره شيئًا، وكان يعتقد أنه أدى فريضة الحج.

سكن مالتزن في فندق صغير في جدة، وهي مدينة لم يرتح لها، وكانت ليلته في الفندق مزعجة، إذ جاور غرفة مليئة بالدراويش، الذين قضوا ليلتهم في صراخ. لم تترك مكة المكرمة لدى مالتزن أي انطباع إيجابي، وكان يشعر بعدم الراحة النفسية، وهو اعتبر الشعائر الإسلامية طقوسًا مملة، ذات طابع جنوني. وشبّه المسجد الحرام بقلعة الشياطين. وقد صاحب الحجيج في مُعظم مناسكهم ، وبعد الانصراف من عرفات لم يكمل مالتزن بقية النسك. لأنه سمع رجلين من الجزائر يتحدثان عنه، وعرفا أنه على دين النصرانية، لذا فضل مالتزن الهروب إلى جدة، حيث ينتظره صاحب الجواز، وأعاد له جوازه وعليه رسم الدخول إلى مكة المكرمة.

جاء إلى مكة المكرمة الطبيب البريطاني هيرمان بكنيل Herman Bicknell في عام 1279هـ/1862م، كان

بكنيل يعمل جراحًا في مستشفى سانت بارثولوميو بلندن. وكان يؤمن أنه من صالح الحكومة البريطانية أن يلم الشعب البريطاني بالمعلومات الموثقة والواسعة عن الدين الإسلامي والمسلمين. ولن تأتي تلك المعرفة إلا عن طريق المشاركة في أكبر موسم يجمع المسلمين، وهو موسم الحج.

لهذا تطوع الدكتور بكنيل بالقيام بالرحلة إلى مكة المكرمة، وتنكر في صورة بريطاني مسلم، لذا لم يضطر لتغيير ملابسه. أنهى الدكتور بكنيل مناسك الحج، وأقام بمكة المكرمة، وقال إن المسجد الحرام يشبه القصر الملكي في باريس. ولم يذهب مع الحجاج الذين رافقهم إلى المدينة المنورة، بحجة أنه لا يستطيع مقاومة موجة الحر. وبعد عودته نشر مقالاً مطولاً عن الإسلام والمسلمين في جريدة التايمز عنوانه (الحج إلى مكة)، ووقعه باسمه الإسلامي المستعار: (الحاج محمد عبدالواحد) وتاريخ المقال هو 1862/8/25.

ويقول الدكتور العسكر، معظم الرحالة الغربيين الذين جابوا مناطق الجزيرة العربية وخاصة بلاد الحجاز عمدوا إلى إخفاء شخصياتهم الحقيقية، وتنكروا خلف أسماء عربية، وأظهروا مهنًا لا يعرفونها أصلاً، نستثني من أولئك نفرًا قليلاً، يأتي على رأسهم البريطاني تشارلز مونتاج داوتي Charles Montage Doughty وهو ليس فقط يعلن عن اسمه الحقيقي في معظم الأحيان، بل فوق هذا لم يأت للجزيرة لحساب دولة أو رئيس دولة، لقد كان داوتي من المغامرين وحسب، كان رجلاً متدينًا، وإن قلت مأخوذًا بقصص العهد القديم لدرجة الذوبان فيها، فلن أتجاوز الحقيقة.

جاء إلى الجزيرة العربية يريد تحقيق أهدافه غير المعلنة، وهي أهداف لا تخرج عن رغبته في تلمس القصص الواردة في العهد القديم، ومعرفتها على الطبيعة، يريد أن يعرف مثلاً الأماكن التي ذكرت في التوراة مثل مدائن صالح، ومعرفة السكان الذين يقطنون تلك الأماكن. لهذا انضم إلى قافلة الحجاج الشامية وتسمى باسم خليل، وهذا لا يعني إخفاءه اسمه الحقيقي، ولكنه من ضرورات السفر في البلاد العربية، وعندما وصلت القافلة إلى مدائن صالح تخلف داوتي، لأن قائد القافلة كان على علم بديانة داوتي وشخصيته الحقيقية، ولهذا رفض مواصلة داوتي السفر إلى المدينة المنورة ثم مكة المكرمة، وصل داوتي مدائن صالح نهاية شهر نوفمبر عام 1293هـ - 1876م، وبقي فيها مدة ينتظر عودة القافلة. فقام بدراسة المنطقة واستنساخ معظم الكتابات والنقوش.

لقد أخذ داوتي يجوب الجزيرة من شمالها مرورًا بوسطها ثم منتهيًا بغربها الشمالي، وكتابه الموسوم (الصحراء العربية Deserta Arabian من أكثر الكتب نفعًا، ومن أكثرها نقلاً للقصص والحكايات التي سمعها، والمعلومات التي أوردها عن شعب الجزيرة معلومات قيمة، وخاصة عن الدولة السعودية الثانية، وهو من أصدق الرحالة الذين وصفوا طبيعة العلاقة بين القبائل العربية في زمن الرحلة.

ولأن داوتي جيولوجي فقد أثر عليه هذا التخصص، لذا فانه لم يجد ما يقوله عن جغرافية الجزيرة، ولكنه كان مأخوذًا بطبيعة البداوة، ومحبًا للبدو، فوصفهم أدق ما يكون الوصف، في كل مناحي حياتهم العامة والشخصية، ربما لم يصادف أحد من التعاسة، وشظف العيش، وقساوة الرحلة كما صادفها داوتي، وهو يقول: «لقد عشت في الجزيرة العربية يوما سعيدا واحدًا فقط، أما بقية الأيام فكانت كلها سيئة بسبب تعصب الناس».

كانت رحلة الإنجليزي جون كين Gohn Fryer Keane رحلة ذات عبق روحي، ولا غرو في ذلك، فهو ابن قسيس، وتربى منذ شبابه لدى المسلمين، وقد ساعدته تسع سنوات قضاها عاملاً في البحرية الهندية على التعرف الكافي على الدين الإسلامي، ومن ثم جاءت الفرصة عندما أبحرت سفينته إلى الحجاز، فرافق أميرًا هنديًا وقضى عدة أسابيع في مكة المكرمة، التي وصلها عام 1294هـ/ 1877م.

أحب جو كين مكة المكرمة لدرجة حسب نفسه من أهلها، وقال: إن سحنته الأوروبية لم تثر اهتمام الناس أو فضولهم، ذلك أن الحجيج من كل صوب ولون، وشبّه جمع الناس المختلفين بشخصيات متحف مدام توسو، ووصف كين منظر طلاب المدرسة وهم يجلدون على أقدامهم، وقال: إن كل مجموعة تضم خمسة تلاميذ يتلقون هذا العقاب دفعة واحدة، ووقع له موقف طريف، هذا ملخصه: يقول كين: «إنه يحب مكة المكرمة، ومعجب بالإسلام، ولكن أهل مكة لا يستحقون الحب، فأغلبهم شحاذون، يطلبون البخشيش بسبب أو بغيره، وحدث أن مر يومًا وهو مرتد الملابس العربية الفضفاضة، ويعتمر العمامة أن تقدم له صبي وصاح بدون سبب: «انظروا إلى هذا النصراني» فما كان من أحد المتسولين إلا أن تقدم له وطلب الإفصاح عن هويته، فأخذه كين ورماه أرضًا، ثم تكاثر الناس عليه، فاضطر أن يختطف طفلاً ويجعله واقيًا له من الحجارة التي ترمى عليه، وأسرع إلى مركز الشرطة، حيث شرح لهم قصته، وادعى الإسلام، فتلقى الحماية اللازمة.

لم تكن تلك الحادثة هي آخر معاناة كين، فقد حدث له في الطريق إلى المدينة المنورة قصة كادت تودي بحياته، لما رأى معالم المدينة المنورة تذكر مدينة القسطنطينية، لكنه مثل بيرتون، لم يعجبه طراز ولا ألوان المسجد النبوي، وقال عنهما: إنهما بهرجة لا تنم عن ذوق سليم، كتب كين مذكراته وذكرياته في كتاب يتسم بالذوق الأدبي الرفيع أحيانًا والوضيع أحيانًا أخرى.

ليس من الرحالة الغربيين الذين أقاموا بالحجاز أو بمكة من يدعي معرفتهما مثل ما يعرفهما الرحالة الهولندي كريستان هورخرونية Snouk Horgronje فقد قضى فيهما أكثر من سنة، عام 1303هـ - 1885م. هورخرونية من المتخصصين في اللغات السامية، وأطروحته للدكتوراه عن أصول الحج، ومن عجائب طرقه للحصول على المعلومات هي الارتباط بزيجة في البلد الذي يقيم فيه، لهذا تزوج في مكة المكرمة امرأة من جاوة، وعن طريقها استطاع معرفة معلومات عن المجتمع وعاداته، لا يمكن الوصول إلى معرفتها من دون تلك الزيجة، مثل وصف الزواج في مكة، ووصف العروس، بل أخذ صورة شمسية لها، وليس من المستبعد أن زواجه من سيدة جاوية هو لمعرفة المزيد عن الجالية الجاوية في الحجاز، ولمعرفة ارتباطهم بإندونيسيا التي خضعت للاستعمار الهولندي في ذلك الوقت، اهتم هورخرونية بدراسة العادات في الحجاز، خاصة ظاهرة الزار، ونظرًا للتنافس الغربي، فقد قام القنصل الفرنسي في جدة بتسريب سر وجوده في مكة المكرمة، لذا سارع هورخرونية إلى تركها.

ألف هورخرونية كتاب (صفحات من تاريخ مكة المكرمة) وهو كتاب عظيم الشأن، ويعد بحق مصدرًا لمجمل حالة مكة المكرمة في القرن الثالث عشر الهجري - القرن التاسع عشر الميلادي، خاصة ما يتعلق بالنواحي الإثنوغرافية، ولا نعدو الحقيقة عندما نقول: إنه لم يؤلَّف كتاب عن مكة المكرمة يصف ما هي عليه في القرن الثالث عشر الهجري مثل كتاب هورخرونية، ولا نظن أن أي باحث في تاريخ مكة المكرمة الحديث يستطيع أن يتجاوزه.

وتُعد زيارة المصور الفرنسي المحترف جري في كورتلمون Gervais Courtellmont إلى مكة المكرمة أول زيارة من نوعها، شجعه عليها أصدقاؤه الجزائريون، لكي يتعرف أكثر على سلوك المسلمين وعاداتهم.

وصل كورتلمون مكة المكرمة عام 1321هـ - 1894م من الجزائر، أخذ صاحبنا عدة صور لمكة المكرمة والبيت الحرام بلغ عددها 34 صورة. ووصف مكة وسكانها، وقال: إن الإسلام دين عظيم وبسيط، ولكنه لا يملك الجرأة الكافية لاعتناقه، وقال: إنه سمع حكاية منتشرة بين السكان مفادها أن من يدفن في مكة المكرمة أو المدينة المنورة يذهب إلى الجنة.

أما الحاج عبدالله وليامسون Williamson فهو بحق مسلم، وحج حجته الأولى عام 1313هـ/ 1895م، وليامسون بريطاني مغامر هرب في مقتبل عمره إلى كاليفورنيا، ثم انضم إلى جماعة المتمردين في الفلبين، وبينما كان يعمل شرطيًا في عدن، اعتنق الإسلام، ذهب بعد ذلك إلى العراق حيث قضى معظم سنوات عمره، ووظف خبرته لصالح شركة النفط البريطانية، كتب رستانتون هوب قصة حياة وليامسون في كتاب عنوانه: (الهارب إلى الله)، وهي قصة من أجمل قصص المغامرة، وقد ظهر للكتاب ترجمة عربية اطلعتُ عليها.

الأفكار وسطوتها



د. أمير تاج السر

كاتب وروائي سوداني

«يبقى للكتابة غير الخاضعة لجماليات متعددة، أو مناهج علمية، بوصفها صنعة، ومن الواجب تطويرها، يبقى لها عشاق عديدون، راضون بما يقرأونه»

الأعوام الأخيرة، تزداد أهمية هذه الأبواب، وتصبح عن جدارة، مطلوبة من أجل مواصلة القراءة أم لا؟. وقد قرأت في مراجعات كثيرة لقراء الروايات على الإنترنت، من يتحدث عن رواية، فيقول: لم تعجبني بدايتها، فلم أكملها. أو من يقول: منذ السطر الأول وأنا منهمك في هذه الرواية، لم أستطع تركها.

هذا إحساس حقيقي، وينبغي أن يحسه كل قارئ يقرأ بخبرة وإدراك، أن يجره المدخل إلى ما بعده، أو يطرده، فلا يعود إلى هذا النص مرة أخرى، حتى لو أشاد به آخرون، وهذا ما يجعل بعض المداخل وليست كلها، تخضع لاختلاف الأذواق عند القراء، ذلك الاختلاف الذي طالما تحدثت عنه، وتحدث عنه غيري كثيرون.

ولعل البداية الجامدة التي تتكون من حوار صلد بين اثنين، أو مشهد باهت، لا يحرك المخيلة، من تلك المداخل الطاردة، بعكس البداية الشعرية، الموحية، التي تشد الفضول لمعرفة ما وراءها.

لا يمكن أن تجد قارئًا نشطًا في الركض بين صفحات كتاب ما، وبدايته مثلاً في شكل حوار يتبادل فيه اثنان التحية، ويسألان عن أحوال الأبناء والأهل، وهكذا.. وستجد مئة قارئًا آخرين، يخبون خبًا في السكة التي تصف بدايتها مثلاً: مكانًا جيدًا، وملائمًا لوقوع حدث، وشخوصًا عالقين في كارثة، ولا يجدون الحل، وطائفة بدائية، تعيش بكل تقاليدها وأفكارها، في عالم متحضر، وأيضًا تلك

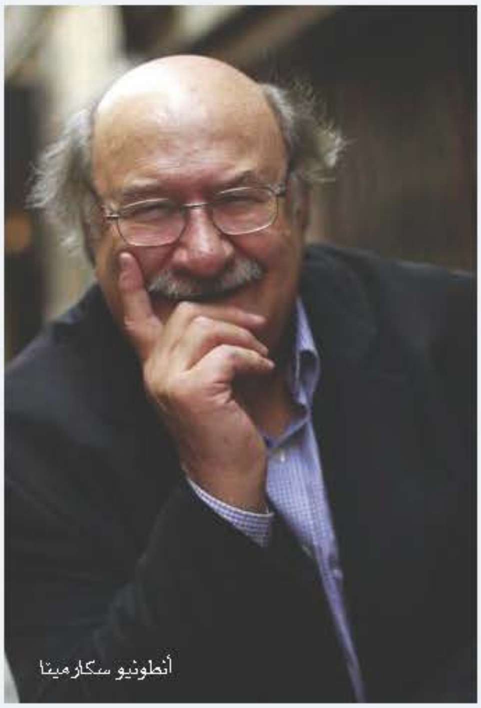
البدايات التي تشبه مداخل الأشرطة السينمائية، وتكون مشبعة بالغموض، وتحتاج لمن يسعى لمحاولة اكتشافها بالخطوات نفسها التي يسعى بها شخوص القصة.

من المؤكد، أن التركيز على البداية، لا يأتي هكذا مصادفة، وإنما بعد تدريب طويل على إيجاد بداية جيدة، وغير تقليدية، وأنا شخصيًا أعُدُّها العقبة الكبرى التي تواجهني، حين أكتب، ويمكن بسهولة أن يضيع مني نص، لأن بدايته لم أحسها ترتقي لمستوى ملائم، وأعتقد أن غابرييل ماركيز نوه مرة إلى إيمانه بالبدايات الناجحة وغير الناجحة، وإنه أيضًا يهتم بها، وإن لم يجدها لا يكتب النص، ولذلك أعُدُّ ماركيز من أكثر الكتاب الذين صنعوا مداخل ناجحة، ومشجعة لإكمال نصوصهم.

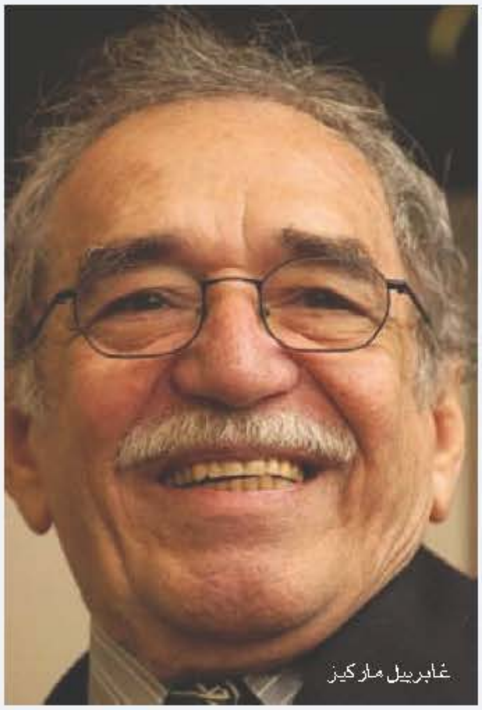
ما زلت أذكر المدخل الرائع لرواية "مئة عام من العزلة"، حين يأتي الغجري ميكليدس إلى ماكوندو ليري الناس الجليد، وكان في الواقع عائد من رحلة الموت، فقد مات منذ مدة لكنه عاد.

بداية مثل هذه لا تترك الخيال بليدا، ونائمًا، لكنها توقظه وتنشطه، وتجعله يلهث ليعرف ماذا سيحدث، في تلك البلدة المدهشة ماكوندو.

"الحب في زمن الكوليرا" أيضًا، بدأت بانتحار لاجئ مسن من جزر الأنديز، وكان الفرض أن يظهر الطبيب، صديق المنتحر، لأن القصة تبدأ من بيته، وتنتهي في بيته، قصة حب لورينثو داسا لأرملته، تستمر أكثر من



أنطونيو سكارميتا



غابرييل ماركيز



أمين معلوف

سبعين عامًا.

أيضًا من المداخل الناجحة، ما نجده في روايات مثل: "ليلة لشبونة" لأريك ماريا، و"شتاء شيلي" لأنطونيو مولينا، و"ساعي بريد نيرودا" لأنطونيو سكارميتا، و"أغنية أخيل" لمادلين ميلر، ومعظم ما كتبه أمين معلوف، وصبري موسى، وبهاء طاهر، وغيرهم، وتوجد بالطبع تلك البدايات المشلولة التي يمكن أن تظهر في كتابات أي أديب، مهما بلغت مهارته وشهرته، ولدي أمثلة كثيرة، تركت فيها النصوص ولم أكملها.

أعتقد أنه ومع تنامي اتجاهات تدريس الكتابة الإبداعية، في ورش مختصرة لعدة أيام، أو كبيرة تمتد لأشهر، تصبح الفرصة أكبر للأجيال اللاحقة في صناعة نصوص قليلة العيوب أو خالية من العيوب تقريبًا. الورشة الأبداعية يشرف عليها في العادة كتاب لهم خبرة ودراية، ومستعدون لتقديم خدمات للآخرين بصبر، ويحضرها شباب مبدعون، لكنهم بحاجة لأضواء تهديهم إلى الطريق، وأيضًا مستعدون للاستيعاب، وتطوير ما لديهم. التعليم هنا ليس حصصًا تلقى، وكتبًا يتم حفظ موادها، وامتحانات تجري بعد ذلك. إنه في الواقع نقاش مفتوح بين المعلم والمتعلم، وبينهما وآخرون يحضرون الورشة نفسها، ويمكن أن يدلوا بكلمة تكون لها فائدتها.

أذكر أنني حضرت مرة ورشة للكتابة، وكان على المشاركين كتابة نصوص، هي الفصول الأولى لروايات، تتم مناقشتها مع المشرفين، أو قصصًا قصيرة مكتملة، وقد كانت الورشة في رأيي ناجحة جدًا، حيث التزم الجميع بلائحتها، وتعدلت فيها النصوص المرتبكة، لتصبح أكثر ثباتًا.

كان ثمة نص يبدأ بحوار طويل بين امرأتين، وكان خاليًا من أي نكهة جمالية، ولا يستطيع القارئ أن يفهم لمَ يجري الحوار أصلاً؟، وحين تعدلت بداية النص، ووصف المكان، والحدث الذي سيجري فيه بعد ذلك، أحسسنا جميعًا أن باب النص، تلون بألوان كثيرة جاذبة، وتهيأ لاستقبال القراء.

نص آخر ابتدأ بوصف كلاسيكي للشمس التي في (كبد) السماء، والضروع التي جف منها اللبن، والرجل الذي (لم ينبس ببنت شفة)، وكثير جدًا من تلك العبارات التقليدية الضارة بالإبداع في الوقت الحالي، ثم لينظف من تلك العتاقة، ويزود بأوصاف حديثة غير مطروقة كثيرة، وأيضًا يصبح الباب ورديًا، وجاهزًا للزوار.

بالطبع وبعد كل ما ذكرته، يبقى للكتابة غير الخاضعة لجماليات متعددة، أو مناهج علمية، بوصفها صنعة، ومن الواجب تطويرها، يبقى لها عشاق عديدون، راضون بما يقرأونه، وأيضًا كتاب لن يبرحوا المكان الذي هم فيه، عن اقتناع تام بأنهم يقدمون إبداعًا متميزًا، وهكذا تصبح الآراء المختلفة في شأن الكتابة، في النهاية، آراء شخصية من حق كل من يكتب أن يدلي بها، ومن حق كل من يقرأ أن لا تقنعه.

«لا يمكن أن تجد قارئًا نشطًا في الركض بين صفحات كتاب ما، وبدايته مثلاً في شكل حوار يتبادل فيه اثنان التحية، ويسألان عن أحوال الأبناء والأهل»

«أعتقد أنه ومع تنامي اتجاهات تدريس الكتابة الإبداعية. في ورش مختصرة لعدة أيام. أو كبيرة تمتد لأشهر. تصبح الفرصة أكبر للأجيال اللاحقة في صناعة نصوص قليلة العيوب أو خالية من العيوب تقريبًا»

التفاؤل



د. وليد فتيحي

جدة

نولد به أطفالاً.. فهو من طبيعة فطرة الإنسان، ولكنه يضعف ويقوى، فهو يُعلم كما يُعلم نقيضه، بناء على خبراتنا ونمط تنشئتنا فمن تأصل فيه وأصبح من طبيعته تغيرت نظرته لنفسه وللدنيا من حوله، فتفجرت طاقات الحياة الكامنة الإيجابية فيه تدعوه وتعينه على العمل والصبر والمثابرة والإنجاز، وتمنحه السعادة والصحة الجسدية والعقلية والنفسية، وهذا ما تثبته الأبحاث والدراسات على الإنسان، كل على قدر ما آمن به ورأى الدنيا بمنظاره..

تعرف منظمة الصحة العالمية التفاؤل بأنه عملية نفسية إرادية تولد أفكار الرضا ومشاعره والتحمل والأمل والثقة وتبعد أفكار اليأس ومشاعره والانهزامية والعجز. ويعرفه الطبيب الباحث Dr. Martin Seligman مؤسس علم النفس الإيجابي بأنه الطبع ذي التوقعات الإيجابية الذي يميل إلى إظهار المشاعر الإيجابية مثل الحماس والإثارة. وينطلق من الجانب المشرق وصوغها في خطة وتنظيم وآلية تنفيذ والانطلاق من ثم في تنفيذها.

إنه منطلق التفكير الدائم بإمكانات التوصل إلى حلول عملية وممكنة لأعقد المشكلات من خلال بحث أفكار جديدة ومبادرات جريئة تفتش عن المنافذ في المعوقات وتتحرك دومًا إلى الأحسن مزودة بالأمل والعزم.

وليس هناك حد فاصل بين التفاؤل والتشاؤم، حيث يتوزع الناس بين أقصى التفاؤل وأقصى التشاؤم، والغالبية في الوسط.

لقد جعل الله الفطرة هي التفاؤل، فالأطفال يولدون مفعمين بالتفاؤل بطاقة الحياة الموجهة للنماء، التي أودعها الله الإنسان. ويتعلم الأطفال التفاؤل أو التشاؤم من خلال علاقاتهم بوالديهم والأم خصوصًا، فإما أن تتأصل الفطرة فيهم وتقوى، وإما أن تنتكس وتضعف.

وللأسف فإن الدراسات تبين أن 70 % إلى 80 % مما نحدث به أنفسنا سلبي، فما أن يبلغ الإنسان منا الثامنة عشر من عمره إلا وقد تلقى من 50 إلى 150 ألف رسالة سلبية مقابل 400 إلى 600 رسالة إيجابية.

ولكن كيف يؤثر التفاؤل إيجابيًا على الإنسان؟ المتفائلون تُفعل لديهم آليات التحفيز والتعزيز الذاتي، مما يمدهم بالقوة والقدرة على مواجهة التحديات، ويستيقظ فيهم آلية الإدراك الانتقائي "Selective Perception" أي القدرة على رؤية الفرص وأوجه الاقتدار الذاتي والتوفيق بينهما. أما المتشائمون فإنهم يبالغون في التنكر لإيجابيات الحياة ولقدراتهم وإمكاناتهم، فتمر الفرص من أمامهم فلا يرونها لانشغالهم بالتركيز على السلبيات وأوجه القصور لديهم.

تقول هيلين كيلر العمياء الصماء البكماء، التي أذهلت العالم بإنجازاتها، وحققت المستحيل بنطقها بل وبتعلمها خمس لغات والحصول على الدكتوراه الجامعية، تقول: "كلما أغلق باب فتح باب آخر، ولكننا نكون غالبًا مشغولين بالباب الذي أغلق".

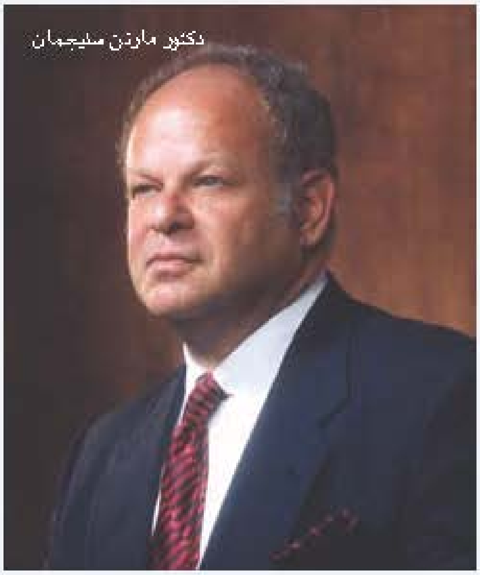
بل يميل المتفائلون أصحاب السمات الإيجابية بتعميم هذه الصفات على الآخرين، فينجذب الناس إليهم ويرتاحون لهم، وبذلك يكتسبون الكثير من العلاقات الإيجابية مما يعزز الثقة والتفاؤل لديهم، ويزودهم التفاؤل بطاقة العمل لمدة أطول وبذل جهد أكبر، انطلاقًا من ثقتهم بجدوى العمل لتحقيق نتائج طيبة، وبذلك يعظمون فرص نجاحهم.

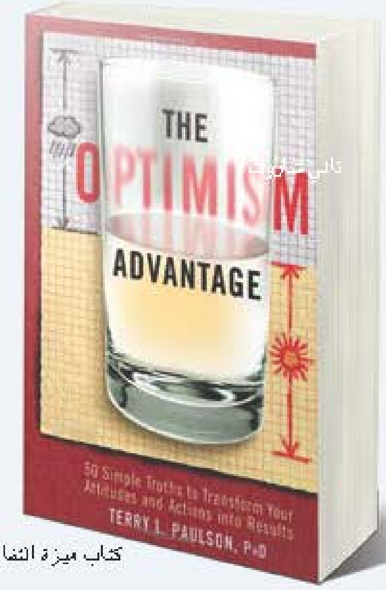
ولذلك فإن التفاؤل يمهد السبيل لإطلاق الطاقات والقدرات، والتشاؤم يعطلها في غياب القناعة الراسخة بالقدرة على تحقيق الغاية، وينتهي بعدم تحقيقها ولو كان المتشائم الأكثر قدرة وموهبة.

يصحح "Dr. Terry Paulson" في كتابه (ميزة التفاؤل) يصحح مفهوم التفاؤل ليؤكد أن الشخص المتفائل الحقيقي هو الذي يكسب توجهه الإيجابي عن جدارة نتيجة سجل حافل من الإنجازات والتغلب على العقبات الحقيقية.

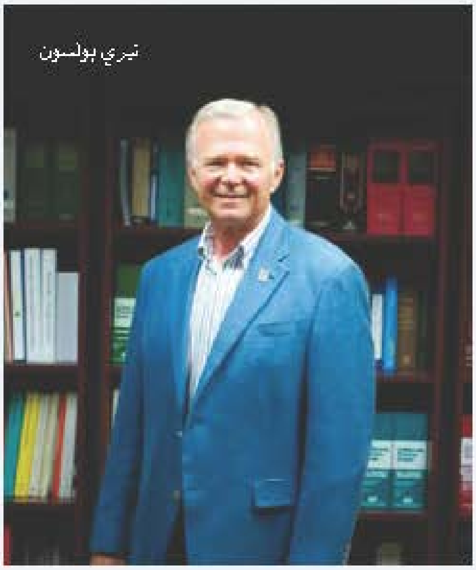
المتفائل الحقيقي هو الذي يقوم بالعمل بأحسن طرقه، وتزداد ثقته بالتغلب على العقبات الواحدة تلو الأخرى، وينتقل من نصر إلى آخر، وهو بذلك يحسن تقدير الواقع بما فيه من إيجابيات وسلبيات، ولا يعيش في الأوهام الوردية ولا التفاؤل والأمل الساذج السلبي الذي لا يرافقه بذل الجهد والعمل والصبر، ليصبح صورة من صور العجز الخفي المغلف بمعاني التوكل والاعتماد على الله زيفاً وادعاءً.

المتفائل يتقبل واقع الموضوع بمنظور تفكير إيجابي، وليس استسلامًا قدريًا، وباستيعابه لهذا الواقع فإن





كتاب ميزة التفاؤل



تأثير المحنة عليه سيكون أقل سلبية، بل يعمل على أن يحول المحنة إلى فرصة ومنحة بإعطائه المحنة معنى يتيح التعامل الإيجابي معها، ولا يدفن رأسه في الرمال متجاهلاً المحاذير والأخطار.

إنه تفاؤل مستنير ليس بساذج، فهو لا يُفرط في التقدير الإيجابي وتقليل أهمية الأخطار، سواء كانت صحية أو مهنية أو عامة، وينخرط في تقديرات غير واقعية، قد تؤدي إلى المهالك بعدم اتخاذ الحيطة الكافية لاتقاء الأخطار.

نشرت مجلة العلوم النفسية في فبراير 2013م نتائج دراسة أثبتت وجود علاقة بين التفكير الإيجابي في الحياة والحالة الصحية الجيدة، لتؤكد الدراسة أن التفاؤل هو مفتاح السحر للصحة، تقول الباحثة في كلية الطب بجامعة هارفارد جوليا بوهيم: إن الصحة الجيدة لا تقتصر فقط على غياب الأمراض، بل على الطريقة التي تنظر فيها إلى الحياة ومتغيراتها، فالتفاؤل والسعادة والمرح يمكن أن تحمي القلب والشرايين من الأمراض، ويمكن أن تقلل من احتمالية الإصابة بالنوبات القلبية والجلطات الدماغية، بل يتصرف المتفائلون غالبًا بطريقة صحية، فيمارسون الرياضة ويحرصون على اتباع حياة صحية في المأكل والمشرب والنوم بعيدًا عن العادات غير الصحية.

وفي دراسة هي الأكبر من نوعها تناولت تأثير التفكير الإيجابي على الصحة من جامعة بيتسبرج، وتم متابعة 97 ألف امرأة على مدى ثمانية أعوام، وبتصنيف المشاركين بناء على اختبار إلى متفائلين أو متشائمين وجد أن المتفائلين يتمتعون بصحة أفضل من المتشائمين، وتقل احتمالية إصابتهم بأمراض القلب إلى 9 %، وتقل احتمالية وفاتهم لأي سبب بمعدل 14 %، وهم أقل عرضة للاكتئاب والتدخين، وينالون قسطًا أوفر من التعليم، ويتلقون دخلاً أكبر، كما أنهم أكثر تدينًا. وقد نشرت الدراسة في دورية جمعية القلب الأمريكية.

وفي أوسع دراسة من نوعها لمعرفة العلاقة بين التفكير الإيجابي واحتمالات الإصابة بالجلطات الدماغية تمت متابعة الحالة الصحية لـ 6،044 رجلاً وامرأة لم يسبق لأي منهم أن أصيب بجلطة، ووضع المشرفون على الدراسة سلمًا للتفاؤل من 16 درجة، ومع كل درجة يحققها المشارك تقل احتمالات إصابته بالجلطة بنسبة 9 % وفي ختام الدراسة تأكد بما لا يقبل الشك العلاقة بين التفاؤل وانخفاض أخطار الإصابة بالجلطات الدماغية وبين التشاؤم وازدياد هذه الأخطار.

وفي دراسة "مبادرة الصحة للنساء" والتي تتبعت أكثر من 100 ألف امرأة تتراوح أعمارهن ما بين 50 عامًا وأكثر منذ 1994م، وجد أن النساء اللاتي يتمتعن بالتفاؤل أقل احتمالاً للوفاة بنسبة 14 % لأي سبب مقارنة بالمتشائمات، وأقل احتمالاً بنسبة 30 % للوفيات من أمراض القلب بعد 8 سنوات من المتابعة في هذه الدراسة، وهن كذلك أقل احتمالاً للإصابة بارتفاع ضغط الدم والتدخين.

وفي دراسة نشرت عام 2010م بعنوان "التفاؤل وتأثيره على الصحة الجسدية والعقلية" في مجلة "Clinical Practice & Epidemiology in Mental Health" أكد التقرير أنه مما لا شك فيه أن التفاؤل (وهو سلوك عقلي) يؤثر وبقوة على الصحة الجسدية والعقلية، وأكد ذلك القدرة على التأقلم مع تحديات العمل والمتطلبات الاجتماعية اليومية.

كما تؤكد نتائج دراسة سيجرستروم وزملائها 1998م والتي أجريت على طلاب الجامعة: أن التفاؤل قد ارتبط إيجابيًا بارتفاع عدد خلايا تي المساعدة "Helper T cells" والخلايا الطبيعية القاتلة "Natural Killer Cells" أي زيادة قوة جهاز المناعة في الجسم للطلاب المتفائلين عن الطلاب المتشائمين زيادة كبيرة جدًا.

وفي دراسة أجريت عام 2012م على 243 شخصًا من المعمرين الذين تجاوزوا المئة بهدف الوقوف على أسباب طول أعمارهن تبين كما يقول الباحث د. نير برزيلاي "Dr. Nir Barzilai" أنهم يتميزون بصفات تعكس نظرتهم ومواقفهم الإيجابية المتفائلة للحياة.

استطاعت تالي شاروت "Tali Sharot" من كلية جامعة لندن لعلوم الأعصاب "University College of London Neurosciences" وزملائها من جامعة نيويورك تحديد الدائرة العصبية والمنطقة في الدماغ المسؤولة عن التفاؤل وهما في القشرة الأمامية "Prefrontal Cortex" و "Amygdala" وذلك بأخذ صور بواسطة جهاز الرنين المغناطيسي الوظيفي لـ 15 شخصًا تحت الدراسة، بينما كانوا يفكرون باحتمالات المستقبل.

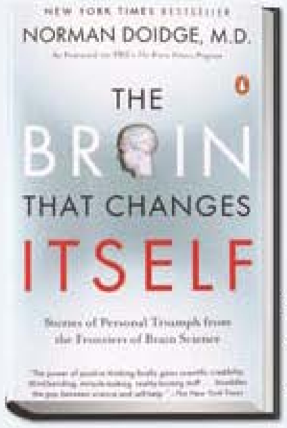
وهذه المنطقة من الدماغ هي مركز التوحيد وتجميع وظائف الأجزاء الأخرى من الدماغ، وهو الجزء الوحيد من الدماغ الذي يستطيع أن يتحكم في العواطف وكذلك التصرفات والسلوك، ويساعد على التركيز على الهدف والغاية التي تريد، والأفكار الإيجابية التفاؤلية تعزز وتقوي التوصيلات العصبية في هذه المنطقة، فيزيد من فعالية الدماغ وقدرته على التفكير والتحليل والتركيز، مما يؤدي إلى إنتاج أفكار مبهجة وتعزيز النظرة التفاؤلية الإيجابية في الإنسان، والعكس صحيح، فالأفكار التشاؤمية تبطئ من عمل الدماغ وقدرته على التفكير وإيجاد الحلول المبتكرة والإبداعية.

وفي دراسة قام بها بيتر شولمن "Peter Schulman" في أشهر كلية إدارة في العالم "Wharton School" ونشرت في مجلة "Journal of Personal Selling and Sale Management" وجد أن المتفائلين استطاعوا بيع 35 % أكثر من المتشائمين.

وفي كتابه المعروف "The Brain That Changes Itself" أو "الدماغ الذي يغير نفسه" يؤكد المؤلف وعالم النفس المشهور "Norman Doidge, M.D" أن الدماغ لديه القدرة أن يعيد طريقة تنظيمه، بل تكوينه وإنتاج اتصالات عصبية جديدة على قدر تدريبه بالتكرار وبالأنشطة



تالي شاروت



كتاب "الدماغ الذي يغير نفسه"



نورمان دينو

المعززة لتعليم شيء جديد، وأن التفكير الإيجابي والتفاؤل يغيران الدماغ بطريقة فعلية فيزيائية مادية لا مجازية. ويسمى هذا العلم المعترف به "Neuroplasty" أو ليونة الدماغ. بمعنى آخر أن أفكارنا التي نفكر بها تستطيع بالفعل تغيير بنية وتركيب وتشكيل وطريقة عمل ومهام ووظائف الدماغ وتقوي مناطق المشاعر والأحاسيس في الدماغ.

فهل يمكن تعليم التفاؤل؟ يؤكد د. مارتن سيلجمن مؤسس علم النفس الإيجابي ورئيس جمعية أطباء النفس الأمريكية أن التفاؤل وكذلك التشاؤم يعلمان. فقد طور سيلجمن وكل من "بيترسن" و"ستين" من بعده نظرية التفاؤل والتشاؤم، وأنهما أسلوبان في التفكير وتفسير الوقائع والأحداث.

إنها الفكرة التي نكونها عن القيمة العامة التي نعطيها لأنفسنا ولإمكاناتنا وفرصنا ولمكانتنا في الحياة. ولقد طور سيلجمن وزملاؤه أسلوب التفسير المتفائل والمتشائم انطلاقاً من أعماله حول العجز المتعلم. فالكلاب التي وضعت في أقفاص تحتوي أرضيتها على شبكة يمكن أن تصدر عنها شحنة كهربائية صارمة مؤلمة من دون أن تتمكن من تجنبها تعلمت الاستسلام للعجز، حتى عندما أتيح لها في وضعية تجربة لاحقة أن تتجنب الصدمة من خلال إمكانية الهروب من القفص، ولكنه استطاع كذلك من خلال تجارب أخرى معالجة الكلاب السلبية بتجارب تمكنها من تجنب الصدمات من خلال الضغط على رافعة وبعد محاولات عدة من دفعها للقيام بالسلوك الإيجابي الذي يحصنها من الصدمة تمت معالجتها، وأصبحت إيجابية تقاوم، ولا تستسلم بسهولة، وتبحث عن وسائل أخرى تحصنها من الصدمات.

خلص سيلجمن وزملاؤه إلى أن عدم السيطرة على الوضعية الصادمة يؤدي إلى العجز والتشاؤم. ولكن السيطرة على الوضعية الصادمة التي يعقبها التعرض إلى وضعية عدم السيطرة تؤدي إلى المقاومة والمناعة ضد الاستسلام والتفاؤل والخلاص.

لمشاهدة ومحياي (التفاؤل) اضغط هنا

وفي كتابه (تعلم التفاؤل) يوضح كيفية تحقيق ذلك بإدراك ما تقوله لنفسك عندما تصادف العقبات، وكيف يؤثر ذلك في حياتك. فإذا تم تغيير ما يجول بداخلك من حوارات ستصل إلى نتائج مذهلة.

لقد طور سيلجمن عدة أدوات لقياس التفاؤل والتشاؤم وتشخيصهما لدى كل من الناشئة والبالغين. كما طور برامج تدريب مهمة لتعديل التفكير التشاؤمي إلى إيجابي تفاؤلي، وقام بتطبيقها عمليًا على عدد كبير من المؤسسات التجارية والإدارية، وبالفعل زادت الفعالية والإنتاج.

وقام أيضًا بتصميم برامج لتدريب الناشئة على التفكير التفاؤلي الإيجابي، نظرًا لمردوداتها على صحتهم الجسدية والعقلية والنفسية وأدائهم التحصيلي والسلوكي.

يقوم التدريب على طريقة تعديل الأفكار في العلاج المعرفي، ويكون التدريب كالتالي: إزاء أي حدث تتوالد أفكار تشاؤمية، وما ينتج عنها من سلبية كحزن أو استسلام، يقوم المدرب أولاً بتحديد الأفكار أو الذكريات أو الصور التي وردت على ذهن المتدرب المتشائم، وكيف يرى نفسه والوضع الذي هو فيه، وبعد تحديد الفكرة التشاؤمية يتم دحض هذه الفكرة وتعديلها وتغييرها بأدوات طورها مؤسسو هذا العلم. مثل إيضاح خطأ الاعتقاد المتشائم بالمنطق والحجة أو إيجاد تفسيرات بديلة، تحل محل التفسيرات المتشائمة، وكشف المبالغة في الرؤية المتشائمة والجدوى من هذه الرؤية التشاؤمية السلبية.

وفي دراسة قام بها مارتن سيلجمن وجريجوري بوشنان Buchanan في جامعة بنسلفانيا ونشرت في مجلة الجمعية الأمريكية لعلم النفس Journal of the American Psychological Association، وجد أن تعلم التفاؤل استطاع أن يخفض نسبة الاكتئاب في طلبة السنة الأولى بنسب كبيرة، حيث تم تحديد الطلبة الأكثر تشاؤمًا بناء على اختبار، ثم تم تقسيم الطلبة المتشائمين عشوائيًا إلى مجموعتين، المجموعة الأولى تلقت 16 ساعة ورشة عمل (طرق تعلم التفاؤل) والمجموعة الثانية لم تلق أي تعليم.. بعد 18 شهرا وجد في المجموعة الأولى أن الاكتئاب انخفض من 32 % إلى 22 % والتوتر من 15 % إلى 7 % مقارنة بالمجموعة الثانية، بل وانخفضت فيهم بشكل عام جميع أنواع المشكلات الصحية.

إن طبيعة الحياة التي نعيشها تفرض على إنسان اليوم واقعًا يشعره بأنه لا يستطيع أن يغير الكثير، مما يجعله ضحية سهلة للتشاؤم، ولا فكاك من ذلك إلا بتغيير طريقة تفكير الإنسان وحديثه لنفسه. فقانون الجذب يؤكد أن ما تركز عليه بصفة مستمرة تحصل على مزيد منه في حياتك، وقانون الحصد يؤكد أن ما تزرعه في عقلك تحصده في جسدك وحياتك، ولذلك لا بد أن تبدأ من حديثك لنفسك. فالدراسات الحديثة تؤكد أن التكرار والتركيز والأنشطة التي نختارها في حياتنا، سواء كانت ذهنية أو عملية، كلها تؤثر في الدماغ تأثيرًا عجيبًا في أنها تعيد تركيبه وتكوينه وطريقة عمله، فعلى قدر ما تحدث عقلك حديثًا إيجابيًا على قدر ما ينشط ويعاد تشكيله ليعطيك أفكارًا إيجابية ونشاطًا وطاقة، والعكس صحيح.

وبذلك فإنك تستطيع أن تعيد تدريب عقلك ليكون أكثر تفاؤلاً وإيجابية.. والتفاؤل الحقيقي الإيجابي هو الذي يقترن بالعمل والمثابرة والصبر، والفشل الحقيقي والتشاؤم هو أن تكف عن المحاولة.

إنه تفاؤل رسول الله صلى الله عليه وسلم وثقته بحماية الله له وقد اقترنت بالأخذ بالأسباب على أتم وجهها وصورها في هجرته من مكة للمدينة في خطة محكمة دقيقة التفاصيل، ومع ذلك وصلت إليهم قريش فقال له أبو بكر: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ. فَقَالَ: "يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا"؟ يقول تعالى "إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا".

إن التفاؤل حقًا أساسه الإيمان.. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رجلاً قال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: الشرك بالله والإياس من روح الله والقنوط من رحمة الله.

وكيف لا يتفاءل من يقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هنا أفهم معنى الحديث "أنا عند ظن عبدي بي، فإن ظن خيرًا فله، وإن ظن شرًا فله".. تفاءلوا بالخير تجدوه.

حاءٌ .. وباء ...

شعر

عبد الواحد جاد سيد أحمد الرزيقي

تَشُقُّ العَصَافيرُ بَحْرَ السُّكُوْنِ بصوتٍ
شَجيٌّ
وتنْفضُ عن أعْيُنِ الربيعِ سِتْرَ النُّعَاسِ
أهشُّ قطيعَ الأماني أمامي،
أمرُّ إلى الغيطِ خلفَ الظباءِ اللواتي
يُرتِّلْنَ لي رحلةَ الوجدِ
في قفزتينِ إلى جنّةِ الحالمينَ بطيْبِ
اللقاءْ

أعبّيءُ من ضحكةِ الصبحِ حِجْرِي،
وأنثرُ فوقَ الجداولِ عِطرِي،
ألطّخُ بالطينِ ساقَ النخيلِ،
وأمْسَحُ كفَّ الفراشةِ بالآسِ
يغْسلُ عينيَّ وِرْدُ البكاءْ

أفضُّ غشاءَ الدفاترِ
أرْسُمُ نهرينِ منْ دمْعِ حَقْلٍ يتيمٍ تُراودُهُ
عنْ شذاهُ الظباءْ

على مرْفأ الْحُلْمِ أجلسُ
في ماءِ عيني انتظارُ الغديرِ المسافرِ
خلف المساربِ في ساحةِ الشوقِ
عندَ سقوطِ الندى منْ عيونِ السماءْ

***

أسافرُ خلف السهولِ إلى ضيعةِ العشقِ
مرّتْ عليَّ بلادٌ من العشبِ:
سَبْعٌ يُضمّدُ جُرْحَ الغزالِ
نعاجٌ تُرضّعُ طفلَ الذئابِ ...
وأُخْرى من النورِ فيها:
صلاةٌ، ونخلٌ،
بيارقُ خُضْرٌ،
دراويشُ أحْيوا إلى الفجْرِ عُرْسَ الصفاءْ

***

بكاءٌ شفيفٌ يساورُ غاري
على عتبِ الوحْيِ من جانبِ الطوْدِ
ينسابُ في حضْنِ بحريِ الضياءْ

من الْوَرْدِ والآسِ سوف أُعتّقُ كأسي،
يمرُّ على وجهِ يعقوبَ ريحي
فيعرفُ أنّي هنالكَ ما زلْتُ حيًّا
ومازالت الأرْضُ حُبلى بمائي وطيني
وحينَ يُفاجئُها الطلْقُ يسّاقطُ النورُ بالْبِشْرِ
فوقَ الحقولِ
فتنجبُ للناسِ حاءً وباءْ

عنشبة الحياة



محمد بن عبدالله الفريح

كاتب ومفكر

@malfriah

«كثيرًا ما نرى مشكلات ومعوقات لا حلول لها إلا بالخلاص والفكاك منها نهائيًّا، ونبذل الغالي والرخيص من أموالنا وأوقاتنا وأنفسنا لتحقيق ذلك، بينما هي في الحقيقة فرص سانحة لنعدل سلوكنا، ونقيّم أنفسنا، ونروضها، ونرممها من الداخل قبل أن نطلب من الآخرين ذلك».

جرت أحداث هذه القصة في منتصف القرن الثاني الميلادي في بلاد الحكمة العظيمة (الصين)، حيث كانت هناك امرأة عجوز بلغت من الكبر عتيًّا، وقد رأت السنين تمر سريعًا وابنها الوحيد يكبر بين عينيها، فعرضت عليه أن يتزوج من إحدى بنات قريته، إذ كانت لها رغبة شديدة في أن ترى أحفادها قبل موتها، ونزولًا على رغبتها وإلحاحها تزوج الابن إحدى بنات قريته الهادئة الوادعة. وما إن تزوج، وحضرت زوجته لتسكن مع زوجها في بيت كان يضم والدته المسنة، حتى بدأت الغيرة الشديدة تأخذ من راحة الزوجين وعلاقتهما كل مأخذ، فأبت زوجته إلا أن تصبر، وأخذت على نفسها عهدًا بأن تصبر؛ وفاءً لزوجها الذي كان يحسن معاملتها، ويرفق بها، ومرت الأشهر تلو الأشهر، والزوجة تصبّر نفسها إلى أن جاء اليوم الذي قررت فيه أن لا حيلة في استمرار حياتها إلا بالتخلص من هذه العجوز إلى الأبد، فأشارت عليها إحدى قريباتها بأن تلجأ إلى أحد حكماء القرية المجاورة، ومن الغد باكرًا انطلقت إلى القرية المجاورة، متذرعة بأنها سوف تحضر بعض البذور من بعض المزارعين هناك، سارعت خطاها نحو حكيم القرية، وعندما وصلت إليه وجدته شيخًا طاعنًا في السن، بان ذلك في تجاعيد وجهه وعينيه الغائرتين، وما إن لمحها حتى طلب منها أن تجلس، وترتاح قليلًا، وتشرح له مشكلتها، فانفجرت تبكي بكاءً شديدًا، وقصت عليه قصتها منذ زواجها، وعلاقتها المتوترة مع والدة زوجها المسنة، وكيف أنها تسيء معاملتها، وتعاملها بكل احتقار، فقال لها: وما تريدين مني عمله تجاه هذه المشكلة؟ فقالت له: إنني قررت أن أتخلص من هذه العجوز نهائيًّا، فإن إحدى قريباتي نصحتني بزيارتك، فلديك حل سحري لمثل هذه المشكلات، فقال لها: ليس هناك ما يمنع من مساعدتك، ولكنْ هناك شرطًا مهمًّا يجب الالتزام به قبل الشروع في مساعدتك، فقالت له: إنني مستعدة لعمل ما تريد مقابل مساعدتي على التخلص من هذه العجوز، فقال لها: يجب في البداية أن تغيري طريقة معاملتك لوالدة زوجك؛ كي لا تلفتي انتباه الناس عند موتها، فيشك فيك زوجك ومَنْ حولك بأنك من قمت بقتلها، فوافقت على الفور، وقال لها أيضًا: خذي هذه العشبة السامة، وقومي

بغليها كل يوم باكرًا، وأعطيها والدة زوجك قبل خروجك للحقل، واستمري على هذا الأمر أربعة عشر يومًا، بعد ذلك ستموت في اليوم الخامس عشر، بعد أن يكون السم قد سرى في جميع جسدها، وعلى الفور أخذت الزوجة العشبة، وانطلقت بها لقريتها تنتظر الصباح على أحر من الجمر، وما إن أشرقت شمس صبيحة ذلك اليوم حتى قامت الزوجة بغلي جزء من العشبة، وقدمتها لوالدة زوجها، ما أثار حفيظتها واستغرابها الشديدين من هذه المعاملة التي لم تعتد عليها!!

استمرت الزوجة على هذا المنوال سبعة أيام، وكأنها سبع سنوات شداد، عندها لاحظت أن والدة زوجها بدأت تتغير معاملتها لها بشكل غريب، وصارت تسأل عن صحتها وعن تعامل ابنها معها، وما إذا كان يسيء معاملتها، أو يرغمها على العمل بشكل مرهق؟، فقالت لها الزوجة: إنه على العكس من ذلك تمامًا، وبدأت الوالدة تتعامل مع هذه الزوجة، كما لو أنها ابنتها، وأصبحت تقف بجانبها عند نشوب أي خلاف مع ابنها، وتطلب من ابنها أن يحسن معاملتها، وتقول لابنها: إنها لو أنجبت بنتًا، فلن تكون في مثل هذه الزوجة لها في حسن معاملتها وصبرها، أطبق صمت رهيب على المكان بعد هذه الكلمات من والدة زوجها، وأخذ الخوف والرعب من الزوجة حدًّا بعيدًا، فهي تعرف أن السم يسري في جسدها، وسيقضي عليها في غضون سبعة أيام كما أخبرها الحكيم، فأصابتها الحيرة الشديدة، وتمكن منها الهلع، فهي لا تريد لهذه العجوز أن تموت، فالأمر الذي كانت تريد موتها من أجله انتهى الآن، ولكنها لا تدري ماذا تفعل، فأشارت عليها قريبتها السابقة نفسها بأن تعود إلى الحكيم، وتستشيره لعله يجد لها حلًا ومخرجًا، على الفور ذهبت للحكيم تستنجده ليجد لها حلًا، لكنه أخبرها بأن الأمر قد انتهى، وأن العجوز سوف تموت لا محالة في غضون سبعة أيام، وعليها أن تستعد لهذه المرحلة من حياتها، وقال لها: ارجعي لي بعد سبعة أيام لنرى ماذا سنفعل، سأبذل ما في وسعي، ولكن لا أعدك بشيء، رجعت الزوجة بخيبة شديدة وحسرة لا تدري ماذا تفعل، وجلست تنتظر مرور هذه الأيام الثقيلة جدًّا على أحرّ من لهب النار، وكلما اقترب الموعد بدأ قلبها يزداد خفقانًا؛ خوفًا واضطرابًا، وفي اليوم الموعود رجعت للحكيم لعله يجد لها مخرجًا مما وضعت نفسها فيه، فأجلسها الحكيم، وهدّأ من روعها، وقال لها: اعرضي على قصتك مرة أخرى، فعرضتها بشكل مختلف عن سابقتها من حيث ثناؤها على والدة زوجها، وكيف كانت رفيقة بها وحسنة المعاملة، وأنها تقف في صفها عند أي خلاف ينشب مع زوجها، فقال لها الحكيم: وما الذي تغير عما سبق، فقد كنت مُصرّة على قتلها والتخلص منها، فقالت له: إن معاملتها تغيرت بشكل كبير منذ أن بدأت أعطيها العشبة بعد غليها، فقال لها الحكيم: توقفي الآن يكفي إلى هذا القدر، يبدو أنك متعبة جدًّا من هذا الأمر، وسأنهيه لك، اسمعي يا ابنتي، نحن البشر انعكاس لما نجده، بمجرد أن رأت أم زوجك حسن معاملتك ورفقك بها وصنيعك معها تعاملت معك بالمعيار نفسه، هذا هو حال الأسوياء من البشر، كثيرًا ما نبحث عن حلول لمشكلاتنا عند الآخرين، بينما هي في الحقيقة في أعماق أنفسنا، قالت: له، والسم الذي يجري في جسدها ماذا أصنع به؟! قال: لا عليك هذا ليس سمًّا، هذه عشبة عادية يستطيع أخذها كل واحد، ولن تلحق بها أي ضرر.

تعقيب:

كثيرًا ما نرى مشكلات ومعوقات لا حلول لها إلا بالخلاص والفكاك منها نهائيًّا، ونبذل الغالي والرخيص من أموالنا وأوقاتنا وأنفسنا لتحقيق ذلك، بينما هي في الحقيقة فرص سانحة لنعدل سلوكنا، ونقيّم أنفسنا، ونروضها، ونرممها من الداخل قبل أن نطلب من الآخرين ذلك.

وأنا أدون هذه الأسطر تذكرت عظمة الحديث النبوي الشريف الذي ترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ». رواه مسلم (رقم 2594).

ومرت على خاطري مقولة الشاعر والكاتب المسرحي الإنجليزي وليم شكسبير: «أصعب معركة في حياتك عندما يدفعك الناس إلى أن تكون شخصًا آخر!».

ودلف إلى عقلي أيضًا ما قاله جيم هينسون، مبتكر الدمى المتحركة: «أومن باتخاذ مواقف إيجابية تجاه العالم، وأملي أن أرى العالم بصورة أفضل من التي رأيته عليها، عندما أتيت إليه».

﴿كثيرًا ما نبحث عن حلول لمشكلاتنا عند الآخرين، بينما هي في الحقيقة في أعماق أنفسنا﴾

﴿مرت على خاطري مقولة الشاعر والكاتب المسرحي الإنجليزي وليم شكسبير: «أصعب معركة في حياتك عندما يدفعك الناس إلى أن تكون شخصًا آخر!»﴾

﴿ودلف إلى عقلي أيضًا ما قاله جيم هينسون، مبتكر الدمى المتحركة: «أومن باتخاذ مواقف إيجابية تجاه العالم، وأملي أن أرى العالم بصورة أفضل من التي رأيته عليها، عندما أتيت إليه»﴾



الشرق بمنظار الغرب:
كتابات الرّحّالة الأوروبيين أنموذجًا



أ.د. عبد القادر شريف بموسى

أستاذ التعليم العالي بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات

جامعة تلمسان- الجزائر

كان الشّرق مصدر إشعاع حضاري منذ القديم، فقد بزغت على أرضه وبين شعوبه أهمّ الحضارات القديمة (الفرعونية والبابلية وحضارات بلاد الرافدين). ولعلّ من أهمّ هذه الحضارات الّتي أضاءت بنورها العالم بما فيه الغرب نفسه، الحضارة العربية الإسلامية، إذ كان لها فضل كبير على تقدّم الغرب وتطوّره، حيث أخرجته من ظلام الجهل والهمجية الّذي كان يعيش فيهما إلى نور العلم والمدنية.

ويُعدّ احتكاك الأوروبيين بالحضارة الإسلامية في كلٍّ من إسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا من الدّلائل القاطعة الّتي تبرهن على مدى تأثير المسلمين في أوروبا ومدى فضلهم على تقدّمها. لكن، وبدلاً من أن يردّ الغرب الجميل للشرق ولحضارته، ناصبه العداء، بل وأطلق عليه اسم "البرابرة". إنّ أوّل ما يقوم به قومٌ حين يسكنون أرضًا جديدة، إنّهم يقومون برسم حدود بين أرضهم والجوار المباشر، وبين المناطق الّتي تقع وراء ذلك والّتي يُسمّونها منذ ذلك الحين "أرض البرابرة"[1]؛ وهذا ما قام به الغرب عند احتكاكه بالشّرق (ممثّلاً في الحضارة العربية الإسلامية)، إذ رسم حدودًا بينهما، فأطلق لفظة "غرب" على أراضيه والمناطق المجاورة لها، وفي الوقت ذاته أطلق لفظة "شرق" على كلّ المناطق الّتي تقع وراء ذلك. فالشّرق من ابتداع الغرب، بل يكوّن ثُنائيًا معه، فهو عكسه ونقيضه وهو في الوقت نفسه تجسيدٌ لمخاوف الغرب وإحساسه بالتّفوّق.

إنّ من الطبيعة البشرية أنّ الشيء المجهول والغامض يثير مخاوفها ويفزعها، فهي إمّا أن تستسلم له وتذعن، وهذا ما حدث مع الإنسان القديم حينما لم يستطع إدراك حوادث الطبيعة ومعرفة كُنهها، فكانت البراكين والزلازل والصّواعق... تثير مخاوفه ورعبه ممّا دفعه إلى أن يُؤلّه هذا المجهول ويُذعن له؛ فجعل للزلازل إلها وللفيضانات إلها آخر يتقرّب إليها بالقرابين والصّلوات.

أمّا الطريقة الأخرى للنّفس البشرية الّتي تسلكها تُجاه هذا الشيء المجهول، فهي أن تناصبه العداء، بل وقد تحاول مهاجمته إن قدرت على ذلك، حتّى تحمي نفسها منه وتحسّ بالأمان والطمأنينة؛ وهذا ما حدث مع شعوب أوروبا حين احتكّت بالشّرق وخصوصًا بعد أن أحسّت بتهديده لها من خلال فتوحات المسلمين لإسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا.

ومنذ هذه اللّحظة، أصبح الغرب «يرى في الشّرق مكانًا خطِرًا يتنامى فيه الإسلام وتتكاثر الأجناس الشريرة، وأمّا المسلمون فهم سُودٌ ذَوُو هيئات بشعة. وقد أدّت هذه البغضاء إلى إنشاء عداوة للإسلام أتاحت حماية عقول المسيحيين من الارتداد عن دينهم وحقنت المسيحية بشعور من الاحترام للذات من خلال تعاملها مع مدنية أرقى منها في أوجُه كثيرة»[2]. فحينما أحسّ الغرب بتفوّق الحضارة العربية الإسلامية عليه في كلّ المجالات، بما فيها التعاليم الدينية والقيَم الأخلاقية الّتي جاء بها



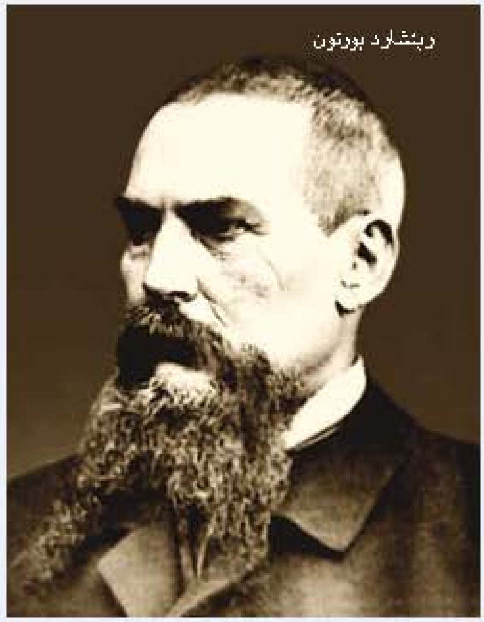
الإسلام، أصابه خوف شديد على دينه المسيحي من أن يُرتدّ عنه كلّ من يتّصل بالشّرق (الحضارة الإسلامية)؛ ممّا دفعه إلى ابتداع صورة أخرى للشّرق مخالفة لِما هو عليه في الحقيقة. فأصبح المسلمون – في عيون أوروبا – سودًا ذوي هيئات بشعة ومفزعة. فقد استطاع بهذا أن يكوّن خلفية فكرية مشوّهة للإنسان الغربي عن الشّرق، وذلك حتّى يضمن (الغرب) عدم الارتداد عن الدين المسيحي، الّذي يُعد – ولا يزال – الدّعامة الأساسية الّتي ترتكز عليها أوروبا في مواجهة العالم الإسلامي.

إنّ التعصّب الأعمى لدى أوروبا في القرون الوسطى لكلّ ما هو غربي ومسيحي، دفع بها – حينما رأت نفوذ الإسلام يزداد وحضارته تنتشر في ربوعها على الرّغم منها – إلى أن تجهر بالعداوة والبغضاء للحضارة الإسلامية من أجل الحدّ من انتشارها؛ بل وأصبحت ترى في الدولة الإسلامية خصمها اللّدود. «ومن هنا أصبح يُنظر للإسلام على أنّه إلغاءٌ للمسيحية، وأنّ رسوله محمدًا هو عدوٌّ للمسيح، وكان الغرب يرى في العالم الإسلامي عالمًا مضادًا لأوروبا، وبذلك أصبح موضع الشّكّ والرّيبة»[3].

ولعلّ من أهمّ مظاهر هذا العداء والتعصّب، الحروب الصّليبية على العالم الإسلامي، والّتي دامت أكثر من قرنين حيث تجلّت فيها روح الحقد والكره للمسلمين وللإسلام بشكل سافر. وحتّى بعد ذلك بقرون عديدة، لم تستطع أوروبا التّخلّص من هذا العداء والحقد الدفينين اللّذين تُكنُّهما للشّرق والعالم الإسلامي على الخصوص؛ «ولهذا كان من السّهولة بمكان أن تتحوّل رغبتها القديمة في الوقوف في وجه خصمها الإسلامي إلى تصميم على السّيطرة، هذا التّصميم الّذي كان الأساس النّفسي للإمبرياليين منذ نابليون» [4] أثناء حملته على مصر سنة 1798م.

لقد أدّت الحملات الصليبية إلى تواتر الأخبار عن الشّرق وارتسام عدد من التّصوّرات المبالَغ فيها والمنسجمة مع المعطيات الثقافية المحلّية. ولعلّ من النتائج المباشرة لذلك، ظهور عدد من القصص الّتي عُرفت بـ"الرومانس"، إضافة إلى أعمال شعرية ملحمية يمكن وصفها إرهاصات لاستشراق أدبي سيستمر حتّى القرن العشرين. وقد انقسمت تلك الأعمال- المتولّدة عن الاحتكاك بالشّرق العربي الإسلامي- إلى قسمين رئيسين: هما الأعمال القائمة على الغرائبية أو الفانتازية (Le Fantastique) الّتي تصوّر الشّرق بصور يغلب عليها عنصر الإثارة والتّشويق غير الواقعي؛ والأعمال الّتي تعكس الرّوح القتالية أو التعبوية، كما في الملاحم. ولعلّ أشهر هذه الملاحم المعروفة عند الغربيين الّتي تعود إلى بداية القرن الثاني عشر الميلادي "أنشودة رولاند – La Chanson De Roland" والّتي تصوّر مشاهد من الصراع الإسلامي- المسيحي في إسبانيا مبرزة المسلمين بوصفهم أعداءً وثنيين يعبدون ثلاثة آلهة منهم الرسول محمد عليه الصلاة والسلام الذي وصلهم أنّ اسمه "ماهون"[5].

فهناك رؤية ما تكوّنت في أوروبا تجاه الشّرق. وقد وضعت الصّورة الأساسية لتلك الرؤية في القرن الثاني عشر،- إبّان الحروب الصليبية – ثم توسّعت في القرنين الثالث عشر والرّابع عشر، لتمتدّ حتّى العصر الاستعماري. هذه الرّؤية تنطلق من عداء واسع للرّسول محمّد عليه الصّلاة والسّلام الّذي أوقَف بنبوءته الكاذبة – كما يزعمون – تطوّر الإنسانية باتّجاه المسيحية "بطبعتها الأوروبية طبعًا"[6]. وقد تطوّرت بعد ذلك النظرة الأوروبية "الغربية" إلى الإسلام، وإلى الشّرق، فأصبحت أكثر



ريتشارد بورتون

مباشرة، حيث غدا مفهوم الشّرق (الفارسي/التركي..) يعني حضارة مغايرة - بغضّ النظر عن القيمة التي تُعطى لها- وصارت النظرة العامّة "الشعبية"، تتراوح بين الشّرق المدهش والفتان، "شرق ألف ليلة وليلة"، وبين الشّرق المتوحش، البربري، الفظّ، العنيف، ولم تتغيّر النظرة الأوروبية إلى الإسلام، بوصفه دينًا متعصّبًا، عدوانيًا، بسيطًا وبدائيًا [6].

وحتّى تستطيع أن تستعمر شعوب الشّرق دون أن تجد عراقيل من داخلها، أرسلت أوروبا الرّحّالين إلى الشّرق ليزوّدوها بمعلومات عنه وأخبار تكون ذريعة لها لاحتلاله وتزيد في الوقت نفسه من تعميق ذلك الكره والعداوة في نفوس الشعوب الغربية تجاه العالم الإسلامي بخاصّة، والشعوب الشّرقية بعامّة، وحتّى تجعل الشّرق كبش فداء، كان لا بدّ لها من أن تُلصق به صفات قبيحة وشرّيرة من أجل تبرير استعماره واضطهاده، فجاءت الرّوايات عن الشّرق لتُركّز تركيزًا متعمّدًا على تلك السّمات التي تجعل هذا الشّرق مختلفًا عن الغرب، بل وتنفيه إلى عالم (الآخر) وتخفضه إلى مرتبة (الغير) الذي لا صلاح له [7]، فمن بين الصّفات القبيحة والشّريرة الّتي وُصف بها الشّرق، صفة الخمول والفسق والعنف وعدم القدرة على أن يحكم نفسه بنفسه، كلّ هذه الصفات جعلت للغرب الإمبريالي مبرّرات تسمح له بالتّدخل فيه والتّحكم به، إذ تجعله يظهر وكأنّه منقذ الشّرق من الجهل والهمجية، وأنّه ما جاء إلى داره إلّا ليحمل له الحضارة والمدنية.

ولعلّ من أهمّ الملاحظات الّتي تُلفت النظر بخصوص هذه الروايات الأوروبية عن ذلك الشّرق (الآخر)، مقولتان: إحداهما تتمثّل في الإلحاح على الادّعاء بأنّ الشّرق هو مكان الفسق والملذّات، والأخرى تتمثّل في أنّ هذا الشّرق هو عالم العنف المتأصّل [8]. وهاتان المقولتان كان لهما تأثيرهما الخطير على عقول الشعوب الأوروبية، إذ رسّختا فيها - ولا تزال إلى الآن - مفهومًا مشوّهًا



كنغليك

عن الإسلام والمسلمين، فالمقولة الأولى تحاول إفهامهم (الغربيين) بأنّ الدين الإسلامي ليس دينًا سماويًا منزّلاً من عند الله مثل الدين المسيحي، لأنّه يدعو إلى الفسق ويشجّع على طلب الملذّات، وهذا ما يخالف كلّ ما جاءت به الديانات السماوية؛ بينما تحاول المقولة الثانية - الّتي تركّز عليها هذه الروايات - أن تُنشئ في الذهنية الغربية صورةً مشوّهة عن الشّرق، والعالم الإسلامي على وجه الخصوص، فهي تُظهر الإسلام على أنّه يدعو للعنف، وأنّ المسلمين ما هم في الحقيقة إلّا همجيون وبرابرة يبحثون عن دماء البشر في كلّ مكان، ولا يتلذّذون إلّا بسفك الدّماء، فهم أصل العنف ومصدره، فالإسلام دين عنف على خلاف الديانة المسيحية الّتي تدعو إلى السّلام والمحبّة، وبهذا فإنّه ليس دينًا سماويًا ولا ينبغي أن يدخل فيه النّاس؛ بل من المفروض أن يُحارب حتّى يُقضى على العنف المتأصّل فيه وعلى الفسق المنتشر فيه، ويُستبدل بتعاليم المسيحية السّمحاء المسالمة وقيمها الأخلاقية الطاهرة، وفي سبيل القضاء على ذلك لا بدّ من استعمال بعض العنف من الغرب تجاه الشّرق حتّى تنعم البشرية بالأمان والسّلام، وتنتشر بين ظهرانيها سمات المحبة والفضيلة.

ولقد كان لهاتين المقولتين تأثيرهما الخطير ليس على عقول العامّة من الغربيين وحسب، وإنّما تعدّى خطرهما إلى الجيل الثاني والثالث من الرّحّالة الأوروبيين والمستشرقين إبّان العصر الرّومانسي ومابعده؛ هؤلاء لم يستطيعوا الفكاك من الخلفية المشوّهة (بكسر الواو وفتحها معًا) للشرق الّتي زرعها الرّحّالة الأوائل، فلا أحد يستطيع أن ينكر بأنّ الشّرق قد احتلّ مكانة أسطورية في جماليات العصر الرومانسي، كما كان خلفية شائعة تنطلق منها الروايات القوطية، أمّا حريم الشّرق أو نساء السّلطان وجواريه في الشّرق، فقد صُوّرت في شكل غريب ومثير بقصد تسلية الجمهور الغربي، وقد تجسّد هذا الأسلوب في لوحة (أوجان دي لاكروا 1798 - 1863 Eugène Delacroix) "موت ساردانا بالو" 1827 - 1828 (La Mort de Sardanapale) الّتي استوحاها من قصيدة لبيرون تحمل الاسم نفسه، وقد صُدم المجتمع الأوروبي الّذي كان موجودًا في الشّرق من جرّاء ما قرأ عن العنف والخسّة والبذاءة، الّتي وضعت الشّرق في هذا السّياق، وقد كان لنقاد القرن العشرين مآخذ على الاستشراق لكونه مرآة إمبريالية مشوّهة للشرق، حيث إنّها عكسٌ للثقافة الأوروبية لا لحقيقة الشّرق [9].

إنّ المقولة الأوروبية الّتي تركّز على فسق الشّرق وولَعه بالجنس لم تكن وليدة الرّحلات الأوروبية، بل قد ترافق الشّرق دائمًا في الذهن الأوروبي بالتّوقُّعات الجنسية، إذ كان يَبرز في ثنايا النّصوص اللاهوتية والأسطورية القديمة نموذج المرأة الغاوية؛ فهناك (ديدو Dido) في رواية "فيرجيل" تستقبل (إيناس Aeneas) في فراشها كما استقبلت كليوباترا أنطونيو في سريرها، وهناك (ميديا Medea) المتطرّفة في عواطفها وعنفها، إنّها الشّرقية، الهمجية الّتي تهوي وتصدّ في اللحظة الواحدة [10].

ولقد جاء بعد ذلك الرّحّالة الأوروبيون ليركّزوا على أسطورة "الشّرق الجنسي"، ويُعدّ (ريتشارد بورتون Richard Burton) واحدًا من هؤلاء، فقد كان الشّرق في نظره: مجالاً محرّمًا، حيث النساء جوار يمنحن ملذّات جنسية [11]، ومن بين الرّحلات الأخرى الّتي تُعدّ أنموذجًا لهذا التشويه - والّتي تصوّر الشّرقي على أنّه مثارٌ للسخرية ومدعاةٌ للتّسلية والازدراء معًا، وتصوّره دليلاً دائمًا ومستسلمًا لمن هو أقوى منه - رحلة (كنغليك Kinglake) إذ يقول عن الشّرقي (الآسيوي): «... يبدو أنّ الآسيوي يُكنّ شعورًا بالاحترام العميق الّذي يصل غالبًا إلى درجة العبادة، لكلّ من أساؤوا إليه بقسوة عنيفة... ولهذا كنتُ أرى كيف أنّ استسلامه وانصياع عقله كانا بلا حدود أمام فكرة القوّة» [12].

لقد كان لهؤلاء الرّحّالة النصيب الأوفر في إبراز الصّورة المشوّهة للشرقي، كما كان لهم التأثير الكبير في زرع هذه الصّورة في الذهنية الغربية، فها هو الرّحّالة (بورتون Burton) يصف أحد أبناء السّند (الهند وباكستان حاليًا) بقوله: «... إنّه كسول ولا مبال، وقذر، ومدمن، ومعروف بجُبنه في أوقات الخطر، في حين أنّه يصبح وقحًا عندما لا يكون ثمّة ما يخشاه، وليس لديه أيّة فكرة عن الصدق» 13.

إنّ الاتّهام الخطير الّذي يوجّهه الرّحّالة الإنكليز إلى الشّرقيين يخصّ إفساد الأخلاق: فكلّ الشّرقيين يُعدون مولعين بالنقائص والآفات الأكثر انحطاطًا، ويُعدُّ العرب أناسًا شهوانيين وفُسّاقًا حتّى داخل الأماكن المقدّسة في الإسلام، وهذا ما يُعدّ تدنيسًا للمقدّسات وانتهاكًا للحرمات، ففي حوالي سنة 1820 وَسَمَ بعض الرّحّالة

العربَ بالشذوذ الجنسي... إضافة إلى أنّه حتّى الخاصية الّتي أُسندت إلى الإسلام متفضّل اللا أخلاقية: فعلى حسب الرّحّالة ليس الدين هو الّذي يربّي الإنسان»[14].

فهذه الروايات عن الشّرق للرّحّالة الأوروبيين، جاءت في معظمها مشوّهة لصورة الشعوب الشّرقية، تُصوّرها على أنّها مخلوقات همجية تُحرّكها الغريزة وتُسيّرها النّزعات الجنسية والعدوانية، وأنّها ذات بشرة داكنة ومفزعة، وهي لا تستطيع أن تصل إلى ذلك الصّفاء والنقاء الّذين وصل إليهما العرق الأبيض (الأوروبي طبعًا)؛ بل إنّ هذه الروايات زادت في ترسيخ بربرية الإنسان الشّرقي وحيوانيته داخل المجتمعات الأوروبية من خلال التركيز على شدّة الاختلاف بينهما، ممّا يسمح لها باعتبار الشّرقي نوعًا آخر من الكائنات: فهو أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان.

وإذا ما استثنينا بعض الرّحّالة النّزهاء الّذين حاولوا تقديم صورة نزيهة وحقيقية عن الشّرق، فإنّ معظم روايات الرّحّالة الأوروبيين أنتجت صورة بشعة للشرق، كان من شأنها أن عزّزت السلطة السياسية بمختلف بنياتها داخل المجتمعات الغربية؛ وبالشكل نفسه عملت هذه السلطات السياسية على تعزيز هذه الصّورة وترسيخها لدى العامّة من الغربيين، وحتّى لدى المثقفين والرّحّالين أنفسهم. ولعلّ ما ذهبت إليه الدكتورة "رنا قباني"، يصف وصفًا دقيقًا الحالة الّتي كانت عليها كتابات الرّحّالة الأوروبيين في تلك العصور (عصر النهضة الأوروبية) من تأثّرها بثقافة العصر المهيمنة، إذ تقول: «ولكنّ هذا لا يعني أنّ جميع الرّحّالة الّذين تحدّثوا عن الشّرق قد أساؤوا تصويره، وإنّما يعني أنّ سوء التّصوير هو الّذي طغى، وهو الّذي أسر خيال عامّة النّاس في الغرب. إنّ قصص الرّحلات كانت على كلّ حال جزءًا من الاستشراق الّذي حرّض على قيام الإمبراطورية»[15]. ثمّ تضيف بأنّ «القوّة تحتاج دائمًا إلى المعرفة، ومن هنا تأطّرت الثقافة الأوروبية ضمن صورة مشوّهة عن الشّرق باعتبار أنّ الذوق المهيمن وغريزة الأسطورة كانت لهما الغلبة في نهاية المطاف»[16].

فلابدّ للاستعمار الأوروبي الإمبريالي – قبل أن يقوم باحتلال الشّرق – أن يكون مزوّدًا بكلّ المعلومات عن هذا الشّرق في مختلف ميادين الحياة، بدءًا بطريقة أكل شعوبه ولهوها وكيفية عيشها، ووصولاً إلى طريقة الحكم عنده وأخبار حكّامه وخلافاتهم وحروبهم وإسرافهم وملذّاتهم.

وهذه المعلومات مهمّة جدًّا للقادة الأوروبيين، حتّى يكونوا على علم ودراية بكلّ ما يجري فوق الأرض الّتي ستطؤها أقدامهم، وكي تصل إليهم هذه المعلومات كان لا بدّ من بعث رحّالة من بني جنسهم إلى هذه الأقطار البعيدة والشاسعة، حتّى يزوّدونهم بكلّ ما يحتاجونه عن الشّرق الغامض والمُبهَم.



ريتشارد وليام سوذرن

وكي ينال هؤلاء الرّحّالة استحسان دولهم الّتي أمدّتهم بالمال، وسهّلت لهم مهمّتهم، كان لابدّ لكتاباتهم أن تتضمّن تلك الصور المشوّهة للشرق والّتي تُبرزه همجيًّا وبدائيًّا وغريزيًّا حتّى يكون ذلك مبرّرًا لقادتهم الغربيين في احتلاله ذات يوم تحت شعار "تقديم الحضارة إلى شعب متخلّف"، بل إنّهم – الرّحّالة الأوروبيين – مضطرّون إلى تأكيد هذه الصّورة المشوّهة الّتي جاء بها من قبلهم الرّحّالة الأوائل، الّتي رسخت في أذهان الشعوب الغربية حتّى أصبحت هي الذّوق المسيطر عليهم، لأنّه إذا ما حاول بعضهم مخالفة ما ألِفَه النّاس عن الشّرق منذ مدّة، وأن يكون نزيهًا في كتاباته، فسيكون مصيره ما ألِفه، الإهمال والاستهجان وربّما السّجن أو الموت، متّهمين إيّاه بالعمالة للشرق، ولهذا فإنّ بعضهم كان مضطرًّا لتلفيق الأكاذيب عن الشعوب الشّرقية وطريقة حياتها، هذه الأكاذيب ما هي إلاّ نسخة طبق الأصل مع قليل من التغيير للكتابات والأساطير الّتي جاء بها الأوائل عن الشّرق، إذ من المألوف دائمًا أن يُقال بصدد الاستشراق: إنّ الغرب يعرف عن الشّرق أكثر ممّا يعرف هذا الشّرق عن نفسه، الأمر الّذي من شأنه أن يفتح مجرًى محدّدًا سلفًا للكتابة، ممّا يؤدّي إلى تقييد المراقب الغربي بل وجعله في كثير من الحالات أسيرَ ما قرأ»[17].

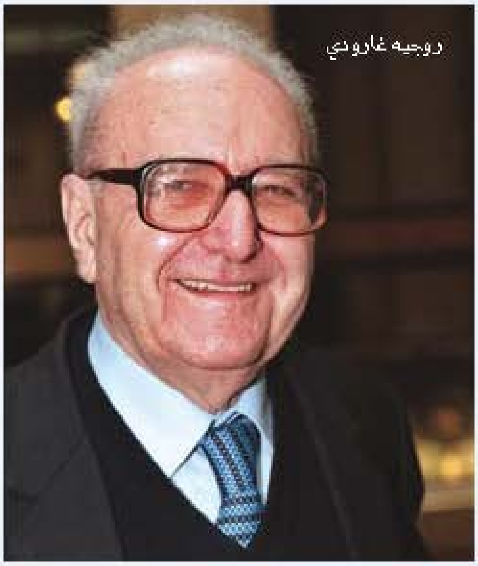
فإذا كان هؤلاء الرّحّالة مقيّدين بآراء من سبقهم وبالثقافة السائدة في عصرهم، فهم – ومن ورائهم الغرب وإلى حدّ القرن الثامن عشر على الأقلّ كما بيّن ذلك بلباقة (R.W.Southern) – كانت لديهم فكرة معقّدة ومبهمة عن أحد أشكال الثقافة الشّرقية والّتي هي الثقافة الإسلامية، لأنّ مفهوم الشّرق يجتذب دائمًا على ما يبدو، تداعيات من الأفكار الّتي لم تكن محدّدة، لا من طرف ذلك الجهل المطلق عن الشّرق ولا من طرف المعلومات الأحادية المصدر الّتي كانوا يتحصّلون عليها»[18].

ولقد كان أحد التطوّرات المهمة في استشراق القرن التّاسع عشر يتمثّل في تكرير الأفكار الجوهرية حول الشّرق، حواسّيته وميله إلى الطّغيان، تخلّفه ولاعقلانيته، وعادة غياب التّنظيم والدّقة لديه، وترسيخ هذه الأفكار إلى الحدّ الّذي صار معه استخدام كاتب للفظة "شرقي" إشعارًا كافيًا يحدّد للقارئ الغربي هويّة جسد معيّن من المعلومات حول الشّرق. هذه المعلومات جاءت من خلال المضامين الّتي كانت تتوارى في ثنايا كتب الرّحّالة الأوروبيين والكتب الاستشراقية الغربية الّتي أُلّفت في الآداب والعلوم، والّتي يتصوّر فيها الشّرق على نحو خيالي خرافي، يُظهره بأنّه متخلّف، ميّال إلى الطّغيان، ذو عقلية منحرفة، وعرق دوني، وإنّه غير جدير بالحياة الحرّة، وينبغي على الغرب أن يستحوذ عليه ويأسره ويسوده»[19].

فهذه الصّورة المبهمة والغامضة للشرقي سمحت للغرب بأن يُسقط الجانب السلبي فيه ويرمي به على الشّرق، خصوصًا صفة الشّبق الجنسي والعنف المتأصّل، فها هو ذا أحد الكتّاب الغربيين (ريمون شواب Raymond Schwab) «يعتبر بأنّ كلمة شرقي كانت مرادفًا لـ" غريب" و" غامض" وعميق ومَنَوي»[20].

وما هذه المقولة من وجهة التحليل النفسي إلاّ تعبير عن نفسية الأوروبي، إذ إنّ الكثير من دوافعنا وغرائزنا الفطرية (بما فيها غريزة الجنس) – بعدما تُكبت في اللاشعور ولا يُسمح لها بالظهور في الوسط الاجتماعي – تتّخذ لها أشكالاً أخرى وطرقًا غير مباشرة، فتصبح بذلك غامضة وعميقة عن شعور الفرد، وخصوصًا عن الأنا الأعلى (Sur-Moi) الّذي هو الرّقيب الأخلاقي في الشخصية، وذلك حتّى تجد لها متنفّسًا في المجتمع أو وسيلة تظهر فيها بشكل تقبله القيم الاجتماعية والخلقية. ولعلّنا لا نبتعد عن المنطق إذا ما قلنا: إنّ إطلاق صفة "منوي" أو "جنسي" على الإنسان الشّرقي الّذي هو غامض ومبهَم ما هي إلاّ عملية إسقاط** (Projection) للجانب السلبي (الجنسي) في شخصية الغربي على الشّرقي؛ لأنّه – الأوروبي – لا يمكن أن يعترف بها بينه وبين نفسه، فهذه الدوافع الجنسية غامضة في شخصيته غموض الشّرقي وغريبة وعميقة في الوقت نفسه غرابة ذلك الشرقي وعمقه كذلك، ممّا يجعل الغربي يحسّ بالدونية والنقص إذا ما اعترف بهذه الميول الجنسية؛ وهذا ما يجعله يُسقط ويرمي بهذه الصّفات – الّتي تَحُطّ من شأنه – على الآخر (الشّرقي).

فالكبت الجنسي الّذي كان يعاني منه الغربي جعله يصف الإنسان الشّرقي بالشّبق الجنسي، وذلك حتّى يجد له تبريرًا ومتنفّسًا عمّا يكبته ويرغب فيه، ولعلّ أصدق دليل على ذلك ما كان يمارسه الرّحّالة الأوروبيون من مُتع جنسية في الشّرق حينما يجدون الفرصة للتعبير عن هذا الكبت – الّذي يعانون منه – خارج مجتمعهم وأهلهم، ومن بين هؤلاء الرّحّالة (بورتون Burton) إذ «كانت الحرية الجنسية واحدة من حريات تطلّع إليها: ففي الهند مارس (بورتون) أوّل اتّصال جنسي كامل له، وكما فعل أكثر أقرانه، بحث عن خدمات امرأة محليّة تُلبّي له... احتياجاته المادية دون أن يلتزم حيالها بأي رباط أدبي


روجيه غارودي

أو عاطفي، وبذلك تكون هي مدبّرة منزله وهي متنفّسه الجنسي جميعًا"[21].

ولا يمكن لنا أن نمرّ على الرّحّالة (بورتون Burton) دون أن نستشهد ببعض ما كتبه هو بنفسه عن الحضارة العربية الإسلامية وخصوصًا فن العمارة الإسلامية المرتبطة بالمسجد، حيث يحاول في الفصل السادس – تحت عنوان المسجد – من كتابه "رحلة بورتون إلى مصر والحجاز – الجزء الأول" إرجاع كلّ عناصر العمارة الإسلامية إلى حضارات سابقة أو معاصرة ونفي أيّ خصوصية للعمارة الإسلامية، إذ يقول في هذا المعنى: "فالنزعة التوفيقية Syncretism للمعماريين – والتي هي نتاج للصدفة والانخداع، والغلوّ واللاّمبالاة – لاقت أعينًا جاهلة غاية الجهل، بحيث لا يجرحها أن تقع على كلّ مخلط هجين يعوزه التناسق، لقد قام هؤلاء المعماريون بتخليد العناصر المعمارية المتنافرة فيما يُسمّى بالنّمط العربي أو الإسلامي Saracenic Style مع أنّ جميع عناصر هذا النمط مُنتحَلة من الأنماط المعمارية البيزنطية، ومكرّرة مُعادة في النمط المعماري القوطي، الذي هو فرع من النمط الإسلامي"[22]، ويضيف في الكتاب ذاته بالطريقة العدائية واللاّموضوعية نفسها متحدّثًا عن فن عمارة المسجد قائلاً: "وأعتقد أنّه لا جديد في المسجد العربي (الإسلامي) فهو مجرّد إحياء غير واعٍ للأشكال المعمارية الّتي استُخدمت منذ عصور ممعنة في القدم"[23].

يحمل هذا النوع من الكتابات جانبًا دلاليًّا خطيرًا، فهو يُحيل بطريقة مباشرة وسافرة إلى أنّ فن العمارة الإسلامي عبارة عن سرقات مبتذلة من أنماط العمارة البيزنطية وعمارات حضارات سابقة، بل ويحاول أن يُزيل كلّ خصوصية وقدسية أهم عنصر في الحضارة العربية الإسلامية، ألا وهو المسجد، وذلك بربط عمارته بعمارات حضارات سابقة، ممّا يُحيل بطريقة خطيرة في أذهان الغربيين إلى أنّ الدين الإسلامي ليس دينًا سماويًّا جديدًا ولكنه دين مُنتحل من ديانات سابقة مثله مثل عمارته.

وأذهب كذلك إلى ما ذهب إليه مترجم هذا الكتاب لـ (بورتون Burton)، الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ في تعليقه، فـ (بورتون Burton) يشير في قوله هذا إلى أنّ هذا الاقتباس المباشر من الأنماط المعمارية البيزنطية واضح تمامًا في مساجد القاهرة القديمة، ولا نُنكر تأثير الحضارات بعضها في بعض الآخر، لكن إنكار خصوصية كلّ حضارة فيه تجاوز كبير وخطير، فهل أخذ المسلمون من الحضارة البيزنطية فكرة "مكان الوضوء" الّذي لا يخلو منه مسجد؟ بالطبع لا، لأنّ الوضوء خاصية إسلامية، كما أنّ فكرة الأروقة الأربعة في المسجد فرضها وجود مذاهب إسلامية أربعة، ولو كانت خمسة لكانت الأروقة خمسة، إذن ما دخل الحضارة البيزنطية بعدد المذاهب الإسلامية؟؟[24].

وأُنهي استشهادي بأقوال (بورتون Burton) وما كتبه في رحلته عن شهر رمضان وتأثيره السلبي على المسلمين لما في هذه الكتابات من خطورة كبيرة في تشويه صورة المسلمين وصورة شهر الصيام في أذهان الغربيين، فقد كتب يقول: "فأصوات المسلمين الصائمين الّتي لم تكن أبدًا – قبل رمضان – من بين أرق الأصوات، قد اكتسبت – خاصّة في وقت ما بعد الظهيرة – بُحّة مفزعة ونغمة كنغمة صرير الباب، فالرجال يلعن بعضهم بعضًا، ويضربون النساء، أمّا النّسوة فيلطمن الأطفال ويُسئن معاملتهم، أمّا الأطفال فهم بدورهم يتضرّعون ويعاملون القطط والكلاب بقسوة... والمساجد غاصّة بالناس العابسين المتذمّرين، يتربّص كلّ منهم بالآخر، مع أنّهم يسيرون في طريق يرضون الله به"[25].

يجعل بورتون من شهر رمضان المقدّس عند المسلمين، شهر العداء والتّلاعن والضرب واللّطم والتّربّص بالآخر، بل ويُعمّم ذلك على كلّ المسلمين دون استثناء، فالرجال يلعن بعضهم بعضًا ويضربون نساءهم والنساء يلطمن أطفالهم والأولاد يقسون على القطط والكلاب، بل تصبح المساجد مكان العداء والتّربّص بالآخر للانقضاض عليه، هذا ما يحاول هذا الرّحالة زرعه في أذهان مواطنيه الغربيين عن المسلمين وعن إسلامهم ومكان عبادتهم، فتعميمه لم يستثن الأطفال الّذين ينقضّون بقسوة على القطط والكلاب، هذه المبالغة الكبيرة والتعميم المضلّ لا يمكن لنا أن نجد لهما تفسيرًا مقنعًا إلاّ من خلال ربطهما بالنظرة الاستعمارية للشرق من طرف الحكومات الغربية التي موّلت رحلات أمثال (بورتون Burton) كي يقدّموا لها صورًا مشوّهة عن الشرق المسلم تُبرّر أمام شعوبها حتمية الاعتداء عليه واستعماره تحت غطاء درء خطره المتنامي وتقديم حضارة لشعب همجي ومتخلّف.

وقد وقفت بعض الشيء عند الرّحالة (بورتون Burton) لأنّ كتاباته المضلّلة عن الشرق المسلم ودينه الإسلامي بقي أثرها الخطير والمؤثّر في أذهان الغربيين (دولاً وحكومات وشعوبًا) في أثناء تعاملهم معنا إلى غاية اليوم ونحن في الألفية الثالثة.

كما يجب أن ننتبه إلى أنّ المفكّرين الغربيين – حتّى هم كذلك – لم يروا من الشّرق إلاّ ما أراد هذا الشّرق أن يبديه لهم، أو بالأحرى ما أرادهم أن يبحثوا عنه فيه، بعملية اصطفائية "غير علمية ولا موضوعية"، وفي الحالين أنشأ هؤلاء صورة للشرق إنشاءً يعتمد على ما ترسّب في الذاكرة الجمعية الغربية من مقولات، وعلى ما صنعه الخيال الشعبي من تصوّرات، شكّلت الفضاء المجمل الأفكار الغربية، وشكّلت من ثم أداة ضغط لم يستطع المفكّرون الغربيون الفكاك من إسارها، أو التّحرّر من ربقتها، وهكذا كان هؤلاء يرون ما أسقطه اللاّوعي عندهم، أكثر مما يرون بأعينهم ومنطقهم العقلي، فيقومون بعملية انتقائية فجّة لما جاؤوا يبحثون عنه، فالشّرق عند بعضهم موطن الحكمة، وبلاد شهرزاد وشهريار، والسندباد، وشعبه مجموعة من الشعراء والحكماء والفلاسفة، بينما كان عند آخرين بلاد التّخلّف، والجمود، والسّكون، وشعبه مجموعة من الكسالى، والمتعصّبين، المحبّين للعنف والمتعطّشين للدّماء، وفي الحالين – وكما يبدو واضحًا – فإنّ الشّرق عبارة عن عناصر مشتّتة، منمّطة، لا رابط بينها، تمثّل لحظات معزولة من سياقها الموضوعي، لخدمة الأفكار المسبقة الّتي تتحكّم بهؤلاء الباحثين وبأبحاثهم[26].

ومن هنا نستطيع القول إنّ الشّرق قد حقّق كلّ الاحتياجات الّتي أرادها الغرب منه، سواء الاحتياجات النّفسية منها أو الدينية أو الاجتماعية، فكلمة "شرق" تُثير فورًا تداعيات كثيرة في ذهنية الأوروبي مثل: الشّرقي المسلم، المحتال، ألف ليلة وليلة، الصّحراء، الرقص، الحروب الصليبية، الإنجيل، الجواري، الحريم ...إلخ.

ومع هذا كلّه، فمن الإنصاف أن نذكر بأنّه قد ظهر من الأوروبيين مَن اعترف بعظمة الشّرق،فبعد دراسته للّغة العربية، اعترف "هيردر (1744 – 1803) Herder" بعظمة اللغات السّامية وأهمّها العربية والعبرية والآرامية والحبشية، واطّلع على أمثلة قليلة من الشعر العربي، فظهر له أنّ الشعر أجمل تعبير عن ثقافة شعب من الشعوب"[27].

لكنّ الملاحظة الّتي يمكن أن نضيفها هنا، وهي أنّه مع هذا الاعتراف الموضوعي والنّزيه إلاّ أنّ هذا القول مع غيره من الأقوال، جاء ليرسم صورة أخرى عن الشّرقي، وإن كانت في الحقيقة صحيحة فهي من خلال التأويلات المتعمّدة من بعض الغربيين، أخذت منحىً آخر من التشويه؛ فهي صورة الشّرقي الّذي يعشق الشعر وينشده بل ويجعله ترجمان أحاسيسه الدفينة وعواطفه الجياشة مثل عاطفة الحب، فأشعار العرب على وجه الخصوص مليئة بالغزل والحب، لكنّ بعض التأويلات المتعمّدة من الغرب جعلت الشعر العربي محصورًا فقط في الحبّ والغزل والمجون وطلب اللذّة لتصل إلى أنّ الشّرقي جنسي حتّى في شعره يبحث عن اللّذات الحسّية.

ولا يمكننا أن نختم هذه الدّراسة دون التّعرّض إلى أحد أهمّ المفكّرين الغربيين المعاصرين الّذين اعترفوا بعظمة الشّرق، وفضحوا خرافات بلدانهم وأساطيرها الخاصّة بمدنية الغرب وحضارته ودونية الشعوب الشّرقية. هذا المفكر الغربي هو "روجيه غارودي"؛ فهو يعيب على بلاده النظرة الأحادية الّتي بها تحكم على الحضارات الأخرى، فتَسِمُها بالتخلّف والبدائية، لأنّها لم تُساير طريقتها وتَتّبع منهجها، فيقول: «إنّ الغرب ينصّب نفسه قاضيًا على جميع الحضارات الأخرى- لأنّه يعتبر أنّ المسار الّذي يتبعه مثالي، وأنّه المسار الوحيد الممكن- ويحكم ومن ثم على شعب وحضارة وعلم أو تقنية بأنّها بدائية أو نامية أو متخلّفة، وفقًا لنقطة وجودها على هذا المسار، أي وفقًا لكثرة أو قلّة تشابهها معها»[28]. بل إنّ هذا المفكر الشجاع لَيسخر من المؤرخين الغربيين حينما يطلقون لفظة "الغزوات البربرية" على غزوات البرابرة لروما وسقوطها في أيديهم عام 476م وعلى غزوات أخرى، بينما يبدّلون هذه التسمية – وهذا ما يثير عجبه وسخطه – عندما تكون الغزوات من صنع الأوروبيين، فيصبح اسمها " الاكتشافات الكبرى "[29].

ولعلّ هذا أكبر دليل يقدّمه شاهد، على همجية الغرب وأحادية تفكيره وتلاعبه بالمعلومات والأحداث التاريخية، الّتي تظهره على أنّه حاملُ الحضارة ومكتشف القارات، بينما من جهة أخرى، تُظهر الآخر (الشّرقي) همجيًّا بدائيًّا ومتخلّفًا. لكنّ هذا المفكّر يحاول أن يُزيل بعض ما لُفّق لصورة الشّرقي والحضارة الشّرقية – وخاصة الحضارة الإسلامية – من صفات لا تَمُتُّ إليها بصلة الّتي ما تزال راسخة في أذهان الكثير من الغربيين. فقد اعترف صراحة بعظمة الحضارة العربية الإسلامية وبمدى تأثيرها على مدنية الغرب إذ يقول في ذلك: «إنّ الحضارة العربية الإسلامية لقّحت الماضي وهيّأت المستقبل طوال ألف سنة. ونقلت إلى أوروبا – عبر إسبانيا وصقيلية – ثقافة حملت مسؤوليتها ألف عام، ومارست تأثيرها على الغرب، بترجمة الآثار الإسلامية إلى اللاتينية... إنّ هذه الآثار الآتية من إسبانيا وصقيلية رسمت منعطفًا في رؤية الغرب للعالم»[30].

ومع أنّه قد ظهرت نزعة غربية تحاول فهم الشّرق من جديد فهْمًا مبنيًّا على الدراسة الموضوعية لثقافته وحضارته فإنّنا يجب ألاّ ننسى بأنّ غالبية روايات الرّحلات الأوروبية عن الشّرق شَابَها التّحامل وداخَلَها الافتراض. فلا يُنْكَر بأنّ هذه الروايات أدّت بشكل أو بآخر إلى توسيع معرفة الغرب للعالم؛ إلاّ أنّ هذه المعرفة كانت مشوّهة خدمت إلى حدّ بعيد الاستعمار ورؤيته الإمبريالية والتسلّطية. وللأسف لا يزال بعض هذا التشويه موجودًا بيننا حتّى اليوم بالرّغم من زوال الاستعمار منذ مدّة. ولعلّ أصدق ما يدلّ على بقاء هذه الخلفية الذهنية المشوّهة عن الشّرق لدى الغربيين هو ما يحدث الآن ونحن في القرن الواحد والعشرين، حيث ما يزال الشّرق- والإسلام على وجه الخصوص- يُوسم بالعنيف والشهواني، بل ظهرت صفة أخرى ألصقها هؤلاء بالإسلام والمسلمين والّذين هم منها بَراء، هذه الصفة هي الإرهاب. فإذا كان العداء للإسلام جزءًا لا يتجزّأ من البنية العقلية للشعوب الغربية والرّحّالة الغربيين في القرون الماضية، فإنّه لا يزال كذلك – ونحن داخلون على الألفية الثالثة – ضمن البنية العقلية للإنسان الغربي واللاشعور الجمعي***(Incocscient Collectif) الآن. ولا أدَلّ على ذلك على ما يحدث الآن في البلدان الإسلامية وما يلاقيه المسلمون في العالم من حصار واستئصال تحت غطاء القضاء على الإرهاب الدولي الّذي يمثّله هؤلاء.

المراجع المعتمدة في الدراسة:

1 - ينظر: Edward Said : L'Orientalisme : l'Orient crée par l'Occident - Traduit par : Catherine Malamoud – Editions du Seuil – Paris – 1980 – p 70.

2 - رنا قباني- أساطير أوروبا عن الشّرق: لَفّقْ تَسُدْ- ترجمة: د. صباح قباني- دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق- الطبعة الأولى- سنة 1988 - ص 36.

3 - المرجع نفسه – ص 19.

4 - المرجع نفسه – ص 19.

5 - ينظر : د. ميجان الرويلي و د. سعد البازعي- دليل الناقد الأدبي – المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء (المغرب) وبيروت (لبنان) - الطبعة الثانية - 2000 - ص30.

6 - ينظر : محمد راتب الحلاق - نحن والآخر : دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر الشّرق/الغرب× التراث/الهوية × الممكن/الواقع- منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق -1997- ص15.

7 - ينظر : رنا قباني- أساطير أوروبا عن الشّرق – مرجع سابق - ص 19 و 20.

8 - ينظر : المرجع نفسه – ص 19 و 20.

× - لوحة أوجان دي لاكروا - Delacroix " موت ساردانا بالو- La Mort de Sardanapale " الّتي رُسمت ما بين سنتي 1827م و1828م وهي لوحة زيتية على قماش بطول 395 سم وعرض 495 سم، توجد الآن في متحف اللوفر بباريس (Musée du Louvre، Paris).

-9 ينظر: دونكان هيث، جودي بورهام – الرومانسية – ترجمة: عصام حجازي- مراجعة وإشراف وتقديم: إمام عبد الفتاح إمام – المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - الطبعة الأولى 2002 - ص161.

10 - رنا قباني- أساطير أوروبا عن الشّرق – مرجع سابق – ص 46.

11 - المرجع نفسه – ص 22.

12 - المرجع نفسه – ص 25.

13 - المرجع نفسه – ص 25.

14 - Joelle Redouane – L'Orient arabe vu par les voyageurs anglais – Office des Publications Universitaires (O.P.U) – Alger – 1988 – p 139.

15 - ينظر : رنا قباني - أساطير أوروبا عن الشّرق – مرجع سابق- ص 26.

16 - المرجع نفسه – ص 27.

17 - ينظر : المرجع نفسه – ص 27.

18 - ينظر : Edward Saïd – L'Orientalisme - مرجع سابق - ص72.

19 - ينظر : باقر بري - إضاءات على كتاب الاستشراق لإدوار سعيد - دار الهادي للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الأولى 2002 - ص61.

20 - المرجع نفسه – ص 67-68.

×× - الإسقاط: Projection: هو عملية هجوم لاشعورية يحمي بها الإنسان نفسه من خلال إلصاق عيوبه وأخطائه ونقائصه ورغباته المحرّمة أو المستهجنة بالآخرين، ويمكن اعتبار ذلك عبارة عن لوم للآخرين على ما فشل هو فيه، بسبب ما يضعونه أمامه من عقبات وما يُوقعونه فيه من زلاّت أو أخطاء. وعلى سبيل المثال إنّني أكره شخصًا ما ولكنّي أقول للآخرين هو يكرهني؛ بهذه الطريقة أتخفّف من إثمي. وبالمعنى التحليلي النفسي المحض، يدلّ الإسقاط على العملية الّتي ينبذ فيها الشخص من ذاته بعض الصّفات والمشاعر والرّغبات وحتّى بعض"الموضوعات " الّتي يتنكّر لها أو يرفضها في نفسه، كي يموضعها في الآخر، سواء أكان هذا الآخر شخصًا أم شيئًا. فالإنسان، إذا زاد ضغط الدوافع أو ضغط المُثُل على ذاته إلى درجة يشعر معها بالقلق والتوتّر، فإنّه يحاول أن يخفّف من هذا العبء النفسي الثقيل وذلك بأن ينسب هذا العبء إلى مصدرٍ في العالم الخارجي.فالفرد الّذي يخاف من نزعاته و ميوله العدوانية والجنسية، تلجأ الأنا داخل ذاته إلى التّخفيف من حدّة هذه الميول ووطأتها حين تنسبها إلى الآخرين، أي أنّ الآخرين هم الّذين يميلون إلى العدوان والجنس، وليس ذات الفرد. لمزيد من التوسع يراجع:

- جان لابلانش، ج . بونتاليس- معجم مصطلحات التّحليل النّفسي- ترجمة: مصطفى حجازي- ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر- الطّبعة الاولى- -1985 ص70.

21 - ينظر : رنا قباني - أساطير أوروبا عن الشّرق – مرجع سابق - ص 84.

-22 ريتشارد ف. بيرتون – رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز – ترجمة وتعليق: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – د.ط – 1994 – الجزء1 – ص 85-86.

-23 المرجع نفسه – ص 86.

-24 يُنظر: المرجع نفسه – ص 86.

-25 يُنظر: المرجع نفسه – ص 72.

-26 ينظر: محمد راتب الحلاق- نحن والآخر - مرجع سابق - ص 16 -17 .

27 - ينظر: برند مانوئيل فايشر - الشّرق في مرآة الغرب - دار سراس للنشر (تونس) وديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - سنة 1983 - ص 65.

28 - روجيه غارودي – وعود الإسلام – الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – الطبعة الأولى 1984 – ص 104.

29 - ينظر: المرجع نفسه - ص 21.

30 - المرجع نفسه - ص 139.

***- اللاشعور الجمعي Incocscient Collectif – هو، بالمعنى الّذي حدّده " يونغ " : ما في لاشعور الفرد، ربما يكون من أصل سلفي أي يرجع للأسلاف. وهو مجموع الصفات غير الشعورية الّتي لم يكتسبها الفرد بل هي موروثة. وهي غرائز بما هي حوافز على القيام بأفعال تقتضيها ضرورة ما، دون أن تتدخّل الواعية (الشعور) في استشارتها. فالغرائز، والنماذج البدئية « Archétypes » مجتمعة، تشكّلُ اللاشعور الجمعي الّذي لا يتكوّن من محتويات فردية خاصّة فقط، بل ومن محتويات جماعة أو أمّة أو جنس بشري معيّن ويتكوّن كذلك من محتويات عالمية ذات حدوث نظامي.

لمزيد من التفصيل، يمكن مراجعة :

- كمال الدسوقي: ذخيرة علوم النفس – الدار الدولية للنشر والتوزيع – القاهرة، الجزء الأوّل، ص 695.

و كذلك كتاب:

- كارل غوستاف يونغ :علم النفس التحليلي– ترجمة وتقديم : نهاد خياطة – دار الحوار– دمشق– الطبعة الأولى سنة 1985 ص293.



الإفصاح عن الذات



د. عبدالرحمن بن سليمان النملة

عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كل منا يبحث عن صديق وفي يبث له مكنون نفسه بحرية وتجرد، ذلك أن مناجاة الأصدقاء تزيل الكثير من الهم، لأنها تبعث على الراحة، وإعادة التوازن. لذلك اهتم الباحثون في الدراسات النفسية، وتحديداً في مجال الصحة النفسية بموضوع الإفصاح عن الذات Self-disclosure بوصفه يمثل دور الوسيط النفسي لتوافق الأفراد وصحتهم النفسية. إن مفهوم الإفصاح عن الذات يعد محكاً لتقييم الشخصية السوية لما له من فوائد كثيرة في تنمية وتطويرها المهارات الاجتماعية، وتحسين علاقات الفرد مع الآخرين، فإفصاح الفرد وتعبيره عن ذاته يسهم في تحقيق فهم متبادل بين الأفراد في العلاقات التفاعلية مما يؤدي إلى تقوية هذه التفاعلات الاجتماعية والعلاقات البينية بين الأفراد.

ويسهم الإفصاح عن الذات في تحسين مستوى الصحة النفسية لدى الفرد بصفة عامة، حيث يُعدُّ، حسب العديد من الدراسات بمثابة عامل وقائي ونقطة محورية في التدخل للوقاية وعلاج بعض الأمراض والاضطرابات النفسية، وخاصة ما يتعلق بإيذاء الذات لدى المراهقين من الجنسين.

ويرى بعض الباحثين أن "الإفصاح عن الذات يساعد في تحقيق فهم أفضل للفرد عن ذاته، كما تبين ارتباطه إيجابيًا بالتقدير الإيجابي للذات وبالترابط الأسري"[1] ويعرف الإفصاح عن الذات بأنه "عملية الكشف عن الذات وإظهارها بحيث يتمكن الآخرون من التعرف عليها وإدراكها، ويتضمن هذا الكشف المشكلات الاجتماعية والنفسية والصحية والاقتصادية، والطموحات المستقبلية والآراء والاتجاهات وبعض الأسرار الخاصة والأسرية"[2].

ويساعد إفصاح الفرد عن ذاته على التواصل الجيد مع الآخرين والتفاعل الإيجابي معهم، خاصة إذا تم الإفصاح عن خبرات الفرد ومشاعره للآخرين بشكل متبادل مما يولد الشعور بالقرب والتواد مع الآخرين.

والإفصاح عن الذات يُعدُّ عملية يقوم الفرد من خلالها بإفشاء بعض المعلومات الشخصية لفرد آخر دون غيره من أفراد المجتمع، فهو بذلك يعكس طبيعة العلاقة التبادلية للاتصال الشخصي، فعندما يفصح الطرف الأول عما يدور في خلده ويظهر الطرف الثاني الاهتمام والتفهم لما يقوله زميله، فإن عملية الاتصال تحدث بين الطرفين بشكل آني ومستمر، ويعتمد الفرد على خبراته السابقة في اختيار الشخص المناسب لهذا النوع من الاتصال الشخصي، فكلما ازدادت ثقتنا في شخص ما، كلما ازداد مقدار ما نفصح له من معلومات عن ذواتنا، وعادة ما تكون هذه الثقة مبنية على مدى تقبلنا لردة فعله المتوقعة تجاه المعلومات المفصح عنها.

ويؤكد بعض الباحثين[3] على أهمية معرفة الفرد لمستوى إفصاح الذات لديه، خاصة وأن لكل فرد مستوى مختلفًا من الحاجة للحميمية، فبعض الأشخاص يشعرون بالارتياح عندما يتحدثون عن خبراتهم الشخصية، وبعضهم يشعر بالتوتر، وهذا مؤشر على المستوى المتدني من الألفة والمودة بين الفرد والآخرين، ذلك إن انخفاض مستوى إفصاح الذات قد يؤدي إلى أن يكره الفرد نفسه، وأن يشعر بالعزلة وعدم مشاركة الآخرين، كما يعوزه نقص التغذية الراجعة (رد فعل الآخرين) عن مدى سلامة أفكاره، بالإضافة إلى الشعور بالخجل وعدم القدرة على حل المشكلات، وللإفصاح عن الذات آثار إيجابية على الفرد، ذلك أنه عندما يخوض الفرد علاقات اجتماعية مع الآخرين ويتفاعل معهم يحدث تبادل للإفصاح عن الذات، يتضمن البوح ببعض الخبرات الشخصية عن نفسه، مما يؤدي إلى التهدئة والتخفيف من الحالات الانفعالية السلبية، التي قد تتصاحب مع الخبرات الحياتية الضاغطة التي خاضها الفرد، فيشعر بالارتياح عندما يبوح بها ويناقشها مع أفراد يثق بهم أو مقربين إليه، إذ "من الأهمية أن يفشي الفرد ويفصح عن بعض الخبرات والمشاعر السلبية التي تؤرقه، حيث تبين أن

الأفراد ذوي الإفصاح المرتفع عن ذواتهم لديهم مستويات أعلى في الصحة النفسية من الذين يفضلون التكتم وعدم البوح عن مشاعرهم وخبراتهم السلبية للآخرين"[4].

ويختلف الأفراد في مقدار ما يفصحون به من معلوماتهم الشخصية للآخرين، فقد ذكر الباحثان جوزيف لوفت (Joseph Luft) وهاري إنجهام (Harry Ingham) أن الفرد لا يدرك جميع المعلومات المتعلقة بذاته، كما أن الآخرين لا يدركون جميع المعلومات المتعلقة بذلك الفرد. ولتوضيح كيفية حدوث عملية الإفصاح عن الذات فقد طور الباحثان نموذجاً أطلقا عليه "نافذة جوهاري" (Johari Window)، حيث تم تقسيم الذات البشرية إلى أربع مناطق رئيسية، وحسب سيلر وبيل (2006م& Seiler Beal)، فإن هذه المناطق هي:

1. المنطقة المكشوفة: وتحوي معلومات لا يمكن للفرد إخفاؤها عن الآخرين، مثل لون الشعر والمظهر العام والوظيفة، إضافة إلى معلومات يقدمها لهم طواعية.

2. منطقة الأسرار: وتحوي معلومات يتعمد الفرد إخفاءها عن الآخرين، فهناك أمور لا نريد للبعض أن يعرفها عنا، ومن ثم نسعى إلى حجبها عنهم، فعلى سبيل المثال قد يخفي الطالب عن والديه أن النتيجة السيئة التي حصل عليها في امتحان ما، كانت بسبب تقصيره في الدراسة، بينما لا يجد حرجًا من ذكر هذا السبب لأصدقائه المقربين.

3. المنطقة العمياء: فهناك معلومات لا نعلمها عن أنفسنا لكنها ظاهرة للآخرين، فقد يظن الواحد أنه قائد غير ناجح بينما يرى زملاؤه تحليه بمهارات قيادية فذة، ولعل أوضح مثال على ذلك نزوع بعض الأشخاص إلى تكرار كلمة معينة بشكل مستمر في أثناء حديثهم (مثل تكرار كلمة "يعني" أو "في الحقيقة") أو إحداث حركة لا إرادية عندما تسلط عليه الأنظار (مثل هز الركبة أو التبسم).

4. المنطقة المجهولة: وهي منطقة غير معروفة من الجميع، وتمثل جميع أبعاد شخصياتنا، التي لم يتم اكتشافها حتى الآن، فقد يظن الواحد منا أنه شجاع إلى أن يتعرض لخطر محدق فيكتشف خلاف ذلك.

ويمكن القول: إن مساحات الإفصاح وعدم الإفصاح الخاصة بالفرد تختلف باختلاف الشخص المقابل، بل إنها تختلف مع نفس الشخص من وقت لآخر. فكلما زادت درجة الثقة بين طرفي الاتصال، كلما ازدادت مساحة المنطقة المكشوفة، وهذا لا يعني بأن الفرد سيقوم بالإفصاح عن معلومات أكثر للشخص المقابل فقط، بل إنه على الأرجح سيكتشف أمورًا أخرى في ذاته لم يكن يعرفها من قبل، وتزداد مساحة هذه المنطقة كلما كانت العلاقة مع الآخر أقوى.

وهناك بعض العوائق التي تحول دون إفصاح المرء عن ذاته[5]، نذكر منها:

- الخوف من ظهور عيوبك للآخرين: قد تعتقد أن الإفصاح عن الذات سيُظهر للطرف الآخر القصور في شخصيتك أو في المهارات التي تتمتع بها، وهذا ما يدعو كثيرًا من الرجال إلى التردد في طلب المساعدة عندما يضلون الطريق، لكي لا يظن الطرف المقابل أنهم تائهون أو أنهم لا يملكون القدرة على تحديد الاتجاهات.
- الخوف من أن يصبح رفيقك ناقدًا لك: ربما تظن أنه عندما تطلع شخصًا ما على نقاط ضعفك فإنك بالتالي ستصبح عرضة لهجومه عليك.
- الخوف من أن تفقد شخصيتك: فالبعض يرى أن هناك بعض الأمور الخاصة بهم التي لا ينبغي لأحد أن يطلع عليها، وقد يكون هذا الخوف ظاهرًا لدى الشباب في مرحلة المراهقة بصورة أكثر، حيث تزداد رغبتهم في الاعتماد على أنفسهم واتخاذ قراراتهم الخاصة دون الرجوع إلى الوالدين أو الأخ الأكبر.
- الخوف من أن تفقد زميلك: فقد يكون لدى أحدهم سر دفين لو أطلع عليه زميله لربما أدى إلى ابتعاده عنه أو إلى إنهاء الصداقة التي بينهما، لذا فقد يتردد في إخبار زميله مثلاً بأنه كان يتعاطى المخدرات عندما كان شاباً خوفاً من أن يؤدي الإفصاح عن هذا السر إلى فقد ذلك الصديق.

وخلاصة القول: إن الإفصاح عن الذات يساعد على نمو وتطور العلاقة بين الأشخاص، كما أن الإفصاح غير المناسب يمكن أن يسيء إلى تلك العلاقة، ويتميز الأفراد ذوو الإفصاح المرتفع عن ذواتهم، بالمهارات الاجتماعية والاستعداد الاجتماعي المرتفع، وكذلك تتميز شخصياتهم بالانبساطية والقدرة على التفاعل مع الآخرين. كما يتيح الإفصاح عن الذات للفرد الفرصة أن يثق بالآخرين، لدرجة تسمح له بالبوح عن خبراته ومشاعره الذاتية، مما يساعده على أن يتخلص من أعبائه النفسية من خلال التنفيس الانفعالي لمشاعر مؤلمة أو مخجلة مما يحسن من صحته النفسية.

كما أن إخفاء حقيقة الذات عن الآخرين قد اتضح لدى بعض الأفراد من الجنسين الذين يعانون من الرهاب الاجتماعي وعدم القدرة على التعبير العاطفي، بالإضافة إلى شعورهم بالوحدة النفسية.

الهوامش:

1 - بانيني وفارمر وكلارك وبارنت (1990م،Panini، Farmer، Clark & Barnett).

2 - الباكر، 1996م.

3 - هوك وقرشتاين ودتريتش وجريدلي (2003م) Hook، Gerstein، Detterich & Gridley

4 - خان وهسلينغ (2001م) Kahn & Hessling

ناب وفينغليستي (2000م) Knapp، & Vengelisti

5 - ناب وفينغليستي (2000م) Knapp، & Vengelisti

أهم المصادر:

الباكر، جمال محمد (1996م). "مقياس الإفصاح عن الذات"، كراسة التعليمات. القاهرة: دار الفكر العربي.

Hook، M.، Gerstein، L.، Detterich، L. & Gridley، B (2003). How close are we? Measuring intimacy and examining gender differences. Journal of Counseling & Development، 4 (81)، pp. 462472-.

Kahn، H. & Hessling، M. (2001). Measuring the tendency to conceal versus disclose psychological distress. Journal of Social and Clinical Psychology، 20، pp. 4165-.

Knapp، M. L. & Vengelisti، A. L. 2000. Interpersonal Communication and Human Relationships. Boston، MA.: Allyn and Bacon by Pearson Education، Inc.

Panini، R.، Farmer، F.، Clark، M. & Barnett، K. (1990). Early adolescent age and gender differences in patterns of emotional self-disclosure to parents and friends. Adolescence، 25 (100)، pp. 959977-.

Seiler، W. J. & Beal، M. L. 2006. Communication: Making connections. Boston، MA.: Allyn and Bacon by Pearson Education، Inc.

صعاليك العرب

وبحثهم عن العدالة الاجتماعية



د. عمار الجنيدي

الأردن

برزت ظاهرة الصعلكة عند العرب منذ بدايات العصر الجاهلي، كأسلوب حياة وكقيمة فكرية، لأسباب فرضتها البيئة الاجتماعية والاقتصادية التي عاشوها في تلك الحقبة.

وهي بوصفها ظاهرة اجتماعية جاءت كرد فعل على بعض العادات والممارسات التي فرضها النظام المالي، الذي ساد في تلك الحقبة، فخرجوا على هذا النظام ثائرين؛ ليأخذوا بالقوة ما حُرموا منه، آخذين بثأرهم من الأغنياء البخلاء في مجتمع لا قانون ولا محاكم منظمة فيه.

وعُرِفَتْ طائفة الصعاليك الشعراء ممن اشتهرت حياتهم وشعرهم بموضوعات وأسلوب وغايات معينة. وخاصة: بطبقة الصعاليك الفقراء. فقد عرّف معجم لسان العرب الصعلوك بأنه: «الفقير الذي لا مال له». وقالوا عن صعاليك العرب إنهم: «ذؤبان العرب» وذؤبان العرب: «لصوصهم وصعاليكهم». وقالت العرب: «تصعلك الرجل أي افتقر».

وفي عرف التاريخ الأدبي: هم جماعة من مخالفين العرب الخارجين عن طاعة رؤساء قبائلهم. الذين كانوا يحكمون وفقًا لمأثور عادات العرب وتقاليدهم.

ومع تطوُّر دلالة هذا المصطلح: أصبح يدل على طائفة من الشعراء ممن كانوا يمتهنون الغزو والسلب والنهب، ينهبون أموال الأغنياء، ويخاطرون بحياتهم من أجل سد رمق الفقراء وحاجته فيكفلونهم بذلك أسباب الحياة.

ثم اكتست كلمة الصعلكة معنى جديدًا بسبب إمعان الصعاليك بالفتك والقسوة والسلب والنهب والترويع. فصارت تعني: النزوع الثوري. حيث كان الاقتران بهذا الاتجاه الثوري يُحتّمُ على الصعلوك لأن يكون شجاعًا فارسًا شاعرًا سريع العدو مُدركًا للفوارق الطبقية بين الأغنياء والفقراء، بحيث يحسّ بالألم الناتج عن فقره وعجزه عن التكفّل بمتطلّبات حياته اليومية والخبرة بدروب الصحراء.

واتضحت نزعات الصعاليك بأنهم كانوا يسطون على قوافل وأموال الأغنياء البخلاء، ويخلون الأغنياء الكرماء وكانوا يقتسمون بالتساوي ما يغنمون، وكانوا يتصفون بالنجدة والإيثار وعطفهم على الفقراء العاجزين، ويفاخرون بصعلكتهم أيما فخر، ويرون فيها قصاصًا من الأغنياء البخلاء وفتوّة وتضامنًا اجتماعيًا و"اشتراكية قسرية". وكان أدبهم متخمًا بالأخلاق صادقًا في تصوير حياتهم ومذاهبهم عاكسًا صدى واقعهم خالٍ من الغزل مُكثرين من مخاطبة زوجاتهم عبر أشعارهم. واشتهر منهم (عروة بن الورد) و(السليك بن السلكة) و(تأبط شرًا) و(الشنفرى) و(عمر بن برّاقة) وغيرهم.

القبائل العربية المنتشرة في بطاح صحرائها، لم تكن على مستوى متشابه في الغنى والخصوبة. فالكثير منها كان موغلاً في الفقر والجدب. بينما تجد قبائل أخرى على النقيض من الخصوبة ووفرة النتاج الغذائي. مما أفرز طبقة من الفقراء المعدمين الذين ثاروا على طبقة الأغنياء المُلّاك المترفين، واحترفوا الغزو والنهب للحصول على قوتهم. فراحوا يطلبون أرزاقهم بالإغارة على القبائل الأخرى. ينهبون القوافل الصغيرة ويسرقون الإبل ويغيرون على الأسواق.

أما النظام الاجتماعي الذي حكم القبائل العربية آنذاك فقد كان له دور الحسم في بروز ظاهرة الصعلكة. حيث إن القبائل لم تكن راضية عن سلوكيات بعض أبنائها. الذين كان لهم عداءات وثارات مع أبناء القبائل الأخرى. فخلعتهم لسوء سلوكياتهم، لأن وجودهم في القبيلة مجلبًا للثأر والاعتداء عليهم. فتبرأت منهم لكي لا تتحمل وزر جرائم جناياتهم على القبائل الأخرى. وعرفت هذه الطبقة بـ«الخلعاء».

ووجد الكثير من أبناء الحبشيات - الذين تسرب إليهم السواد - منبوذين، غير متساوين في حقوقهم مع أبناء العربيات الحرائر، بل وغير معترف بنسبهم إلى آبائهم. واحساسهم بظلم المجتمع لهم ؛ مدفوعين للخروج على قبائلهم للمطالبة بالاعتراف بنسبهم وحقوقهم. كعنترة ابن شداد، وهؤلاء عرفوا بـ«الأغربة السود».

اكتسب الصعاليك شهرتهم من تمردهم على قيم وقانون المجتمع الجاهلي، ومن الطباع والسجايا التي كانوا يتمتعون بها. كالشهامة والفروسية وإجادتهم قول الشعر ومناداتهم بالعدالة الاجتماعية. حيث إنهم توحدوا وأشاعوا بينهم نوعًا من العدالة الاجتماعية، التي تقوم في أهم دعائمها على المساواة. فتوزعوا الغنائم بالتساوي بينهم أولاً، ثم ما لبثوا أن تعاطفوا مع الفقراء، ليوزعوا الغنائم عليهم ويقتسموها معهم.

قصة قصيرة

صديق واحد

بقلم: محمد بن يوسف كرزون

لا يعرف (أبو اللّول) من أين جاءته هذه الكنية، فهو قد تجاوز الخمسين منذ عدّة سنوات، ولم يتزوّج، ولم يأته (لول)، أو لم تأته (لؤلؤة)... فهو زاهد في النساء، فما بالك في الزواج؟ ومع ذلك هو يحبّ كثيرًا هذه الكنية. ولمَ لا؟ فهو رجل مثل بقية الرجال... وليس يليق به أن يُنادَى باسمه مجرّدًا...

أبو اللول هذا يعمل (صيّاحًا).. نعم.. لا تستغربوا... صيّاحٌ ماذا؟ صيّاحُ سيّارة أجرة (سيرفيس) حيّ طريق الباب.. وأحيانًا حيّ الحيدريّة.. فهو يصيح من الفجر الأوّل إلى ما بعد الغروب بأعلى صوته، لينادي على الزبائن أن يركبوا سيّارة معلّميه... نعم هو له أكثر من معلّم... معلّمهُ الأوّل منذ الفجر وحتّى الثانية بعد الظهر (أبو عمر) وهو سائق متفرّغ.. ومن الثانية بعد الظهر وحتّى العشاء (أبو أدهم)، وهو معلّمه الثاني... وكلّ واحد منهما أصغر منه سنًّا... ومع ذلك لا يتوقّفون عن كيل الشتائم له والسباب ربّما على عدد الركّاب... أو على عدد الليرات التي يجمعها من زبائنه... ثم هم يُظهرون نزقهم منه لأيّ حديث يستمع إليه من أحد الركّاب... وربّما لانتباهه لحوار بين راكبين أو راكبتين...

وبرغم أنّه (صيّاح)، فلا تكاد تسمع صوتَهُ لا في العمل ولا في الحيّ إلاّ نادرًا... فالجملة عنده عصيّة... ومن أجل تأمين حاجيّاته.. أو الدفاع عن نفسه من اتّهام... أو التعبير عن سرور... لا تكاد تسمع منه إلاّ كلمة واحدة أو كلمتين... إمّا بصوت خفيض مليء بالحياء... وإمّا بصياح فيه زمجرة الأقوياء...

يحاول كثيرون من مالكي (الميكرويات) أن يستميلوا قلب (أبو اللول) للعمل معهم... ويغرونه بأجر أكبر ممّا يتقاضى... يهزّ كتفيه إلى الأعلى... يقول (ما!!!!)، وأحيانًا يكرّرها ثلاثًا... تعبيرًا عن الرفض...

أبو اللول معروف في حيّ (كرم القاطرجي) منذ زمن بعيد... منذ أن كان له صديق يُدعى (أبو رحمو)... كانا متحابّين... تراهما في أوقات الفراغ مع بعضهما لا يفترقان... يحبّان أكل (الفول المدمّس) ليس لوحدهما فقط، بل يجمعان كثيرًا من رجال الحارة... وهما لا يشتريانه جاهزًا... بل يجهّزانه منذ أذان الفجر على نار هادئة...

وعندما مات صديقه (أبو رحمو) صار القبر صديقه.. فهو لا يتوانى عن زيارته كلّ صباح.. وقبل كلّ غروب.. وكان مروره دقائق معدودات.. ينتهزها من عمله ببراعة نادرة.. لا تزعجُ أيًّا من معلّميه..

يتجمّعُ حولهُ أولاد الحيّ وشبّانه.. يسألونه: كيف مات أبو رحمو؟ يجيبهم بعد إلحاح: مات وانتهى... وما لكم في الرجل.. ألم يكفكم الأحياء حتى تلحقوا الأموات؟ ثمّ يعلّق قائلاً: يا ليتني أموت كما مات... ثمّ يهرب منهم إلى غرفته الصغيرة التي تركنُ في زاوية معتمة من الحيّ...

وحقيقة الأمر أنّ (أبو رحمو) مات فجأةً.. بعدَ جدال مع معلّمه.. الذي قال له بعد عشرين سنة من العمل معه: "أبو رحمو.. هذا حساب أجرتكَ هذا الأسبوع.. وهذه فوقه إكراميّة.. ومن الغد ابحث عن عمل آخر"...

يا ربّي.. ماذا فعلتُ؟ وكيف سأعيش؟ عشرون سنة وأنا في خدمته.. ولم أزعجه يومًا.. ومنذ يومين وأنا مريض، ولم أقدر على الذهاب إلى العمل.. هل هذا ذنبي؟ هل لي ذنبٌ آخر؟؟؟!!!!

وعاد إلى بيته.. وبكى كما لم يبكِ من قبل.. لا لشيء.. إلاّ لغموض معلّمه.. ولجهله سبب الغموض والموقف.. لم يدرِ ببكائه سوى أبو اللول... فقد قضى معه ساعات قبل أن يدخل بيته... وهو الوحيد الذي عرف شيئًا من سبب حزنه...

لم يفهم أحد من أهل بيته سبب البكاء... ولا شعروا باشتداد المرض عليه.. تركوه يذهب إلى فراشه.. لعلّه يغالب المرض.. وعندما دخلوا إليه في وقت متأخّر من الليل وجدوه قد انتهى.. لا حركة جسده الأصفر الشاحب..

لم يتمكّن من (التصبيح) على أبو اللول.. لأنّ الموتَ قد أتاهُ وانتهى... فلم يخطر على باله أنّ لقاءه بأبو رحمو هو آخر لقاء..

أبو اللول لمن سيشكو همّه بعد اليوم؟ ومن سيحضّر الفول معه؟ ومن سيبادله بالحديث عن الهموم الكثيرة؟ ومن سيساعده على الزواج من أختِ أبو رحمو؟ هو أحبّها لأنها أخت أبو رحمو.. صحيح لم يتكلّم معها ولا حرف.. ولكن نظراتها له ونظراته لها تجعل قلبه يطير فرحًا.. وينتظر الفرح القريب.. وأبو رحمو صارحه بزواجهما..

وفجأةً.. وبعد أيّام من وفاة أبو رحمو يضجّ في الحيّ خبر خطوبة (فريدة)، أخت أبو رحمو من المعلّم.. لم يصدّق ما سمع: أسبوع واحد فقط مضى على وفاة أخيها.. معقول أن تُقدم أسرتها على خطوبة من هذا النوع؟ الناس في بلادنا ينتظرون حتى مرور 40 يومًا على الأقلّ.. ثمّ هي كيف وافقت؟ وتطاولت أسئلته.. وكثرت حتّى التفّت عليه.. وملأت غرفته حتّى السقف.. حرّكَ يديه وكأنّه يدفع خيوط الأسئلة وحبالَها عن رقبته.. ونامَ..

في الصباح.. تذكّر صديقه مثل كلّ يوم.. ونسيَ الدنيا كلّها.. سوى أن قدّمَ لأختِ أبو رحمو باقة ورود صغيرة وقال لبائع الورود: اكتب عليها (أبو اللول يتمنّى لكِ السعادة والخير)...

ومن يومها لا يتكلّمُ أبو اللول.. هو يصيح.. صيّاح.. ولكنه لا يتكلّمُ إلاّ مع أحجار قبر صديقه...

ملاحظة

1: كتبتُ الكنية (أبو رحمو) دون إخضاع لقواعد النحو، لأنّ أهل حلب يلفظونها هكذا.. وأنا تركتها مبنية على الحكاية.

2: الميكرو: هو الميكرو باص سيارة نقل متوسطة الحجم تتسع لما بين 7 إلى 13 راكبًا.. حسب نوعها...

السّيوطي ..

أنموذجُ العالِم المُشارك في التراث العربي الإسلامي

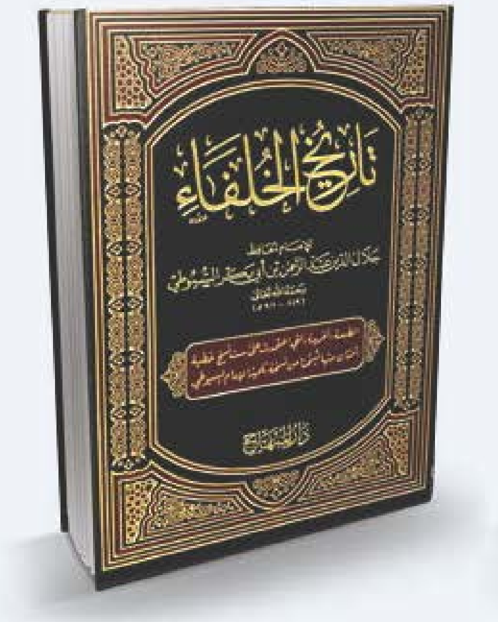


بقلم: د. فريد أمعضشو

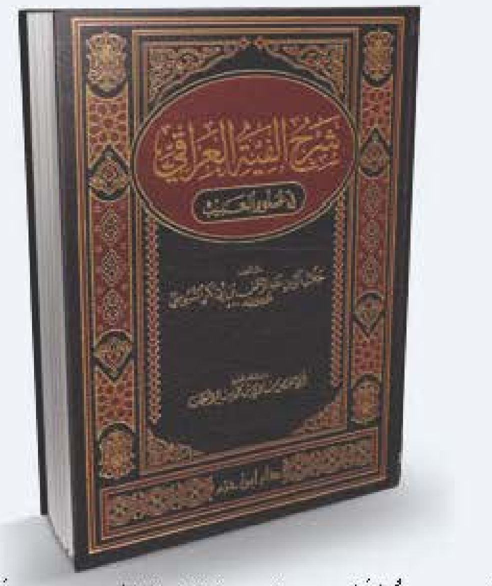
باحث مغربي

نطالع ونسمع كثيرًا بأن فلانًا متخصّص، مثلاً، في الشعر، أو النقد، أو الفقه، أو القانون، أو غيرها من ميادين المعرفة والإبداع، بل إنّا نجد بعضَهم متخصّصًا فيما هو أدقّ؛ كأنْ يتخصص في طبّ العيون، أو في دراسة شعر التفعيلة، أو في زكاة الأنعام، أو في غيرها من المجالات العلمية والأدبية والفنية الدقيقة.. إن الأمر يتعلق بظاهرة التخصُّص العلمي التي يراها الكثيرون ذات فائدة عميمة منْ مُنطلَق أن المُشتَغِل بعلم ما، حَصْرًا، يكون عطاؤه فيه أوفر، ويكون خَوضُه فيه أنْجع وأعمق، بخلاف مَنْ يُسْهِم في مجالات عدة إسهامًا يُشتّتُ جهدَه، ويجعل مردوده أضعفَ وأقربَ إلى السطحية في نظرهم، ظانّينَ – ربما – أن العالم غير مستطيع التمكنَ من علوم عدة! وإذا عُدْنا إلى تاريخ أمتنا العلمي محاولين التعرفَ إلى سِيَر علمائنا الأجلاّء، فسنُلْفي أنهم كانوا – في الغالب – لا يُقصّرون اهتمامَهم على علم من العلوم، بل كانوا يخوضون في جملة ميادين معرفية، قلَّ عددُها أو كثُر، ويؤلفون فيها كتبًا ورسائلَ، لذا، تجد الواحدَ منهم أديبًا، وفقيهًا، وفلَكيًا، وطبيبًا... وهذا ما يعبّر عنه أصحابُ التراجم القدامى بلفظ "المُشارِك"، أو ما يعبَّر عنه – حديثًا – بمصطلح "المَوْسُوعي". والأمثلة على ذلك من الوفرة بمكان في تراثنا العلمي الغنيّ، ولعلّ من أبرزها حالة جلال الدين السيوطي، رحمه الله، علاّمة عصره، وفريد دهره، ونابغة مصْره... التي تقوم دليلاً خِرّيتًا على أننا عرفْنا أنموذج "العالِم المشارك" قبل أن يظهر، بقرون كثيرة، ما سُمّي بـ"المَوْسوعيّين" (الأنسِكْلُوبيديّين) بفرنسا، خلال القرن الثامن عشر (عصر الأنوار)، الذين كتبوا في ألوان عديدة من المعرفة؛ كما قال د. أحمد عزّت عبد الكريم.

يَلْفتُ انتباهنا، لدى الاطلاع على مَنَاثِر التراث العلمي الذي خلّفه أسلافنا، على امتداد الأعصر والأزمان، ظاهرة ترجمية تستحقّ منا الوقوف عندها، ودراستها دراسة تحليلية ومقارنة، وهي ترجمة العالِم أو الأديب لنفسه؛ الأمر الذي يقوّي فرضية ظهور فن السِّيرة الذاتية (الأوتوبيوغرافيا) في تراثنا الأدبي، أو على الأقل انطوائِه على إرهاصاته وبذوره، فقد عمد مجموعة من علمائنا، قديمًا، إلى كتابة سِيَرهم بأنفسهم إمّا في أحياز محددة داخل كتبهم؛ على نَحْو ما فعل ابن الخطيب السَّلْماني (ت 776هـ) في آخر كتابه الموسوم بـ"الإحاطة في أخبار غرناطة"، وإما في كتب مستقلة؛ كما فعل السيوطي في كتابه "حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة" (جزآن)، وفي كتابه "التحدث بنعمة الله" (جزء واحد).







وإن السيوطي، بمُباشَرته هذه الترجمة الذاتية، كان على علم بأنه يقلد علماء سابقين فعلوا الشيءَ نفسَه، ولاسيما في مجال الكتابة التاريخية، وبأنه ليس مُدشِّنَ هذه العادة في الثقافة العربية الإسلامية؛ إذ قال في "حسن المحاضرة": "وإنما ذكَرْتُ ترجمتي في هذا الكتاب اقتداءً بالمحدثين قبلي، فقلَّ أن ألّف أحدٌ منهم تاريخًا إلا وذكر ترجمته فيه، وممّنْ وقع له ذلك الإمام عبد الغفار الفارسي في "تاريخ نيسابور"، وياقوت الحموي في "معجم الأدباء"، ولسان الدين بن الخطيب في "تاريخ غرناطة"، والحافظ تقيّ الدين الفارسي في "تاريخ مكّة"، والحافظ أبو الفضل ابن حجر في "قضاة مصر"، وأبو شامة في "الروضتين"، وهو أورَعُهم وأزهدهم". (1/335 – 336) ونضيف إلى هؤلاء المذكورين، هنا، ابن خلدون الحضرمي (ت 808هـ)، الذي عرَّف بنفسه في آخر أجزاء كتابه المعروف "العبر"؛ هذا الجزء الذي نُشر في كتاب مستقلّ – لاحقًا – عنوانُه "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا" (تحقيق محمد بن تاويت الطنجي).

ممّا استهلّ به السيوطي ترجمته ذِكْرُه نَسبَه مفصّلاً. فهو جلال الدين عبد الرحمن ابن الكمال بن أبي بكر محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي؛ نسبةً إلى أسيوط، أو سيوط، عاصمة الصعيد المصري، ويُكنّى بأبي الفضل، وهو سليلُ عائلة عريقة، قيل: إن أجدادها قدموا إلى مصر من بغداد، عُرفوا بالمكانة الاجتماعية والتجارة والزهد وفعل الخير والعلم، واشتهر في هذا الأخير عددٌ من أفراد تلك العائلة، أبرزهم والده الذي كان، كذلك، قاضيًا؛ على حدّ تعبير عبد الرحمن السيوطي نفسه في الترجمة المُشار إليها؛ إذ قال: "ولا أعرف منهم مَنْ خَدَم العلم حقّ الخدمة إلاّ والدي".

وقد وُلد الرجل "بعد المغرب ليلةَ الأحد مستهلّ رجب سنةَ 849 هـ"، في القاهرة، وعانى مرارة اليُتْم، وعمرُه دون الست سنوات، بموت أبيه، وحفظ القرآن الكريم كاملاً دون الثامنة من عمره، وقرأ كتبًا كثيرة جدًّا؛ فأحبّ العلمَ وهو صغيرٌ، وكان لوالده إسهامٌ كبير في هذا الصدد؛ لأنه كان يصْحبه معه إلى مجالس العلماء، وبمرور الأعوام، لازَمَ المشايخ، وتلقى عنهم العلم، وعدُّهم 150، ترجمَ لهم في معجم خاصّ سمّاه "حاطب ليل وجارف سيل"، ومنهم الإمامان سراج الدين البُلقيني وابن حجر العسقلاني اللذان كان يعدّهما قدوته في العلم؛ بحيث ذكر أنه دعا الله، وهو يشرب من ماء زمزم لمّا حَجّ، أن يصل في الفقه درجةَ البلقيني، وفي الحديث درجة ابن حُجُر، ومنهم، أيضًا، تقي الدين الشمني، وهو أحد شيوخه في العربية، وأستاذُه محيي الدين الكافيجي الذي دامت مدة ملازمته له أربعَ عشْرة سنةً، وعاصر السيوطي، الذي عاش في آخر العهد المملوكيّ، كثيرًا من العلماء؛ من مثل السخاوي، وابن إياس، والقسطلاني، وعُرف عنه الارتحال لطلب العلم، وملاقاة الشيوخ، ومعرفة طبائع الناس وعوائدهم في البلدان الأخرى؛ إذ سافر إلى الشام والحجاز واليَمَن والهند والمغرب وبلاد التكرور، وقد أفاده ذلك كثيرًا فيما صنّفه، علمًا بأنه كان مؤرّخًا ذا تآليف عدة في هذا المجال على نحو ما سنذكر فيما بعْدُ.

وجلس السيوطي للإقراء والتدريس بعد نيْله الإجازة من عدد من شيوخه في العلوم الشرعية والأدبية، فقد أُجيزَ للتدريس وهو لمّا يتجاوزْ بعْدُ السابعة عشرة من عمره، في مطلع سنة ستٍّ وستين وثمان مئة؛ ممّا يدلّ على ذكائه ونباهته وسَعَة معرفته في تلك السنّ المبكرة، ولعلّ أبرز المؤسسات التي درّس فيها اثنتان؛ جامع ابن طولون المُشيَّد في القرن الهجري الثالث، والشيخونية بعد وفاة عثمان المقدسي، وكان يتولى تدريس جملة علوم نبغ فيها، وتضلّع منها، وفي مقدمتها الحديث النبوي الشّريف ومصطلحه وعلومه عامة، وقد ذكر هذه العلوم قائلاً: "رُزقْتُ التبحُّر في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو،

أن العالم غير مستطيع التمكنَ من علوم عدة! وإذا عُدْنا إلى تاريخ أمتنا العلمي مداولين التعرفَ إلى سِيَر علمائنا الأجلاء، فسنُلفي أنهم كانوا – في الغالب – لا يُقصِّرون اهتمامَهم على علم من العلوم، بل كانوا يخوضون في جملة ميادين معرفية، قلّ عددُها أو كثُر، ويؤلفون فيها كتبًا ورسائلَ. لذا، تجد الواحدَ منهم أديبًا، وفقيهًا، وفلكيًّا، وطبيبًا... وهذا ما يعبِّر عنه أصحابُ التراجم القدامى بلفظ "المُشارِك"

يَلْفِتُ انتباهنا، لدى الاطلاع على مَآثر التراث العِلمي الذي خلّفه أسلافنا، على امتداد الأعصر والأزمان، ظاهرة ترجمية تستحقّ منا الوقوف عندها، ودراستها دراسة تحليلية ومقارنة، وهي ترجمة العالم أو الأديب لنفسه؛ الأمر الذي يقوّيَ فرضية ظهور فن السيرة الذاتية (الأوتوبيوغرافيا) في تراثنا الأدبي، أو على الأقل انطوائه على إرهاصاته وبذوره. فقد عمد مجموعة من علمائنا، قديمًا، إلى كتابة سِيَرهم بأنفسهم

والمعاني، والبيان، والبديع، على طريقة العرب البُلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة". وفي آخر قوله هذا إشارةٌ واضحة إلى أنه تلقى تلك العلوم، ودرَّسها كذلك، بالطريقة التعليمية الأصيلة لا بالطريقة المتأثرة بالمنطق الأرسطي وبالمؤثرات الأجنبية بصفة عامة. وتأتي بعد هذه المعارف علومٌ أخرى، هي: أصول الفقه، وعلم الكلام، والصرف، والإنشاء والترسُّل، والقراءات، والطبّ، والتاريخ، والتصوف. وثمة عِلْمان ابتعد عنهما السيوطي لأسباب محددة، أحدُهما الحسابُ الذي كان يجد مشقة بالغة في استيعاب مسائله؛ إذ قال عنه: "فهو أعْسر شيء عليّ، وأبْعده عن ذهني. وإذا نظرتُ في مسألة تتعلق به، فكأنما أحاول جبَلاً أحْمله". والثاني هو علم المنطق، الذي نأى عنه لأنه رآهُ غير ذي نفع، وأنّ دراسته مُضِرّة؛ ولذلك – كما قال – "تركْتُه، فعوّضني الله تعالى غيرَه: علم الحديث، الذي هو أشْرف العلوم". على أنّ ترْكه المنطقَ ليس معناه أنه كان يجهله أو يشقّ عليه أمْر فهمه كما هو الحال بالنسبة إلى علم الحساب، بل الحقيقة عكس ذلك؛ ذلك بأنّ الرجل قد ألّف فيه "القول المشرق"، محرِّمًا الاشتغال به، ومعبِّرًا عن كرهه له، لاسيما بعد أنْ أفتى ابن الصلاح بتحريمه، وكذا كتاب "صون المنطق والكلام عن فنّ المنطق والكلام".

وبعد الحفظ، والأخذ عن شيوخ العلم، والجلوس للتعليم، شرَع السيوطي في التأليف انطلاقًا من سنة 866 هـ؛ حيث قال: "وقد ألّفتُ في هذه السنة، فكان أول شيء ألفته "شرح الاستعاذة والبسْملة"، وأوْقفتُ عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البُلقيني، فكتب عليه تقْريظًا". وتوالت، بعد ذلك، تآليفه، التي بلغت المئات، في شتى الميادين العلمية التي كانت معروفة إلى زمانه؛ وبذلك، "دخل التاريخ من أوْسَع أبوابه"؛ على حدّ عبارة أحد الدارسين المُحْدَثين.

ومارس الإفتاءَ، وهو مقامٌ جليل وخطير، في الوقت نفسه، لا يبلغه إلا الراسخون في العلم، المتفقّهون في أبوابه، وهو دون الثانية والعشرين من عمره؛ فأفتى في كثير من النوازل والقضايا، وكان حريصًا على تقييد فتاواه وإجاباته، التي جمع جملةً وافرة منها في كتابه "الحاوي للفتاوَى".

لقد أهّلتْ هذه المسيرة الحافلة بالعطاء العلمي صاحبَها لأنْ يكون مجتهدًا؛ كما قال هو نفسُه، وكان يرى أن باب الاجتهاد يظل مفتوحًا إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، وأنه واجبٌ وجوبًا كفائيًّا على الأمة في كل عصر ومصر، منتقدًا مَنْ يقف في وجه ذلك، قائلاً عنهم في أول رسالته الموسومة بـ"الردّ على مَنْ أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض": "وبعد، فإن الناس قد غلب عليهم الجهل وطَمَّهم، وأعْماهم حبّ العناد وأصَمَّهم، فاستعظموا دعوى الاجتهاد وعَدُّوه منكرًا بين العباد. ولم يشعر هؤلاء الجَهَلة أن الاجتهاد فرضٌ من فروض الكفايات في كل عصر، وواجبٌ على أهل كل زمان أن تقوم به طائفة من كل قطر". وذكر السيوطي أنه لم يبلغ مرتبة الاجتهاد إلا بعد أن تقدَّم به العُمْر، وأخذت ملامح الكِبر تبدو عليه، فقال في "حسن المحاضرة": "وقد كملتْ عندي الآن آلات الاجتهاد – بحمد الله تعالى – أقول ذلك تحدُّثًا بنعمة الله لا فخرًا، وأيّ شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر، وقد أزف الرحيلُ، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمر! ولو شئتُ أن أكتب في كل مسألة مصنفًا بأقوالها، وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها، ونقوصها، وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها، لقدرتُ على ذلك، من فضل الله، لا بحوْلي ولا بقوتي، فلا حولَ ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله". (339/1)

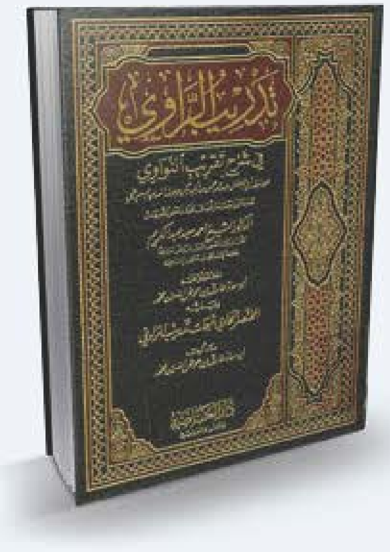
إن هذه المكانة العلمية الرفيعة التي بلغها السيوطي سبَّبت له، أحيانًا، مشكلات ومتاعب، وجرّت عليه انتقادات، وأوْجدت له خصومًا، أشدُّهم عليه – إطلاقًا – هو معاصرُه وبلديه السخاوي (ت 902هـ) الذي كان منافسًا قويًا له، وهو ذو شهرة في مجال التاريخ كما نعلم؛ إذ كان ينتقده، ويكيل له الاتهامات بالكذب والسرقة العلمية بالسطْو على جهود العلماء وعَزْوها إلى نفسه؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل بالَغ السخاوي – كما يذكر دارسون – في تهجُّمه على السيوطي؛ فرماه بالغباء لجهله الحسابَ، وبعُقوق أمّه التي ذكر أنها جاريةٌ تركية غيرُ عربية الأصل، وبالانتهازية والأنانية. ولم يقف السيوطي مكتوفَ اليدين حيَال هذه الاتهامات، بل رَدّ عليها، موجّهًا سيْلاً من الانتقادات للسخاوي؛ كما في "الكاوي في الرد على السخاوي". وممّا قاله عنه: "وخرَّج لنفسه ولغيره، مع كثرة لحْنه وعرْيه من كل علم؛ بحيث إنه لا يحْسن غير الفنّ الحديثيّ شيئًا أصلاً، ثم أكبَّ على التاريخ؛ فأفنى فيه عمره، وأغرق فيه عمله، وسلق فيه أعراض الناس، وملأه بمساوئ الخلق، وكل ما رموا به، إنْ صدقًا وإنْ كذبًا". فقد جرّد السيوطي السخاويَّ من كل علم، ما عدا فن الحديث، وأشار إلى أن ما كتبه في فن التاريخ كان عن غير هدى وتوفيق؛ لأنه حشاه بأمور أبعد عن الحقيقة والعِلْميّة. ولم يكن نقدُ السيوطي، أحيانًا، يخلو من قسوة وسخرية مُرَّة؛ كما في انتقاده لابن الكركي في مقامة أسْماها "طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة".

وقد تبيّن لعدد من العلماء، قديمًا وحديثًا، أنّ ما رُمي به السيوطي يفتقد إلى الموضوعية، وأنّ أكثره كذب وافتراء، وأن مردّه، بالأساس، إلى الحسد والحقد جرّاءَ المكانة السامقة التي بلغها الرجل في سلّم العلم، وإلى تعاصُرهما، و"المُعاصَرة حجاب" كما يُقال، تمنع أحيانًا المُتجايلين من الاعتراف ببعضهم بعضًا. لذا، تصدّوا للردّ عليها، والمنافحة عن السيوطي، وإحْلاله المنزلة التي يستحقها بكل موضوعية. فهذا الإمامُ الشوكاني، رحمه الله، يردّ تلك الاتهامات، في كتابه "البدر الطالع"، قائلاً: "وعلى كل حال، فهو غير مقبول عليه، لما عرفت من قول أئمة الجرح والتعديل بعدم قبول شهادة الأقران في بعضهم بعضًا، مع ظهور أدنى مناقشة، فكيف بمثْل المنافسة بين هذين الرجلين (يقصد السيوطي والسخاوي) التي أفضت إلى تأليف بعضهم في بعض، فإن أقلّ مِنْ هذا يُوجب عدم القبول". ويقول أحد باحثينا المعاصرين، وهو د. عبد العال سالم مَكْرَم، رادًّا تلك الاتهامات، مُبرزًا دوافعها: "القارئُ لهذه الاتهامات، سواء كانت شخصية أو علمية، لا يرى فيها إلا سُمومَ الحقد والكراهية والحسد والبغض. إنها لم تصدر في إطار الموضوعية والاتزان، ولكنها جاءت مشحونةً بالانفعال في الغضّ من قيمة الرجال، على أنّ هذه الاتهامات لم توجَّه إلى السيوطي بعد موته، ولكنها وُجّهت إليه في حياته..." (جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغوية، ص 151).

ولعل مثل هذه المعاملة التي لقيها من بعض معاصريه كانت من الأسباب التي دفعته إلى الانقطاع عن الناس، وإيثار العزلة وحياة الزهد والتأمُّل، والتوقف عن الفتوى والتعليم. وقد ألّف في ذلك كتابًا أسْماه "التنفيس في الاعتذار عن ترك الفتيا والتدريس". ولزم السيوطي هذه الحياة، معتزلاً في بيته، مُكبًّا على البحث والتمحيص والتأليف، طَوالَ العشرين سنة الأخيرة من عمره أو أكثر. يقول عنه نجم الدين الغزّي، في كتابه "الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة": "لما بلغ أربعين سنة من عمره، أخذ في التجرُّد للعبادة والانقطاع إلى الله، والاشتغال به صرْفًا، والإعراض عن الدنيا وأهلها، كأنه لم يعْرف أحدًا منهم، وشرع في تحرير مؤلفاته، وترْك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك... وأقام في "روضة المقياس"، فلم يتحوّل منها إلى أنْ مات، لم يفتح طاقات بيته التي على النيل من سكناه، وكان الأمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته، ويَعْرضون عليه الأموال النفيسة فيرُدُّها". وارتباطًا بحياته الزُّهْديّة هذه، فإن الرجل قد تولى – كما هو ثابت – مشيخة الصوفية بتربة برقوق سيف الدين أبي سعيد الملقب بـ"الملك الظاهر" الجرْكسيّ، ومشيخة البيبرسيّة بعد الجلال البكري. وقبل أن يُقْبِلَ السيوطي على التصوف واعتزال الناس، وقبل أن يتحلّل من جميع مسؤولياته الدنيوية، كان قد تولى مهمة القضاء على عهد السلطان المملوكي المتوكّل. وتوفي جلال الدين السيوطي "بعد أذان الفجر ليلةَ الجمعة 19 جمادى الأولى 911 هـ"، إثْر مرضه أسبوعًا بورم شديد على مستوى ذراعه اليسرى، وقُبرَ بحوش قوصون في زاوية عند باب القرافة، بالقاهرة، ووُضعت على قبره قبّة بارزة.

وخلّف السيوطي، رحمه الله، تراثًا علميًّا غنيًّا ومتنوعًا، يقدّر بالمئات من الآثار ما بين كتب ورسائل صغيرة الحجم. وقد سرد المؤلّف نفسُه عناوين كتبه في (حسن المحاضرة) (ذكر فيه أن له ثلاث مئة مؤلّف سوى ما غسله ورجع عنه)، وفي (التحدث بنعمة الله). وترجم





له تلميذه عبد القادر الشاذلي في كتاب عنونه بـ (بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين)، عدّد فيه أربعة وعشرين وخمس مئة (524) مؤلفًا له. ولمّا كانت كتبه متعددة ومختلفة، فقد عمد السيوطي إلى تصنيفها إلى سبعة أقسام، في كتابه (التحدث...)، الذي ذكر بين ثناياه أن له خمسين وثلاث مئة (350) كتابًا تامًا، علاوة على ثلاثة وثمانين (83) لم يُتمّها بَعْدُ، آنئذ، وتلك الأقسامُ كالآتي:

- قسم ادّعى فيه التفرّد، وأنّه لا نظير له.
- قسم ألّف ما يناظره.
- قسم صغير الحجم من كرّاسين إلى عشرة، وكتبُه تامّة.
- قسم وقع في كرّاس ونحوه.
- قسم ألف في واقعات الفتاوى من كراس وفوقه ودونه.
- قسم لا يعتدّ به؛ لأن اعتناءه فيه كان بالرواية المَحْضة.
- قسم كان قد شرع فيه، ولم يكتب منه إلا القليل.

وتميز في كتب السيوطي بين ثلاثة أصناف باعتبار النشر، فبعضُها مطبوع، سواء أكان محققًا أم غير محقق، وسواء أكان تحقيق المُحقّق منها علميًا رصينًا أم تجاريًا، وكثيرٌ منها ما يزال مخطوطًا حبيسَ رفوف الخزائن العامة أو الخاصة، في أماكن متفرقة من العالم، ينتظر مَنْ ينفُض عنه الغبار، ليُخرجه للناس ويُحْيِيَه، ومنها المفقودُ الذي نعرفه من خلال الإشارة إلى عناوينه في كتب الفهارس وغيرها، ولا بد من الإشارة، ها هنا، إلى اختلاف العلماء في تَعْداد مؤلفات السيوطي؛ إذ ذكر بعضهم أنها تقدَّر بخمس مئة كتاب أو يزيد، وذكر آخرون أنها ست مئة مؤلف، وعدّد منها أحدهم ما يقارب الألف، وأحصى آخرون منها أقلّ من ذلك عددًا، وتزدانُ المكتبة العربية بعملين مهمّين في فهرسة كتب السيوطي؛ أولهما لأحمد الشرقاوي إقبال، بعنوان (مكتبة الجلال السيوطي)، صدر بالرباط، عامَ 1977، وقد أحصى مؤلفات الرجل المطبوعة فقط، وعدَدُها 725، مبيّنًا ناشرها وطابعها، وتاريخ إصدارها، وظهر، بعد ستّ سنوات، كتابٌ آخرُ استدرك نقصَ كتاب أحمد إقبال، عنوانُه (دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وُجودها)، صدر بالكويت، ومؤلّفاه أحمد الخازندار ومحمد إبراهيم الشيباني، ومن الكتب التي تفيدنا في هذا الصدد، كذلك، كتابُ مصطفى الشكعة الموسوم بـ (جلال الدين السيوطي: مسيرته العلمية)، ويتضح من تصفح هذه الفهارس والمَسارد أن الرجل كان، بالفعل، كاتبًا مُكثرًا، نال نصيبًا أوفرَ من تآليفه ميدانُ الحديث، يليه الفقه وأصوله، والقرآن وعلومه، ثم اللغة والأدب، ثم التاريخ وغيره، وحَسْبُنا أن نشير، في الأسطر الآتية، إلى جملة من كتبه في هذه الحقول العلمية.

فمن مؤلفات السيوطي الكثيرة في فنّ الحديث ومصطلحه وعلومه نذكر: (كشف المغطّى في فضل الموطّا)، (اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة)، (اللمع في أسماء مَنْ وَضَع)، (المسلسلات الكبرى)، (التوشيح على الجامع الصحيح)، (الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج)، (مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود)، (تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي)، (نظم الدرر في علم الأثر)، (عين الإصابة في استدراك عائشة على الصحابة)، (منتهى الآمال في شرح حديث: (إنما الأعمال)، (مناهج الصفا في تخريج أحاديث الشفا)، (جامع المسانيد)، (الطب النبوي)، (كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة)، (الأربعون حديثًا في فضل الجهاد)،

ومن مؤلفاته في علوم القرآن وما يتصل به نجد: (الإتقان في علوم القرآن)، (تفسير الجلالين)، (الدر المنثور في التفسير المأثور)، (ترجمان القرآن)، (أسرار التنزيل)، (مفاتيح الغيب)، (حاشية على تفسير البيضاوي)، (لباب النقول في أسباب النزول)، (المهذّب فيما وقع في القرآن من المعرَّب)، (مفحمات الأقران في مبْهمات القرآن)، (الألفية في القراءات العشْر)،

ومن آثاره في الفقه وما يتعلق به هذه العناوين: (المصابيح في صلاة التراويح)، (الأشباه والنظائر الفقهية)، (الثبوت في ضبط ألفاظ القنوت)، (الجامع في الفرائض)، (الأزهار الفضّة في حواشي الروضة)، (بلغة المُحتاج في مناسك الحاجّ)، (فصل الكلام في حكم السلام)، (أدب الفتيا)، (الروض الأريض في طهر المَحيض)،

وممّا تركه السيوطي في ميدان اللغة والأدب عمومًا نشير إلى الكتب الآتية: (المزهر في علوم اللغة وأنواعها)، (همع الهوامع)، (الأشباه والنظائر في النحو)، (الاقتراح في أصول النحو)، (عقود الجمان في المعاني والبيان)، (شرْحُه)، (الفتح القريب على مغني اللبيب)، (الجمع والتفريق في أنواع البديع)، (شرح أبيات تلخيص المفتاح)، (البهجة المرضية في شرح الألفية)، (شرح القصيدة الكافية في التصريف)، (تعريف الأعجم بحروف المعجم)، (البرق الوامض في شرح يائية ابن الفارض)، (ديوان شعر) مفقود، (المقامات)، (كُنْه المراد من شرح بانَتْ سُعاد)،

وله في فنّ التاريخ والتراجم عدة تآليف، منها: (تاريخ الخلفاء)، (أخبار الجواري)، (الشماريخ في علم التاريخ)، (طبقات الحفاظ)، (طبقات المفسرين)، (تاريخ أسيوط)، (الأحاديث المنيفة في فضل السلطنة الشريفة وأنواع الخَبْرات المألوفة)، (الوسائل إلى معرفة الأوائل)، (تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء)، (رفع الباس عن بني العبّاس)، (تحفة العجلان في فضل عثمان)، (إلقام الحجر لمن زكّى سابَّ أبي بكر وعمر)، ويُضاف إلى كتبه في الحقول المعرفية المذكورة آنفاً أعمالٌ أخرى نَسَجها السيوطي في المنطق؛ كما رأينا في موضع سابق، والكلام والتصوف ونحوها، منْ مثل (المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة)، و(شرح الكوكب الوقّاد في الاعتقاد)...

ممّا تقدّم، يتضح لنا أن السيوطي كان من أهرام الثقافة العربية، ومن قمَمها الشامخة في النصف الثاني من القرن التاسع وأوائل القرن العاشر، وممّا يحقّ لها الفخر به، وأنه كان أنموذجًا للموسوعية في تراثنا الأدبي والفكري والعلمي بما خلّفه من مؤلفات غزيرة في مختلف الميادين، أغنَتْ المكتبة العربية إغناءً واضحًا، وأفادت أبناء الأمة، على مرّ العصور، وغيرهم كذلك، ولا أجدُ خيرًا من كلام د. مروان القنومي، في مقاله "الإمام السيوطي داعية الاجتهاد والتجديد"، لختْم مقالتي هذه: "والحقّ أن فضل السيوطي على العالم الإسلامي عظيم، فهو في مقدمة الذين أثْرَوا الثقافة العربية الإسلامية، ورفعوا من شأنها، وأحلّوها مكانًا عاليًا، ومنزلة ساحقة، فهو أحدُ الذين قاموا مواكبها بمَوْسُوعيته العلمية، فأثْرى المكتبة العربية بنفائس المؤلفات وذخائر المصنّفات، ممّا شهد لها المحققون، وأقرّوا لصاحبها بطُول الباع، وسَعة الاطلاع، ووَفرة المَحْصول".



أنور العطّار .. شاعر الجَمَال والطبيعة



بقلم: هاني أنور العطّار
الرياض

حياة الشاعر "أنور العطار" لم تكن طويلة قياسًا لما ترك لنا من إرث أدبي هائل. ولد الشاعر "أنور العطّار" عام 1913م بمدينة بعلبك من أبوين دمشقيين. وتوفي عن تسع وخمسين عامًا. في صباح يوم الأحد الموافق لـ 23 تموز/ يوليو عام 1972م في مستشفى المواساة. ودفن في مقبرة الدحداح بدمشق. أي أنه عاش فقط تسعًا وخمسين سنة فقط . وهو زمن قصير في عمر العبقرية ولا شك.

تلقى دراسته الابتدائية وأكملها في مدرسة البحصة في دمشق. ثم انتقل إلى "مكتب عنبر" لإكمال دراسته الثانوية. وبعد ذلك انتسب إلى دار المعلمين حيث نال شهادة أهلية التعليم الثانوي التي أهلته للعمل مديرًا لمدرسة "منين" الابتدائية في ريف دمشق.

أتمّ دراسته في دمشق وتخرج من كلية الآداب من قسم اللغة العربية في الجامعة السورية. وكانت شهادته هذه خامس شهادة تعطى من كلية الآداب بدمشق عام 1935م.

زاول التدريس في مدارس حلب و دمشق ثمّ انتدب لتدريس اللغة العربية في العراق لمدة خمس سنوات. وعاد الى دمشق حيث زاول التدريس والإدارة. ثمّ عمل مفتشًا أولاً لمادة اللغة العربية في سورية.

سافر إلى المملكة العربية السعودية حيث درّس الأدب العربي في كلية اللغة العربية في جامعة الرياض. ما بين الأعوام 1964.1965. 1966م.

أحبّ الشاعر أنور العطار جمال الطبيعة وغنّاها أعذب الشعر. واهتم في الفكرة والكلمة معًا. وهو يحتري الأسلوب. وقد أحبُّ اثنين من الأدباء المعاصرين له رأى في نثريهما صورًا حيّة من الشاعرية فنهج نهجيهما – وهما "معروف الأرناؤوط " صاحب جريدة "فتى العرب". وجريدة "سيد قريش". و" أحمد حسن الزيّات" صاحب مجلة "الرسالة" المصرية التي كانت المجلة الأدبية الذائعة الصيت. والواسعة الانتشار في العالم العربي في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي. كما أنه أحب وحفظ الكثير من شعر أمير الشعراء "أحمد شوقي". وتعقب نشر أشعاره في الصحف والمجلات حتى إنه أستطاع إحصاءها ومعرفة

ما تم يطبع منها آنذاك. وهيأ مخطوطًا لها للطباعة سماه "الشوقيات التي لم تنشرها الشوقيات".

تأثر بالأدب الفرنسي وأحب "لامارتين Lamartine Alphonse de" و"ألفرد دو موسيه de Musset-Pathay Louis Charles Alfred". وترجم نظمًا كثيرًا من أشعارهما.

مجّد البطولة العربية وأنشد لها قصائد رائعة بالحماسة منها: فلسطين، ثورة مصر، ثورة الجزائر، التاريخ العربي وغيرها كثير.

أصدر في عام 1948م ديوانه الشعري الأول، الذي أسماه "ظلال الأيام" وقد ضمّنه قصائد رائعة في الوصف والتأمل والمناجاة والبطولات.

وللشاعر "أنور العطّار" الكثير من الدواوين الشعرية والدراسات الأدبية المخطوطة، التي هي قيد التجهيز للطباعة بإذن الله منها: "البواكير" و"وادي الأحلام" و"الشاعر" و"الليل المسحور" و"ربيع بلا أحبة" و"منعطف النهر" و"مع قصائد الخالدين" و"ألف بيت وبيت" وديوان "ألف بيت و بيت" لم يكمله، وقد كانت فكرته مبنية على أساس قدرته في انتقاء أجمل بيت شعر من قصيدة ما من قصائد أحد فحول الشعراء المختارين من قبله، ومن بيت الشعر المنتقى هذا يدخل إلى شرح القصيدة ومعارضتها وذكر شاعرها وعصره إلى آخره.

وديوان "علمتني الحياة"، وهو من أواخر ما نظم الشاعر "أنور العطّار" من الدواوين الشعرية، وهو عبارة عن خلاصة تجربته في رحلة حياته، حيث ضمنه رؤيته وفهمه وفلسفته للكثير من الجوانب العقائدية والوطنية والأخلاقية والجمالية التي صاغها جميعها بحلة بهية من شاعريته المرهفة وإبداعه اللغوي العالي، وقد كتبها على شكل رباعيات كرباعيات "عمر الخيّام" المشهورة من الإرث الأدبي الفارسي، حيث تنتظم كل رباعية منها فكرة واحدة يبتدئها بالشطر الأول من كل رباعية بـ: علمتني الحياة أنّ حياتي ... ولو شاء القدر في أن تطول حياة الشاعر أنور أكثر من مشيئة الله له، لكان هذا الديوان أكثر تنوعًا، وكثافة، وإغناءً ... وأود أن أذكر للقارئ إحدى الرباعيات الشعرية التي تضمنها مخطوطة ديوان "علمتني الحياة"، والتي يصف الشاعر أنور فيها كبير عمق حبه لأرضه وافتتانه ببلاده وهي:

علمتني الحياة أنّ حياتي ملكُ
أرضي عزّتْ على الدهر أرضي
من ينابيعها تعلمتُ قرضي
من شحاريرها تلقيتُ شدوي
فجرتني هوى فبُعضي حُبٌّ
يا لحبٍ ما إن يلمُّ ببعض
هي نجواي إن جنحتُ لصحوٍ
و الخيالاتُ إن جنحتُ لغمض

ومن نثر أنور العطّار: كتاب "الوصف والتذويق عند البحتري" و"أسرة الغزل في العصر الأموي" وله دراسة كاملة لنثر أمير الشعراء أحمد شوقي ولكتابه "أسواق الذهب"، وكتاب "الشوقيات التي لم تنشرها الشوقيات".

ومن بواكير مسرحياته الشعرية المخطوطة: مسرحية آخر ملوك العرب في الأندلس "أبو عبد الله الصغير" سنة 1930م، ومسرحية "مصرع أبي فراس الحمداني" سنة 1961م، وقد تعرض للحديث عنهما الأستاذ "عدنان بن ذريل" في كتابه "الأدب المسرحي في سورية".

وله أيضًا دراسة عن الشاعر الباكستاني "محمد إقبال"، ودراسة عن شاعر الهند العظيم "طاغور".

ترجمت بعض قصائد الشاعر أنور العطّار إلى الإنكليزية في كتاب (الشعر العربي الحديث - أزهار الشعر) للمستشرق الإنكليزي وأستاذ الأدب العربي في جامعة كامبريدج "آرثر، ج. آربري Arthur J.Arberry"

وترجمت أشعاره أيضًا إلى الفرنسية في كتاب (مختارات من الأدب العربي المعاصر) لأستاذ العربية في جامعة السوربون في فرنسا المستشرق "إدوارد تاراباي Edouard Tarabay" و"لوك نورين Luc Norin".

وله من الكتب المدرسية: كتاب "الزاد" في الأدب العربي، وقد صحح و نقح لغويًا قصصًا مترجمة للعربية من المقررات المدرسية منها قصة "جودي والطفل".

وبالاشتراك مع الأستاذ "نسيب سعيد" ألفا كتاب "الخلاصة في الأدب والنصوص"، وهو تغطية أدبية ملخصة من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث مناسبة للتلامذة وهم على مقاعد الدرس.

وقد ضُمن اسم "أنور العطار" في الموسوعة التوثيقية للشخصيات العربية في مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض في المملكة العربية السعودية، تكريمًا لتلك الشخصيات التي عملت وشاركت في بدايات النهضة



صورة تجمع الشاعر أنور العطار (يمين) مع الشاعر ميخائيل نعيمة في ستينيات القرن الماضي بدمشق



صورة تجمع الشاعر أنور العطار (يمين) مع الشاعر القروي سليم رشيد الخوري في ستينيات القرن الماضي بدمشق

الثقافية والحضارية في المملكة.

ترك الشاعر أنور بعد وفاته في مكتبته الخاصة في داره في دمشق، المئات والمئات مما جمع وما أهدي إليه من أعلام الفكر والأدب المعاصرين له في حياته من كتب ومخطوطات ودواوين من عيون الأدب العربي والأدب العالمي وعلى الأخص الأدب الفرنسي، بالإضافة للكثير والكثير من الدراسات والمراجع الأدبية والتفاسير وكتب الفقه الديني، مع الكثير من الأوسمة وكتب التقدير لشعره وأدبه.

كتب وحاضر وترجم عن الشاعر أنور العطّار الكثير من الأدباء و الشعراء والباحثين والإعلاميين، وكانت سيرة وأدب أنور العطّار موضوعًا لأطروحات لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي في عديد من الدول العربية، كما كانت دومًا أشعاره في المقررات المدرسية في سورية، وبعضًا من الدول العربية الأخرى.

وديوان الرباعيات هذا ما هو إلا دوحة باسقة الأشجار، ريّانة الأغصان، ندية الأزهار، تمثلت في رباعيّات شعرية رائعة السبك عميقة المعنى، اختزل بها الشاعر المبدع أنور العطّار في أسلوبه الشيّق الأخاذ الذي كان فيها نسيج وحده أفكاره ومشاعره وفهمه و فلسفته للحياة، فخرجت توثيقاً لتجاربه في الحياة، وسجلاً لمخالطته الأحياء ... لذا صدر جميع هذه الرباعيات بقوله: "علمتني الحياة" أو "علمتني" ، فضلاً عن أن الديوان بحد ذاته يحمل هذا العنوان ومن ثمّ كان الشعر لدى الشاعر خير معبر عن تجاربه وخير ناقل لها وخير أمين على مكنوناتها : ظناً وحدسًا ، شكاية وأنسًا ، سرًا وعلنًا ، كل ذلك نراه مجسدًا في هذه الرباعية السيتية من رباعياته الشائقة يقول:

علمتني الحياة أنّ من الشـ...

عر لسـانًا يعي أحاديث نفسي

مفصح عن تجاربي ترجمان

صادق في أداء ظني و حدسي

إن تشكيت كان باب شكاتي

أو تسـليت كان مفتاح أنسي

ثم أحاول إخفاء نفسـي عنه

فهو سري الذي أصون و همسي

ولقد اختار الشاعر أنور العطّار لكلّ رباعية عنوانها وموضوعها المتفرد والمميّز فجاءت كلّ واحدة منها ماتعة القراءة، متشحة بجمال الكلمة ولتقانية العبارة، متضمنة عمق الحكمة ، و مغلفة بثراء المعرفة ...

وقدمها مغلفة بحلة بهية من صنعته الشعرية الحاذقة، وملكته الأدبية الأخاذة، فكشفت عن تملك الشاعر لناصية القريض و لملكته الشعرية المرهفة ...

ولنستمع له هنا في هذه الرباعية التي تعكس مقدار كبير حبه لأرضه ولتملكها لجميع مشاعره وعواطفه ومن كون ينابيعها وشحاريرها هم الذين من علموه الشدو والشعر ، وكيف أنها قلبت مشاعر البغض عنده إلى مشاعر الحب ، و كيف أنها هي التي يناجيها في نهاراته و يراها في لياليه و أحلامه يقول في رباعيته :

أرضي الطيبة

علمتني الحياة أنّ حياتي

ملك أرضي ،عزتْ على الدهر أرضي

من ينابيعها تلقيتُ شـدوي

من شـحاريرها تعلمتُ قرضي

فجرتني هوى فبُغضي حبٌ

يا لحُـبٌ ما إن يُدِمُ ببُـغـض

هي نجوايَ إن جنحتُ لصحوٍ

و الخيالاتُ إن جنحتُ لغمض

وعن الأيام يقول :

الأيام

علمتني لحياة أنّ مـن الأيـ

ـام مايُسعدُ النفوسَ ويرضي

ويصّبُ النعيمُ صَبًّا ، ومنها

ما يثيرُ الأسى ويُضني ويُضوي

كُلما مرتِ الليالي عجالاً

خلتُ أني أمرٌّ وحدي وأمضي

آذنتنا بينها مُتَعُ العيـ

ـش وهمّت أحلامُها بالتقضي

أما حنينه لدياره فتراه مجسدًا في هذه الرباعية التالية :

الحنين إلى الدار

علمتني أنّ الحنينَ الـدّا

ر غرامٌ مُأجَجٌ في ضُلوعي

إنْ طافَ بالفكرِ بنبث الفكـ

ـرَ فيا دارُ أنتِ سِرٌ وَلوعي

إنها الأهلُ والأحبةُ والصحـ

ـبُ ومَسـرى تلفتّي و نزوحي

هاجتِ النفسُ فاستفاضت أنينًا

وتراءت في واكفاتِ الدموعِ

وفي المحبة شـفاء عند الشـاعر أنور فهي طبٌه و طبيبه يقول :

المَحَبةُ شِفَاءٌ

علمتني أنّ المَحبّة طبٌ

وسـبيلٌ إلى الشـفاءِ ودربُ

يتداوى بها الأُولى نشُدوا البُرْ

ءَ و أشقاهم من العيش كربُ

نُبلُ الحبِ ظاهرًا وخفيًا

أنْ يموتَ المُحِبُّ فيمنْ يُحبُ

يا لنفسٍ ترعى على النفسِ نفسًا

يا لقلبٍ بحبيبه في البُعدِ قلبُ



صورة للشاعر أنور العطار (يمين) يصافح الشاعر إلياس فرحات، ويظهر في يمين الصورة أمير الكويت الشيخ مبارك الصباح في ستينيات القرن الماضي بدمشق

زَهْرُ الْخَرِيفْ

مصطفى أحمد أخرس

ادلب – سوريا

أَوَّاهُ مِنْ زَهْرِ الْخَرِيفِ !
أَنَّى لِقَلْبٍ مُذْنِبٍ
يَنْسَى
بِأَنَّ الْخَافِقَ الْوَلْهَانَ
ذَاقَ الْمُرَّ مِنْ حَرِّ الْمَصِيفِ

وَ بِأَنَّ تِلْكَ الْمُهْجَةَ الْوَلْهَى
بَكَتْ أَلَمًا
وَ قَدْ أَوْدَى بِهَا
سِحْرُ الْعُيُونِ الذَّابِلَاتِ
بِمُقْلَةِ الظَّبْيِ الظَّرِيفِ

وَ بِأَنَّ آهَاتِ الْفُؤَادِ
يَؤُزُّهَا
هَمَسَاتُ ذَاكَ الْوَجْدِ
مِنْ رَعْشِ اللَّمَى
يَا لَلُّمَى
مِنْ ثَغْرِ ذَيَّاكَ اللَّطِيفِ
هَمْسٌ يَهُبُّ عَلَى الضَّعِيفِ
سِحْرٌ وَ مَنْفَثُهُ وَجِيفُ
وَ الْقَلْبُ يَنْفُثُ أَنَّةً
كَتَنَفُّسِ الْوَاهِي النَّحِيفِ
وَ رُؤًى تَطُوفُ
يَحُفُّهَا تَحْنَانُهَا
يَا لَلْحَفِيفِ

هِيَ مَا أُعَانِي
مَبْعَثُ الآهَاتِ
مِنْ حُبِّيَ الأَلِيفِ
بَلِ الْعَفِيفِ
بَلِ الشَّرِيفِ

يَا لَوْعَةَ الْكَبِدِ الْمُلَوَّعِ
وَ الْهَوَى حُرٌّ نَظِيفُ
يَا لَوْعَتِي
وَ الْحُبُّ لِلْمُشْتَاقِ
مَنْزِلَةُ الرَّغِيفِ
يَا لَوْعَتَاهُ
وَ إِنَّنِي
فِي كَوْكَبِ الشَّرْعِ الْحَنِيفِ

يَا لَوْعَتِي
لَوْ رَفَّ هُدْبُ اللَّحْظِ
يَطْلُبُ نَسْمَةً
فَلَعَلَّهَا
نَجْوَى رَفِيفٍ
أَوْ أَنْ أَظَلَّ عَلَى الرَّصِيفِ
مُنَاجِيًا
أَمَلَ الرِّضَا
فِي عَتْمَةِ الدَّرْبِ الْمُجَلَّلِ بِالضَّنَى
بَيْنَ الْهَوَى وَ النَّفْسِ وَ الشَّيْطَانِ
فِي قَاعِ الدُّنَى
أَمَلٌ طَرِيفٌ
زَهْرُ الْخَرِيفِ



جاك ديريدا: إرثه بعد عشر سنوات من وفاته!*

بقلم: جون بيرنبوم



ترجمة: د.سعيد بوخليط

مراكش - المغرب

قبل عشر سنوات، رحل عنا فيلسوف "التفكيك"، سنحاول، من خلال هذه المقالة، البحث في الإرث الذهني، لمفكر برتاب من الورثة.
جاك ديريدا، مسكون أكثر بهاجس البقاء، من الموت. قلقه ذاك هيمن عليه كليًّا، سواء في تجربته اليومية، وكذا نصوصه الفلسفية. يقول بهذا الخصوص: «مختلف المفاهيم التي ساعدتني على الاشتغال، لاسيما مفهومي الأثر والطيف، كانا مرتبطين، بـ"البقاء الأصلي"، بوصفه بعدًا بنيويًّا».

قبل عشر سنوات، رحل عنا فيلسوف "التفكيك"، سنحاول، من خلال هذه المقالة، البحث في الإرث الذهني، لمفكر برتاب من الورثة.

جاك ديريدا، مسكون أكثر بهاجس البقاء، من الموت. قلقه ذاك.هيمن عليه كليًّا، سواء في تجربته اليومية، وكذا نصوصه الفلسفية. يقول بهذا الخصوص: «مختلف المفاهيم التي ساعدتني على الاشتغال.لاسيما مفهومي الأثر والطيف، كانا مرتبطين، بـ"البقاء الأصلي"، بوصفه بعدًا بنيويًّا».

سنة 2004، حين اكتشف إصابته بداء السرطان، ستنشر له جريدة "لوموند"، حوارًا أخيرًا لمنظر التفكيك الشهير، بحيث منحه طابع وصية. ديريدا الذي كان يبلغ 74عامًا، أدرك جيدًا أن بقاءه أضحى مسألة وقت، فبدا أكثر انشغالاً، بإرثه الفكري: «أترك هنا، قطعة ورق، ثم أذهب كي أموت: يستحيل الخروج من هذه البنية، إنها الصيغة الثابتة لحياتي. خلال كل مرة، أسمح معها برحيل شيء ما، فإني أحيا موتي داخل الكتابة. اختبار في حده الأقصى: إننا ننزع الملكية، دون أن نعلم إلى من انتهى الشيء الذي تركناه. من سيرثه؟ كيف سيتحقق ذلك؟ بل، هل سيكون له ورثة؟».

عشر سنوات مرت على رحيل جاك ديريدا، وبالضبط يوم 9 أكتوبر 2004، حدث، بطرح ثانية التساؤل بكيفية عاجلة، ومن ثم فهو الذي نسف لبنة وراء لبنة، يقينيات الفلسفة، ثم ألهم بكتاباته المحللين النفسانيين والقانونيين والمهندسين والسينمائيين- نستحضر فقط فيلم "DeconstructingHarry" لصاحبه وودي ألن-هو اليهودي الجزائري الصغير المجسد للفكر في عيون العالم قاطبة. ديريدا، المثير الذي حظي داخل أمريكا بوضع لا يعيشه أصلاً سوى نجوم السينما، هو الذي خصصت له جريدة "لوموند"، ملفًّا خاصًّا تضمن عشرات الصفحات، لحظة موته، مما شكل واقعة استثنائية. ديريدا، الذي يبدو حاليًا، أنه اهتدى ثانية، إلى وضع التطهير.

بالنسبة لأغلب الفلاسفة الذين استفسرناهم، لم يعد ديريدا يستشهد به، بذات الزخم، كما كان على قيد الحياة، أيضًا، هو أقل مقروئية، قياسًا لوجوه أخرى يرتبط بها اسمه بكيفية قوية، ولنبدأ بـ "دولوز" و"فوكو": «حينما تشغل مكانة مهمة جدًّا كما الحال مع جاك، فبالضرورة ستعيش انحدارًا بعد ذلك، الوضع ذاته، عاينته لدى سارتر، حينما كنت طالبًا»، يتذكر "جون لوك نانسي" أحد أقرب أقربائه، ثم يضيف، "ماتيو – بوت- بونيفيل"، البالغ من العمر 35 سنة، لحظة وفاة الفيلسوف: «بعد هذا المفعول للتطهير، كلاسيكيًّا، حين وفاة فوكو أيضًا، انتظرنا عشر سنوات، كي نتمكن من إعادة الاستشهاد به، لأن مختلف القضايا التي ألهمها، تم التخفيف منها بعدم مناقشتها، لكن ديريدا، أحدث بعضًا نادرًا من نوعه، لاسيما في فرنسا، فلم يظفر قط بمنصب

جامعي. زيادة على ذلك،الكوليج الدولي للفلسفة الذي أسسه ديريدا سنة 1983، كي يسائل هوامش المؤسسة الفلسفية، بجعلها منفتحة على التدريس الثانوي وكذا الأجنبي ، ثم الحقول غير الفلسفية. من ثم، الكوليج الذي جسد كل شيء، غير كونه مدرسة مكرسة لفكر ديريدا، يمثل اليوم موضوع تهديدات جسيمة من لدن وزارة البحث».

إضافة، إلى هذا الجانب، الناتج على ردة فعل، تقوم مبررات ثانية، تفسر التراجع النسبي لديريدا، من المشهد الفلسفي الفرنسي والدولي. لنبدأ، بصلته الخاصة بسؤال التركة، فإن ترث تعني بالضرورة، المحافظة لكنه كذلك خيانة، يستطرد صاحب "الوفاء الخائن"، محذرًا باستمرار تلاميذته، من أفخاخ النقل، وكذا الاقتراض :«ديريدا قارئ كبير للأدب وكذا فرويد ولا كان، هكذا منح إمكانية إعادة قراءة جميع نصوص الفكر، خارج رطانة المدارس»، تشرح "إليزابيت رودينيسكو، مؤرخة التحليل النفسي.

لهذا السبب لا يمكن أن يوجد، شيء ما بمثابة "ديريديين"، اللهم إذا أخذنا في الحسبان من يكتفون بترتيل لغة الأستاذ. ذاك، النثر العجيب، الذي ستتفاعل معه هامسًا كأنك تخرج الصوت من بطنك، منذ الدقائق الأولى لمصادفته: «أعشق كثيرًا المحاكاة الساخرة، لذلك أخبرت ذات يوم جاك، بأني أتطلع فعلاً إلى كتابة عمل يحاكي سخرية الفلاسفة، تؤكد شهادة جون "لوك نانسي"، فأجابني على الفور :"ليس أنا، إذن؟"،كما لو يشعر، كونه أحد أكثرهم سخرية».

للأسف تلك الكتابة الجذابة، بصيغها المعروفة بسهولة مع تعابيره الرمزية، توشك أن تختزل عمله بعد رحيله، إلى مجرد اجترار كلامي، وكذا تلامذته إلى ثرثارين. يقول "بيتر زيندي"، الذي سبق له الالتقاء بديريدا سنة 1995، لحظة إنهائه لأطروحته: «تتصف وضعية ديريدا داخل فرنسا، بكونها إشكالية.يستحسن تجاهله باحترام، لكن الأسوأ هو أن نمارس حياله تقليدًا إيمائيًا خالصًا، ففكر ديريدا هو فكر الواقعة، التي تأنف من تحمل التكرار، من ثم تمثل أيضًا انتقاداته، أفضل من يرثه».

ضمن هؤلاء، "كاترين مالابو"، التي كانت قريبة من ديريدا، قبل أخذها مسافة منه. بالنسبة إليها، فزيادة على الضغينة التي شكل الفيلسوف موضوعًا لها، أو كذا علاقته بالإرث، سيمثل منذئذ، مفهوم "التفكيك" نفسه شاشة لإشعاعه، تقول: «التفكيك، هو أن تسائل، كل ما يطرح نفسه باعتباره بداهة. لكن، مناحيه ينبغي أن تتغير. عند ديريدا، انصب كل شيء حول الكتابة والنص والكتاب.... اليوم، يتأتى الانقلاب من جهة أخرى، من قابلية التشكل، بمعنى هو أثر، غير مقيد، لكنه شكل متحرك كما في الدماغ أو نظارات غوغل. إذا لم يستحوذ التفكيك على كل هذا، سيغدو فكرًا بدون مستقبل».

السير على هدى ديريدا، من أجل تعبيد طريقه الخاصة، وخلخلة معجمه كي نستحضر اللغة ثانية معه، سيكون ذلك ربما أفضل وسيلة لاستعادته في نهاية المطاف:«بعد ديريدا، مرجعية لا مناص منها،غير أن الأفراد لايدركون كثيرًا عن ماذا يتكلمون، حينما يستشهدون به- يشير جاكوب روغوزنسكي- في كتاب صادر عن ديريدا بمناسبة حلول هذه الذكرى العاشرة-عندما يستكشف رولان بارت، ملاحظات تلامذته حوله، فقد أثاره رؤية رأسه وقد أضحى صغيرًا، مثل الرأس المقطوع عند قبائل هنود جيفاروس jivaros، هذا يلائم بشكل خاص ديريدا،لأننا ما إن نختصر فكره حتى نعمل على تحويره،فلا توجد لديه كلمة سيدة، التي بوسعنا أن ننقلها بسهولة.وضع يجعله مكروها، من لدن المؤسسات وكذا حراس التفسير».

ليس هناك كلمة سيدة، لكن كتابة مرهفة، ترفض أن تجزم، تتحسس باستمرار وتبدي تصدعاتها وشكوكها. سنجد لديه، بدل حيز مكان خط سوي، مسلكًا متحمسًا لكنه متعرجًا، ترصعه منعطفات متوقدة، وكذا مماطلات خصبة. هكذا يطرح، الفعل النقدي عند ديريدا، سؤالاً حول سؤال، منتهيًا بشكل عام، بطرح السؤال حول السؤال ذاته. مجازفًا، بالانتقال إلى متشكك، والظهور بصورة مفصول، عن سياق مدة تاريخية عاشت تحت ضغط تلهفها لليقينيات.

يقول باتريس مانجلي، المنتمي إلى طليعة الفلسفة الفرنسية: «بقدر ما هناك خط مستقيم، متخلص من العقد، توجد اليوم ميتافيزيقا جديدة متحررة من العقد، ترفض مركزة النقد، ومتوخية إعادة الارتباط، بأشكال للإثبات، نحيل مثلاً على برونو لاتور أو آلان باديو .لذلك، جسد ديريدا بشكل من الأشكال، وجهًا مميزًا بالنسبة لشباب يتطلعون كي يقولوا الحقيقة وفق صيغة الراديكالية السياسية .لقد علمنا ديريدا أن نتأمل، ونتمهل، فأوجد للشاب المرتاب بل والمعقد كذلك، أفقًا فلسفيًا، كان رائعًا جدًا. لكن اليوم، يرغب كثير من الشباب، في الفعل».

بالتأكيد، لعمل ديريدا قوة سياسية أصيلة، لأنه يلغم كل الانتماءات ويتوخى شروط عدالة مستقبلية، مثلما يشهد على ذلك، حضور الفيلسوف إلى جانب نضالات المهاجرين الذين لا يملكون أوراق الإقامة، أو رحيله إلى

«أترك هنا، قطعة ورق، ثم أذهب كي أموت: يستحيل الخروج من هذه البنية، إنها الصيغة الثابتة لحياتي. خلال كل مرة، أسمح معها برحيل شيء ما، فإني أحيا موتي داخل الكتابة. اختبار في حده الأقصى: إننا ننزع الملكية، دون أن نعلم إلى من انتهى الشيء الذي تركناه، من سيرثه؟ كيف سيتحقق ذلك؟ بل، هل سيكون له ورثة؟».

بالنسبة لأغلب الفلاسفة الذين استفسرناهم، لم يعد ديريدا يستشهد به، بذات الزخم، كما كان على قيد الحياة. أيضًا، هو أقل مقروئية، قياسًا لوجوه أخرى يرتبط بها اسمه بكيفية فورية

بعد ديريدا، مرجعية لا مناص منها،غير أن الأفراد لايدركون كثيرا عن ماذا يتكلمون، حينما يستشهدون به

زنزانة نيلسون مانديلا. مع هذا، وقياسًا إلى فوكو ودولوز بل وسارتر، تبدو نصوص ديريدا، أقل تحريضًا على النحو المباشر:«لقد كتب ديريدا وسط عالم، يقف حيال يقينيات كبرى، سواء ماركسية أو كاثوليكية. في عالم ساخر، مثل عالمنا، يبدو أقل جدوى. إن ديريدا، مثل فاضح لأوهام السحر، يحتاج إلى اعتقاد الحشد، حتى يكون لتفسيره صدى. حاليًا، الحشود ليس لها الوقت، كي تعتقد بسحر ما» يلاحظ، "تيموتي سوكري"، وهو أستاذ شاب بجامعة مانشستير .لكن بشكل مفارق، فهذا المحو لديريدا النجم، والوسيم والجذاب والمعشوق، مكنه كي يصير في النهاية كلاسيكيًا، ضمن صمت المختبرات والمكتبات.

مؤخرًا، نظمت في صالة مسرح المدرسة العليا بباريس، شارع أولم Ulm، المتواجدة في الطابق السفلي، ندوة كبرى، تمحورت حول ديريدا. غمرت قاعة العرض، إضاءة خفيفة، مسرح بالنسبة لهذا الكاتب المسرحي، وشبه عتمة لصاحب تنظيرات ما هو خفي: هذا المرة، كان ديريدا متواجدًا بين أفراد أهله، بوصفه أحد تلامذة تلك المدرسة، التي انقطع عنها منذ مدة طويلة:«في شارع أولم، هناك فريق يسمى: "اقرأ ديريدا واشتغل عليه"، حيث يتلاقى باحثون في مرحلة الدكتوراه من مختلف بقاع العالم» تشير شهادة ل'مارك كريبون'، المشرف على قسم الفلسفة، في المدرسة العليا للأساتذة.

رغم أن ديريدا، لازال بعد يثير كثيرًا من العدوانية، فقد ولج قائمة كوكبة الكلاسيكيين، ونقرأه آنيا مثل سارتر أو ميرلوبونتي. لقد ناقشت أطروحتان في السوربون، تمحورت حوله، حدث لم يكن واردًا قبل عشر سنوات! هذه القراءات الثاقبة، التي تتلخص من المحاكاة، تهم ليس فقط نصوصه الإتيقية المتعلقة بالوعد والمسؤولية والصفح والعدالة أو الإعدام، لكن كذلك ما نعته "جون لوك نانسي" بـ"أسس التفكيك"، مثلاً كتاباته حول هوسرل والفينومينولوجيا، ثم ما أسميه بـ"نخبوية التناول' كتب ديريدا، باستفاضة عن أنطوان أرتو، وجان جينيه، وبول سيلان، وولتر بنيامين، وكارل شميت...، فما إن يتجه اهتمامك نحو واحد من هؤلاء، حتى تعثر على ديريدا مع كل لحظة وأخرى.

أرتو وجينيت وسيلان...، كثيرة هي الأسماء التي تذكر بمصاحبة ديريدا للشعراء والكتاب، ورفضه المعلن دائمًا بخصوص الفصل بين الأدب والفلسفة، مهما كلفه ثمنًا غاليًا،لأنه في الوقت الحالي أيضًا، يسخر منه مغتابيه الأكثر غيرة، بدءًا بكبار ممثلي الفلسفة التحليلية، مادام ديريدا يظل ببساطة في نظرهم، مجرد مدرس للبلاغة. لكن، ذلك، مكنه أيضًا من التوطد داخل مؤسسات أكاديمية، رفضت استضافته.

أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، فلم يمارس فقط تأثيرًا جليًا على أقسام الأدب المقارن، بل ساهم في أن يشكل هناك نماذج للتدريس، بحيث مثلت نصوصه غالبًا، مرجعية، كما يقر بالحقيقة "دينيس هوليير"، أستاذ بجامعة نيويورك:«لقد غير ديريدا مجرى الحياة داخل هذا الفضاء الرهباني، كما الحال مع وضع الجامعات الأمريكية. بالنسبة إليه، لا يتأتى الارتباط فقط من الموسوعية، حتى ولو عجز عن التفكه بآلاف النكت، التي كان يدلي بها خلال كل واحدة، من زياراته، إلى الحرم الجامعي. حتما توجد جماعات الرفض، لاسيما في الدراسات الأدبية التقليدية، التي تستكين إلى الموسوعية دون مجازفة مفهومية .كذلك، احتاج الطلبة أكثر، إلى إرساء مع ديريدا، حول أسئلة راهنة مرتبطة بالنسوية، ثم ما بعد الكولونيالية، غير أنه صار كلاسيكيًا. في المداخلة التي خصصتها للسيرة الذاتية،فمختلف الأسئلة التي طرحها الطلبة، انصبت عليه، والكثير منهم قرؤوا مرارًا مقاطع عن روسو، وردت في كتابه عن الغراماتولوجيا».

ديريدا، الأقل شهرة فيما وراء المحيط الأطلسي، قياسًا بمكانته في الماضي، ثم الأقل إثارة من الناحية السياسية كما الحال مع فوكو أو دولوز، مع ذلك فهو يستفيد من هالة جديدة، تتعلق بالكاتب الموروث، والدليل على ذلك، المشروع الهائل للمطبوعات الجامعية بشيكاغو، التي قررت ترجمة مجموع محاضراته إلى الانجليزية، تقول المؤرخة جيزيل سابيرو:«هو مشروع بدون نظير، أتى على إصدار دراسة مثيرة للاهتمام حول ترجمة العلوم الإنسانية. فريق، يضم مختلف المختصين، سيجتمع كل سنة كي يناقش الترجمة .سعي مدهش، حينما نعلم انحسار الترجمات من اللغة الفرنسية، وضعف الوسائل. فضلا عن ذلك، فمابين 2002 و2012،لاحظنا بأن دور النشر الفرنسية الأولى، الأكثر ترجمة داخل الولايات المتحدة الأمريكية، هي دار النشر العريقة "le seuil"، أما الثانية فهي دار نشر صغيرة تسمى "غاليلي"، المكلفة بنشر أعمال ديريدا !».

مثل باقي المفكرين، الذين نصنفهم تحت تسمية "النظرية الفرنسية French theory"، (دولوز، فوكو، بودريار، ليوتار)، سيعود ديريدا فيلسوف التعرج إلى منزل الأهل، بعد تجوال طويل، في أمريكا:«تقريبًا مثل هيدغر، العائد إلى ألمانيا عن طريق فرنسا، سيرجع ديريدا إلى فرنسا عبر أمريكا»، تشير ضاحكة الفيلسوفة باربارة كاسان.

كذلك، انتقل ديريدا كثيرًا بين تركيا والبرازيل والهند واليابان، بلدان عديدة، تضم كثيرًا من تلامذته، المدركين لوجوده أم لا :«كما تكلم ديريدا أحيانًا عن مناصرين سريين للماركسية، فكذلك يوجد اليوم مناصرين سريين لديريدا، بحيث يوظفون هذا المفهوم أو ذاك، دون إدراكهم، بأنها تنتسب إليه» يلاحظ كازاوا ماسودا، أستاذ في جامعة طوكيو.

سافر ديريدا كثيرًا، وعاد مختلفًا وبنجومية أقل، وبشخصية تراجع زخم قوتها، قياسًا للسابق. الفلاسفة الشباب، الذين استحوذوا على نصوصه، لم يعرفوه في الغالب، من ثم يشعرون بحرية أكثر نحوه:«ديريدا المتعب، والصامت، والمكتئب على الدوام، هو ديريدا الصفح والعدالة. نتشوق إلى ديريدا المنتعل لأحذية سوقاء، مع إثارة ، ديريدا الروك أندرول. على النقيض من الفلسفة الواقعية الجديدة الحالية، التي تفكر في إمكانية صنع التساوي، بين الواقع والتأمل، سيعلمنا ديريدا أن التفكير مجازفة، بحيث لا ندري قط أين المنتهى بين الفكر والواقع. مثلاً الاشتغال ثانية، مع ديريدا عن مفهوم الحيوان، يعني الشروع، بالعيش وسط عالم، لا يمكننا في إطاره أبدًا، تمثل اللحم بذات الطريقة. ليس هناك لحم، بل، جسد مغتال»،الحديث لباتريس مانيغليي.

مسار ديريدا، بوصفه وفاء غير وفي، المؤمن بأن أفضل طريقة لاحترام إرث، تكمن في العمل على إفرازه كي ننقده، ثم تحويله حتى نجعله ينطلق ثانية بشكل أفضل:«ليس أن نختاره (لأن ما يميز الإرث، أننا لا نختاره أبدًا، بل هو الذي يختارنا ويصطفينا بحدة)، بل اختياره، كي نبقيه حيًا... . ينبغي التفكير في الحياة، انطلاقًا من الإرث، وليس العكس»، يؤكد الفيلسوف في حواره مع إليزابيث رودينسكو.

وراثة جاك ديريدا، بعد عشر سنوات من وفاته، يعني أن ننصفه. الجواب سيكون، بإخراجه من المطهر وعرضه أمام كل كل الرياح. أولاً، تبيان أن التفكيك، الكلمة التي أعلن ديريدا بنفسه منذ زمان عن استهلاكها، وبعيدًا عن كونها مسارًا سالبًا وعدميًا، تمثل بالأحرى فعلاً للإثبات وفلسفة للحياة. يؤكد صديقه جون لوك نانسي، قائلاً:«الوجه الأكثر اختفاء لجاك، هو ما يصنع راهنيته، إنه تأكيد حقيقي. فيما وراء سلبية ظاهرة، يقول ديريدا الآن، نعم، إنه حاضر، مثل الذي ينفلت، لكن له بالضبط مكانًا، من خلال انفلاتاته. إنه حضور شخص، والالتقاء والمجيء».

نعم، يعود ديريدا، لقد انبعث ثانية منذ مدة، لكن وداعًا للمطهر، ثم مرحبًا بالتحويل.

هامش:

×للاطلاع على النص الأصلي يمكن الرجوع إلى :

Cahier du monde ; numéro 21695 ;octobre ;2014

قصة قصيرة

تقسيم الخدود

رشاد نوري كونتكين [1]



ترجمة : عبد الستار الحاج حامد

تركيا - جامعة إسطنبول

السيد خالد (تاجر غني في الخامسة والأربعين من العمر مخاطبًا ابنه الصغير الجالس في زاوية الغرفة بلون أحذية ألعابه بالحبر): تعال إلى جانبي يا جودت انظر ماذا سأعطيك ؟

جودت (طفل في الخامسة من عمره ذكي ومشاغب ذو شعر أشقر مجعد): ماذا ستعطيني؟

السيد خالد : مخفياً قطعة الشُوكُولاتَة في يده لترى تصيبك ماذا سيكون. لكن ليس بالمجان يجب أن تعطيني قبلة

جودت: حسنا . قبّل (يقفز جودت إلى حضن والده ويمد خده لوالده ليقبله).

فرهونده خانم (زوجة السيد خالد في العقد الثالث من العمر ترمي الملابس التي كانت تخيطها بهدوء): يا بك نبهتك ألف مرة لا تقبل هذا الولد

السيد خالد : (ضاحكًا) لا تُخافي لن ينفد سيبقى لك منه أيضًا

فرهونده خانم: يا بك أرجوك أترك التصرفات غير المناسبة

السيد خالد: أنت تتصرفين بشكل غير مناسب ماذا يحدث لك إن قبلت الولد

فرهونده خانم: ماذا يحدث لي ؟! أولاً تجعله مشاغبًا . ثم إنك تجعل خدوده ذابلة.. ستصدر منها رائحة السجائر . وبعد ذلك لن أستطيع تقبيله براحتي.. خدود جودت مثل الجيفة تفوح منها راحة السجائر .

السيد خالد : الآن فهمت الحكمة من ذلك. تقولين ستصدر منها رائحة السجائر وبعد ذلك لن أستطيع تقبيله براحتي. هل أعطيك جوابًا قطعيًّا ؟ أصبحت أبًا في الأربعين من عمري وأريد أن أشبع من حب ولدي..

فرهونده خانم: أنت تريد أن تحب ولدك. وأنا أيضًا لا أقبل خدًّا تصدر منه رائحة السجائر

السيد خالد : في هذه الحالة هناك حل... لنُقسّم خديّ الطفل... الخد الأيمن لي والأيسر لك

فرهونده خانم: حسنًا. أقبل. لكن ستَعِدُني بأنك لن تتجاوز على حقيّ... ولدي جودت. هذا الخد من الآن فصاعدًا لي لا تدع أحداً يقبله. اتفقنا؟

السيد خالد : هذا الخد لي أيضًا . إذا سمعت أن أحدًا قبله فالويل لك. فلن يكون هناك لا سكر ولا شُوكُولاتَة

فرهونده خانم: لترى هل فهمت ياجودت أيهما خديّ ؟

جودت: (مشيرًا بإصبعه إلى خده الأيسر) هذا هو

السيد خالد : وخديّ

جودت: (مشيرًا بإصبعه إلى خده الأيمن) لقد تعلمت (يعود إلى ألعابه مُرددًا وحافظًا) هذا الخد خد أبي، وهذا الخد خد أميّ... هذا لأبيّ. هذا لأميّ. هذا لأبي..

2

(في المطبخ بعد طعام العشاء)

جودت: حبيبي كبير الطباخين... روحي كبير الطباخين... عيني كبير الطباخين .. أعطني من حلوى التمر هذه أيضًا. لم تطعمني منه أميّ كي لا أمرض.

كبير الطباخين: (رجل في الخمسين من عمره من بولو) أعطيك لكن أنت أيضًا أعطني قبلة

جودت: لا يجوز. تغضب أميّ

كبير الطباخين: وكيف ستعرف أمك؟

جودت: أبي لن يحضر لي شُوكُولاتَة.

كبير الطباخين: (يُمسك بالطفل ضاحكًا) أو تظنُّ أنك أني لن آخذ قبلة بالقوة إن لم تعطني. (يقبل جودت من خده الأيسر جاعلاً اااه يصرخ)

3

(حجرة السيد خالد مليئة بالضيوف... جيرانه الكهول. الضباط. المدرسون... عندما كان إمام الحي يروي إشاعة تتعلق بالحي مهولاً أمرها يدخل جودت الغرفة باكيًا)

السيد خالد : ماذا حدث ياجودت

جودت: ....

إمام الحي: ما مشكلتك يا صغيري.

جودت: (باكيًا) أبي. قل لكبير الطباخين هذا شيئًا. قبل قليل قبّل خدّ أمي في المطبخ..

1 - روائي وقاص تركي (1889 - 1956) من كتابه ضيف الرحمن (حكايات قصيرة) دار الانقلاب للنشر الطبعة الحادية عشرة. إسطنبول 1991



الفايكنغ والإسلام:

تاريخ منسيّ يوثقه معجم الفردوس (2)



البروفيسور: مهند الفلوجي

أستاذ الجراحة والمشرف على:
معهد تاريخ الطب والعلوم
عند العرب والمسلمين
(www.ihams.org)
لندن

عودًا على بدء واستكمالاً لهذا البحث الشيّق الممتع:

فإن التأثير العربي الإسلامي على شعوب الفايكنغ الرُحّل في شمال أوروبا الممتدة من بلاد الروس إلى إيرلنده وإلى ما وراء البحار (ومن ثم استقرارهم في البلاد الإسكندنافية)، لهو تأثير كبير الأهمية والخطر، عميق الجذور والأثر، بعيد الرؤية والنظر، كما أن الفايكنغ أنفسهم تركوا آثارهم في جميع لغات البلاد الأوروبية التي غزوها وأثروا فيها، ويُشار لها بـ (النرويجية القديمة – أو لغة الفايكنغ) Old Norse ومنها يُشتق الكثير من مفردات اللغة الإنجليزية والألمانية والفرنسية القديمة والحديثة، أي أن الكثير من شعوب الفايكنغ كانوا وسطًا لغويًا بين العالم الإسلامي وعالم الغرب الأوروبي.

رسالة أحمد بن فضلان: سفارة العباسيين لشعوب الفايكنغ والدعوة للإسلام

رغم مرور الزمان، تبقى رحلة أحمد بن فضلان البغدادي إلى ضفاف نهر الفولغا ورسالته في توصيف شعوب الفايكنغ أروع مغامرة فريدة من نوعها في التاريخ البشري، وأول توثيق أكاديمي لطبائع الفايكنغ (تُدرّس اليوم في جامعات العالم)، بل وأول سفارة إسلامية للعباسيين في الشمال الأوروبي البعيد، تلبية لطلب ملك الفايكنغ (أو ملك البلغار) نفسه آنذاك "ألموش بن يلطوار" لنشر الدعوة الإسلامية وشرح مبادئ الدين الحنيف للفايكنغ، ولبناء الجامع المركزي هناك كقلعة حصينة للاحتماء بها من الأعداء وليُطلّ ملك الفايكنغ من محراب الجامع الكبير هذا على شعبه، ولتوثيق عرى التحالف الإسلامي بين العباسيين وشعوب الفايكنغ ضد الروس الخزار والذي اعتنق مليكهم الديانة اليهودية (هذه هي المطالب الثلاثة لملك الفايكنغ البلغاري لخليفة المسلمين آنذاك). فتشكلت هذه البعثة الرسمية استجابة من الخليفة العباسي المقتدر بالله (تولى الحكم من 908-932 م) لطلب ملك البلغار لإرسال هذه السفارة إلى مملكة شعب الفايكنغ في بلاد البلغار.

بالمناسبة، فإن اسم روسيا الحالية هو تسمية عربية ذكرها ابن فضلان في رسالته (أنظر تحت).

ابتدأت هذه الرحلة التاريخية المباركة يوم الخميس 21



حزيران/يونيو عام 921 ميلادي (يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر 309 هجري) من مدينة السلام بغداد عاصمة العالم الإسلامي آنذاك (عاصمة الخلافة والحضارة الإسلامية آنذاك حين كانت أوروبا الغرب تغطّ في نوم عميق وتتخبط في دياجير العصور المظلمة).

قافلةٌ كبيرة تضم خمسة آلاف رجل مصحوبين بثلاثة آلاف دابة محملة بالهدايا والأمتعة والمال الوفير انطلقت من بغداد. وعلى رأس هذه القافلة بعثة رسمية ترأسها سوسن الروسي، وتكين التركي، وبارس الصقلبي (من الفايكنغ)، ورأسها الأكبر الفقيه: أحمد بن فضلان البغدادي. انطلقت قافلة بعثة الخليفة المقتدر بالله العباسي من العراق إلى إيران ثم آسيا الوسطى حتى وصلت إلى بلاد البلغار أو الصقالبة على نهر الفولغا في الأراضي الروسية الحالية يوم الأحد 12 أيار/مايو عام 922 ميلادي، بعد مسيرة أحد عشر شهرًا.

ترك لنا ابن فضلان تقريرًا في رسالة صغيرة حول أحداث الرحلة كتبها عام 924 ضمنها مشاهداته وانطباعاته. ومن أهم ما سجّل أسماء الأمم والشعوب التي مرت بها البعثة ومعتقداتهم وتقاليدهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم، لذلك أعدّها الباحثون وثيقة مهمة في علمي الاجتماع والأساطير لسكان المناطق التي مرت بها البعثة في القرن العاشر.

ولعل أهم مصادر توثيق مخطوطة ابن فضلان، نجدها في مواضع مطولة أوردها ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) الذي أنجزه بعد ثلاثة قرون من الرحلة نقلاً عن نسخة أصلية للرسالة لم تصل إلينا.

وفي عام 1817م عثر على جزء من مخطوطة ابن فضلان في روسيا ونشرتها أكاديمية سان بطرسبورغ باللغة الألمانية عام 1923 م. وفي عام 1924م عثر مهاجر روسي من جمهورية بشكيريا الحالية، متخصص في الدراسات التركية والفلسفة يدعى أحمد زاكي أحمد شاهوفيتش واليدوف على أهم نسخة متكاملة لرسالة ابن فضلان في المكتبة الملحقة بضريح الإمام علي بن موسى الرضا بمدينة مشهد الإيرانية. وفي العام نفسه نُشرت في موسكو مقالة باللغة الروسية تعريفًا بها.

أهدت الحكومة الإيرانية عام 1937م نسخة من مخطوطة مشهد للاتحاد السوفييتي. وفي عام 1939م ترجمت وحققت تحت إشراف وتعليق الأكاديمي الجغرافي الروسي الشهير إغناتي بوليانوفيتش كراتشكوفسكي.

ولدقة وأمانة رسالة أحمد بن فضلان بما يتفق مع المصادر الأجنبية في وصفه لشعوب الفايكنغ، اكتفي الباحثون الإسكندنافيون برسالة أحمد بن فضلان توثيقًا لتوصيف أسلافهم الفايكنغ، وطبعت الرسالة عام 1951 م في مختلف اللغات الإسكندنافية (وقد كان أكثرهم إحتفاءً بها البروفيسور النرويجي: بير فراوس- دولوس).

وقام المجمع العلمي العربي في دمشق (سوريا) بطبع رسالة أحمد بن فضلان، وقام الدكتور سامي الدهان بتحقيقها بدقة متناهية وسرد رائع ومقارنتها بما جاء في المصادر الأخرى (كمعجم البلدان لياقوت الحموي) والرسالة موجودة يمكن تنزيلها من شبكة الإنترنت البينية مجانًا كـ PDF فايل مباشرة من البحث في غوغل (رسالة أحمد بن فضلان).

واعتمادًا على توليف خط سير الرحلة من كافة النسخ التي تكون منها الشكل الأخير لرسالة ابن فضلان يكون خط السير كالتالي، (وهو الذي اعتمده الدكتور حيدر غيبة في الطبعة العربية الأخرى للرسالة):

1. بلاد العجم والترك
2. بلاد الصقالبة
3. الروسية
4. الاسكندنافية
5. بلاد الخرز

وهذه الطبعة، تضمنت الجزء الخاص بزيارة ابن فضلان لاسكندنافيا، التي خلت منها الطبعة الأولى التي حققها الدكتور سامي الدهان (رغم أن هذا الجزء يعادل في حجمه ثلثي صفحات الرسالة تقريبًا).

وقام الروائي والسينمائي الأمريكي مايكل كريجتون بنسج رواية خيالية عام 1976 م بعنوان (أكلة الأموات) Eaters of the Dead by Michael Crichton مدعيًا أنها تحوي النص الكامل لرسالة ابن فضلان زورًا وبهتانًا ليفرغ رحلة هذه الدعوة الإسلامية والسفارة العباسية الفريدة من مضمونها، ويحرّف مضمون الرسالة والرحلة، بل ويحوّل مسار الرحلة من ضفاف نهر الفولغا إلى الدول الإسكندنافية وتحديدًا السويد الحالية. وفي عام 1999 م أُنتج شريط سينمائي كبير حول الرواية حمل اسم "المحارب الثالث عشر" لـ أنتونيو بنديرا.

حاول بعض الفنانين تجسيد مغامرة ابن فضلان عبر لوحات فنية منها اللوحة التي رسمها الفنان الروسي/ هنري سميراديسكي/ مستلهمًا موضوعها من وصف مخطوطة ابن فضلان عادات الدفن الروسية القديمة كما شاهدها ابن فضلان. اللوحة موجودة حاليًا في متحف مدينة سان بطرسبورغ ومسجلٌ أسفلها اسم الرحالة الكبير.

وتُري رسالة ابن فضلان تشابه العادات بين بعض شعوب الفايكنغ وبين الهندوس من حيث إحراق جثث الأموات مع جواريهم! وأيضًا اندهاش ابن فضلان للتحرر الجنسي لدى الفايكنغ والذي أثار ضحك القوم عليه.

وفي رسالته، يصف أحمد ابن فضلان كثرة التفاح الأخضر عندهم (أقول وما زال عندهم بكثرة إلى اليوم، بل وسوّقوه تجاريًا على أنه تفاح الصحة) ، كما ويصف ابن فضلان كيف يغتسل الرجال والنساء عُراة دون أن يزني أحدهم بالآخر (أقول وما زال التعرّي شائعًا من ذلك الحين في الدول الإسكندنافية وفي الغرب في الكثير من سواحل السباحة والسياحة، بل وحتى لباس اسكوتلندا الرجالي التقليدي يكون بشكل تنّورة رجالية دون أي لباس داخلي).

دلائل إسلام الفايكنغ من رسالة أحمد ابن فضلان:

لكن أروع ما في رسالة أحمد ابن فضلان هو توثيقه لحبّ الفايكنغ للإسلام ولدولة الإسلام ولخليفة المسلمين.

وهنا أجتزأ فقرات مهمات من رسالة أحمد بن فضلان للاستشهاد والاستدلال على ذلك (انظر أدناه):

«فلما كنا من ملك الصقالبة وهو الذي قصدنا له على مسيرة يوم وليلة، وجه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يده وإخوته وأولاده، فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاروس وساروا معنا.

«فلما صرنا منه على فرسخين تلقانا هو بنفسه، فلما رآنا نزل علينا، ونصب لنا قباباً فنزلناها».

فلما كنا يوم الخميس واجتمعوا نشرنا المطردين اللذين كانا معنا، وأسرجنا الدابة بالسرج الموجه إليه، وألبسنا السواد وعممناه، وأخرجت كتاب الخليفة. وقلت له:«لا يجوز أن نجلس والكتاب يقرأ» فقام على قدميه هو ومن حضر من وجوه أهل مملكته، وهو رجل بدين بطين جداً.

وبدأت فقرات صدر الكتاب. فلما بلغت منه:«سلام عليك فإني أحمد الله إليك الله الذي لا إله إلا هو». قلت: «رد على أمير المؤمنين السلام» فردَّ، وردوا جميعاً بأرهم، ولم يزل الترجمان يترجم لنا حرفاً حرفاً. فلم استتممنا قراءته كبروا تكبيرة ارتجت لها الأرض».



لوحة فنية لأحد الفنانين يصوّر فيها سفير العباسيين أحمد بن فضلان البغدادي وقافلته الكبيرة والتقاءه بملك البلغار الصقلبي (الفايكنغ) المسلم، ويصوّر ملك الفايكنغ بالعمامة واللباس الإسلامي.

«فكان بعد هذا القول يؤثرني ويقربني، ويباعد أصحابي، ويسميني «أبا بكر الصديق»».

«وسألته يوماً فقلت له: «مملكتك واسعة، وأموالك جمّة وخراجك كثير، فلم سألت السلطان أن يبني حصناً بمال من عنده لا مقدار له»؟ فقال: «رأيت دولة الإسلام مقبلة، وأموالهم يؤخذ من حلّها، فالتمست ذلك لهذه العلة، ولو أني أردت أن أبني حصناً من أموالي من فضة أو ذهب لما تعذّر ذلك عليّ. وإنما تبركت بمال أمير المؤمنين، فسألته ذلك».

«وقد كان يخطب له على منبره قبل قدومي: «اللهم وأصلح الملك بلطوار ملك البلغار». فقلت: أنا له: إن الله هو الملك، ولا يُسمى على المنبر بهذا الاسم غيره – جل وعزا – وهذا مولاك أمير المؤمنين قد رضي لنفسه أن يُقال على منابره في الشرق والغرب: اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين. وكذا كان قبله من آبائه الخلفاء».

«فقال لي: فكيف يجوز أن يخطب لي؟ قلت: باسمك واسم أبيك، قال: إنّ أبي كان كافراً ولا أحب أن أذكر اسمه على المنبر، وأنا أيضاً فما أحب أن يذكر اسمي، إذ كان الذي سماني (به) كافراً. ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين؟ فقلت: جعفر، فقال: يجوز أن أتسمى باسمه؟ فقلت نعم.

فقال: قد جعلت اسمي جعفراً، واسم أبي عبد الله فتقدم إلى الخطيب بذلك ففعلت.

فكان يخطب له: اللهم وأصلح عبدك جعفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين».

أقول:

ورغم بأس وشجاعة الفايكنغ وبطولة مليكهم وكثرة أعداد أتباعه المقاتلين، إلاّ أنهم كانوا يكنّون للإسلام ولخليفة المسلمين كلّ هيبة ورهبة وتوقير وتقدير (انظر تحت):

«فقال للترجمان: قل له: تعلم أن الخليفة – أطال الله بقاءه –لو بعث إليّ جيشاً كان يقدر عليّ؟ قلت: لا. قال: فأمير خرسان؟ قلت: لا. قال: أليس لبعد المسافة وكثرة من بيننا من قبائل الكفار؟ قلت: بلى، قال: قل له: فوالله إني لبمكاني البعيد الذي تراني فيه، وإني لخائف من مولاي أمير المؤمنين، وذلك أني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه فيدعون عليّ فأهلك بمكاني، وهو في مملكته، وبيني وبينه البلدان الشاسعة. وأنتم تأكلون خبزه وتلبسون ثيابه وترونه في ورأينا فيهم أهل بيت يكونون خمسة آلاف نفس من امرأة ورجل قد أسلموا كلهم، يعرفون بالبرنجار، وقد بنوا لهم مسجداً من خشب يصلون فيه، ولا يعرفون القراءة، فعملت جماعة ما يصلون به. ولقد أسلم على يدي رجل يقال له (طالوت) فأسميته عبد الله فقال: أريد أن تسمني باسمك محمداً. وعلّمته: (الحمد لله) و(قل هو الله أحد) فكان فرحه بهاتين السورتين أكثر من فرحه إن صار ملك الصقالبة».

أقول: وبالمقارنة يصف أحمد بن فضلان فايكنغ الروس غير المسلمين على أنهم أقذر خلق الله:

«وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يغسلون أيديهم من الطعام،بل هم كالحمير الضّالة،يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل، وهو (نهر) كبير، ويبنون على شطّه بيوتاً كباراً من الخشب.

ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر. ولكلّ واحد سرير يجلس عليه،ومعهم الجواري الزوقة للتجار، فينكح الواحد جاريته، ورفيقه ينظر إليه. وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال بعضهم بحذاء بعض. و(ربما) يدخل التاجر (عليهم) ليشتري من بعضهم جارية فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي إربه».

«ولا بد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه. وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة، ومعها قصعة كبيرة فيها ماء، فتدفعها إلى مولاها فيغسل فيها يديه ووجهه، (وشعر رأسه فيغسله) ويسرحه بالمشط في القصعة، ثم يتمخط ويبصق فيها، ولا (يدع شيئاً من القذر إلا فعله) في ذلك الماء. فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي إلى جانبه ففعل مثل ما فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت. وكل منهم يتمخط ويبصق (فيها) ويغسل وجهه وشعره فيها».

أقول:

والحقيقة أن توصيف ابن فضلان لطبائع الفايكنغ يتفق تماماً مع حفريات علم الآثار، لا مع الخيال الجامح المُختلق لصُنّاع وروّاد السينما الحديثة، ولا مع بعض لوحات الفنانين المرسومة دون سند علمي.

فمثلاً تصوير محاربي الفايكنغ بخوَذ ذات قرون (للمبالغة في توحشهم) لم تتفق معه الحفريات الحديثة (أنظر الصورتين أدناه للخوذات الحقيقية للفايكنغ وبدون قرون والتي وُجدت في قبورهم مع نقوشهم عليها (Runic inscriptions):





أقول: ومراسيم شراء وبيع الجاريات والرقيق بميزان النقود الإسلامية كانت تجري في السوق بألبستهم المحتشمة، لا كما تصورهن بعض اللوحات عاريات (من اللباس تماماً) بما لا يتفق مع أبسط قواعد الذوق الإنساني. الصورة أدناه مرسومة بسند الحفريات حيث



نرى البائع والمشتري من الفايكنغ يقدرون السعر بالميزان لجاريتين ولعبدين (مُطأطئين رؤوسهم).

وبرغم انتهاء عصر الفايكنغ (تقريبًا من 800 – 1050م)، فإن من الفايكنغ من ذاب في العالم الإسلامي سكنًا ومصاهرةً وحياةً ومماتًا، ومنهم من تبع من تنصر من ملوكهم (عنوة وتضييقًا) في الدول الإسكندنافية والشمال الألماني، ومن الفايكنغ من استقلّ في (مستعمرة النورماندي) الشهيرة التي استقطعوها من فرنسا بعد غزواتهم واستعمارهم لها.

والحقيقة إن النورمانديين هم الامتداد الطبيعي بعد انتهاء عصر الفايكنغ، ولذلك يُعدّ الغزو النورماندي لإنجلترا عام 1066م آخر غزو للفايكنغ، بل والنهاية الرسمية الفعلية لعصرهم تحديدًا.

ولعل من أكثر ملوك أوروبا المتعاطفين مع الإسلام والمسلمين، والذين يُعدّون "حلقات وصل" بين الشرق والغرب في البحوث الأكاديمية التاريخية هم الملوك النورمان الثلاثة الذين تجري في عروقهم دماء أجدادهم الفايكنغ المسلمين:

1. الملك روجار الثاني (سلطان صقلية-هكذا يُسمى سلطان وليس ملك صقلية).
2. الملك فريدريك الثاني (إمبراطور روما الألماني).
3. الملك ألفونسو الحكيم (في اسبانيا).

The 3 KINGS (with Norman blood):
- King Roger II (Sicily Sultan)
- King Friedrich II (Germany: Holy Roman Emperor)
- King Alfonso the Wise (Spain)

دليل القبور: أموات الفايكنغ مدفونون نحو القبلة لعل حرق الأموات كعادة جاهلية قبل الاحتكاك بالإسلام غير مُجمع عليها بين جميع الفايكنغ، وهذا ما تشير إليه قبور الفايكنغ العديدة، ومن ثم دفن المسكوكات والنقود الإسلامية معهم للتبرك بها، ثم حب شعوب الفايكنغ الصقالبة الجامح للإسلام والتطبع بطباعه والالتزام بأوامره ونواهيه (كما رأينا).

ولعل سفارة الفقيه أحمد بن فضلان البغدادي لبلاد الفايكنغ والبلغار تشكل معلمًا تاريخيًا قام الفايكنغ بعده بدفن أمواتهم بالقبور عملاً بالإسلام بعد استشارة ابن فضلان وكما تدل عليه الحفريات الحديثة.

لكن المعلومة اللطيفة التي جاءتني عبر صديق عراقي كان يقطن في السويد لردح من الزمان (والآن مقيم في مانشستر - الأخ عبد الله المختار) والتي يؤكد فيها أن الكثير من الأموات في مقابر الفايكنغ في السويد قد وُجدوا مدفونين باتجاه واحد:

الإتجاه نحو القبلة !!!

وهذا يدلل بوضوح إسلامهم في الحياة وبعد الممات، تمامًا كما يفعل المسلمون بأمواتهم.

أسماء بعض المُدن الإسكندنافية:

ابتداءً، فإن اسم روسيا الحالية هو تسمية عربية ذكرها أحمد بن فضلان في رسالته، والإسم منسوب إلى اسم قبيلة من قبائل الفايكنغ (كيفان روس Kievan Rus – حكم ووسع مملكته بين (882 – 912م) ومنه اُشتق اسم: روسيا وبلاروسيا وكييف، ووصل حكم مملكته لذلك فاسم روسيا (الدولة الحالية) يكتب في اللغات الاسكندنافية الآن (روسلاند) أي بلاد (آل روس) نسبة إلى تلك القبيلة الفايكنغية، ولأن هؤلاء الفايكنغ من آل روس كانوا يتنقلون من مكان لآخر بتجديف القوارب الخفيفة التي يحملونها على أكتافهم برًا ما بين الأنهار والبحيرات، فإن الكلمة الإنجليزية rowing the boat أي تجديف القارب مشتقة من row من روس، وقد حمت قبيلة آل روس المنطقة ضد الخزار الذين اعتنق مليكهم الديانة اليهودية، بينما اعتنق فلاديمير العظيم (م Vladimir the Great (980 – 1015) الديانة المسيحية، لاحظ أن اسم فلاديمير هو اسم عربي أيضًا (أنظر تحت).

كما أن تخريج الكلمة الإنجليزية: وَيّ (Way) أي طريق إنما يُشتقّ أصلاً من (Waj) والذي بدوره يتسلسل من أصل الفايكنغ النرويجي القديم فاج (Vaj) حيث تخفف الحروف طبقًا للناطقين بها، وهو بالحقيقة من أصل عربي (فج)، كما في قول الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ سورة الحج: 27.

وكلمة الفايكنغ بالنرويجية القديمة للقرية أو البلدة الصغيرة هي: كارور (Garoar) وواضح أنها من الكلمة العربية (قريه) خصوصًا إذا لم يُلفظ الحرف الأخير من الكلمة (كاروه).

ثم إن المقاطع اللاحقة في تسمية المدن الإسكندنافية عربية الأصل:

1. لاند (land-) هي أصلاً من العربية (بلاد) لكن تخفف الحروف أو تحذف أو تقلب بعضها وفقًا للسان الناطقين بها، كما في كلمات المدن (Serkland- Gotland- Jutland- Zealand) والكلمة الأخيرة هي: سيركلاند (Serkland) مركبة من لفظتين عربيتين أي شرق-لاند، أي بلاد الشرق ويقصد بها بغداد أو أرض الشرقيين وعاصمتهم الكبرى.

2. هام (ham-) هي أصلاً من العربية (حمى أو حومة) كما في كلمات المدن: (Nottingham - Gillingham - Birmingham) وتعني اسم رأس القبيلة وقائدها من الفايكنغ الذي حلّ مع قبيلته في ذلك المكان فيُسمى باسمه أي: حمى نوتنغ، حمى جيلنغ، و حمى بيرمنغ.

3. بيرك (Berg- أو Burg-) هي أصلاً من العربية بُرج أي حصن وتشير إلى المدينة المحصنة بأسوار تعلوها أبراج مراقبة كما في كلمات المدن (Hamburg - Edinburgh) وتعني أدنبره أو أدنبرك: مدينة أدن أي مدينة عدن المحصنة بالأبراج (لجمالها وكثرة المياه حولها)، ومدينة هامبرك الألمانية تعني: مدينة الحمى أو الحومة المحصنة (لأنها كانت كالبيت الأم للألمان).

وهكذا المدن الإسكندنافية مثلاً ed حيث تقدم البضائع التجارية أيام الفايكنغ فهي حدبهم، وهي هدفهم عند الرجوع بسفنهم المحملة بالبضائع من البحر إلى هذه المستعمرة ومنها عبر النهر لمسافة قصيرة.

Birka في السويد Sweden أي بَرَكة لأنها كانت مركز تجاري والمرفأ الآخر الذي ترسو فيه سفن الفايكنغ المحملة بالبضائع فهي مكان التمويل والبركة لهم بما تحمله من خيرات التجارة (واستبعد كون الاسم مشتقًا من بُركة لكثرة المياه فيه أو لكثرة شجر البركة Birch).

Saedding في الدنمارك قد تعني سعيدة أو المدينة السعيدة (لعله اقتداء ببغداد المسماة مدينة السلام)، ومن ثم تحول اسم القسطنطينية بعد فتحها من قبل السلطان محمد الفاتح إلى إسلام بول أو تحت الإسلام ثم تحولت لإستنبول، وسميت مدينة السعادة).

لكن اسم المدينة الإسكندنافية الألطف هو اسم مدينة Baekke في الدنمارك Denmark أي مدينة (بكة) تبركًا باسم قبلة المسلمين: مكة المكرمة، وفيها مقابر الفايكنغ. واسم (بكة) جاء في القرآن الكريم، إذ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ سورة آل عمران: 96.

وللاستزادة يرجى مراجعة الفصل الثاني من الجزء الأول ومراجعة الجزء الثاني من معجم الفردوس تحت أسماء الكلمات بحروفها الأولى، ومرجعية الكلمات الإنجليزية من أصولها النرويجية القديمة.

See 'Paradise Dictionary' for English words of Arabic origin via their Old Norse origin.

وأرفق أدناه خارطة البلدان كما سمّاها الفايكنغ لأهميتها:



أسماءُ الفايكنغ

ابتداءً فإن اسم الفايكنغ بالإنجليزية (Viking) هو من أصل عربي (الفرنجيين ومفرده فرنجي) كما جاء اسمهم في كتابات الرحالة العرب والمسلمين (Varangi – Varangian) إذ كانوا يسمون الغربيين الأوروبيين بهذا الإسم (وصار صليبيو أوروبا يسمون لاحقاً بالفرنج أو الفرنجة).

ومن فرنجي تحور الاسم الى فايكنغ (كما تؤكد ذلك معظم الكتب الأوروبية).

ثم أن الكثير من أسماء الفايكنغ هي تحوير لأسماء عربية الأصل، فعلى سبيل المثال لا الحصر:

اسم هيلغا (Helga) هو أصلاً تحوير لاسم (هالة) ويحمل معنى القدسية.

وللاسم تحويرات أخرى (Helge، Helghi)، ومشتقات أخرى: أولغا Olga

ولعل الاسم يقابله بالإنجليزية إسم نظير: هيلين (Helen) بنفس المعنى من الهالة القدسية والنور.

والاسم بربارا (Barbara) هو الاسم المؤنث من الأصل العربي (بربريّ) أو برّانيّ أجنبي كما كان الإغريق يسمونهم بسبب لغتهم التي لا يفهمها الإغريق في الشمال الأفريقي.

ومشتقات هذا الاسم الأنثوي كثيرة، يُستخلص بحثًا من غوغل كما يلي:

DIMINUTIVES (تصغيرات الاسم): Babs, Barb, Barbie, Bobbi, Bobbie (English), Bärbel (German), Basia (Polish), Bara, Barica (Croatian)

OTHER LANGUAGES (الاسم في لغات أخرى): Barbra (English), Borbála (Hungarian) Varvara (Bulgarian), Barbora, Bára (Czech), Varvara (Greek), Báirbre (Irish), Barbora (Lithuanian), Varvara (Macedonian), Bárbara (Portuguese), Varvara, Varya (Russian), Barabal (Scottish), Barbora (Slovak), Bárbara (Spanish), Barbro (Swedish))

ويقابله الإسم الذكري برباروس (Barbaros).

لكن هذا الاسم الذكري يختلف عن اسم بربروسا (Barbarossa) الذي يعني بالإيطالي (Barb-rosa أو Red-Beard) أي ذو اللحية الحمراء وكان يُسمى بها: خير الدين بربروسا، أمير البحرية العثمانية الذي دوّخ أوروبا وهيمن على البحر الأبيض المتوسط وحوّله إلى بحيرة إسلامية أيام السلطان العظيم سليمان القانوني- رحمه الله).

والاسم هَيجن (Hagen) هو إسم ذكوري إسكندنافيّ مشهور وهو من أصل إسلامي: خاقان أو خان، بمعنى الحامي القوي والملجأ العظيم (strong defender).

ولشهرة الاسم فله اشتقاقات وأشكال أخرى:

Variants of the name Hagen (الأشكال الأخرى للاسم هَيجن):

Hagan (Irish, Gaelic), Hakon (German), Hagan is also a variant of Haven (Old English).

Hagan has 2 variants: Haggan and Hogan.

Hagan has 7 more different forms: Haaken, Haakin, Haakon, Hacon, Hakan, Hako and Havin.

كما أن اسم فلاديمير (Vladimir) هو اسم مشهور بين فايكنغ الروس، وهو من أصل عربي:

(بلاد – أمير) أي أمير البلاد على الأرجح، أو أنه يعني (فولاذ – أمير) أي الإمير الفولاذي أو الحديديّ.

وللاستزادة يرجى مراجعة الفصل الثاني من الجزء الأول ومراجعة الجزء الثاني من معجم الفردوس تحت أسماء الكلمات بحروفها الأولى، ومرجعية الكلمات الإنجليزية من أصولها النرويجية القديمة.

See 'Paradise Dictionary' for English words of Arabic origin via their Old Norse origin.

مفردات أسكندنافية

تعجّ لغة الفايكنغ الإسكندنافية النرويجية القديمة بالعديد من الكلمات العربية الأصول وعن طريقهم تناقلت هذه الكلمات للغات الأوروبية وشملت المفردات العربية عبر التلاقح الثقافي إلى اللغة الإنجليزية نفسها.

ويمكن تتبع هذه المفردات العربية وغيرها في التخريج اللغوي للكلمات الواردة في معجم الفردوس ذوات التأصيل العربي للمفردات النرويجية القديمة، على سبيل المثال لا الحصر:

للميت تحضيرات كثيرة لكي يرتقي للجنة، فإن الجنة تُسمى عند الفايكنغ بـ (Valhalla)، وبالعربية (ولا- هلاّ – أي ولي صالة) أو صالة الأولياء أي دار الأولياء الصالحين أو ما يقابل عندنا الفردوس الأعلى.

وكلمة (Valkyrie) تعني (وال- كيري أو ولي – خيري) أو خير الأولياء الصالحين، وهو البطل المقاتل الذي تتخيره الآلهة للفردوس الأعلى Valhalla (انظر أعلاه).

بل إنّ (العشق) باللغة الإسكندنافية هو: الإسك (alska) ويعني الحبّ الشديد مثل اللغة العربية.

وكلمة (أو) تقابله بالإسكندنافية كلمة (ao) بالضبط مثل العربية.

ولتُنهي فصل الكلمات بإخراج الهواء من المخرج أي الفساء بالعربية من فسا، وبالضبط مثله بالإسكندنافية: فيسا (Fisa)!

جديد المعلومات في الاكتشافات الحديثة

اُكتُشفت حديثًا قطعتان أو أثران مُهمان جدًا، دارت حولهما دراسات أصيلة مستفيضة: منها بحوث علمية أكاديمية بالمجهر الإلكتروني والتحليل الكيمياوي، والخرى تاريخية آثارية عميقة.

وقد نُشرت هذه المقالات وبالتفصيل في أمهات المجلات المُحكمة (انظر أدناه).

أولى هذه الدراسات الشيّقة:

دراسة جديدة تشير إلى أن (حلقة الخاتم) من القرن التاسع والتي وجدت في موقع للفايكنغ في السويد قد جاءت مباشرة من الحضارة الإسلامية، تتضمن الحلقة فصًّا من الزجاج الملون المحفور والمكتوب عليه بالنص العربي (لله) أي في سبيل الله.

وتشير كريستر أهلين من متحف التاريخ السويدي إلى أنه وبعد أكثر من قرن من الزمان من اكتشافه (في أواخر 1800 م حتى الآن) في قبر امرأة من القرن التاسع في حفريات مدينة ومركز الفايكنغ التجاري في السويد المسمى (بركة – انظر تحت التعليق على اسم المدينة بركة)، فقد كشف خاتم الفضة هذا مع الفصّ المحفورة على أدلة اتصالات وثيقة بين عصر الفايكنغ (الدول الاسكندنافية) والعالم الإسلامي، وأظهر عالم الفيزياء الحيوية سيباستيان ورملاندر من جامعة ستوكهولم توثيق البحث والتقصي تحت المجهر الإلكتروني الماسح كشف أن ما افترض كونه فصّ من أماثيست amethyst هو في الحقيقة زجاج ملون (مادة غريبة في ذلك الوقت).

نقش على فصّ الزجاج الملون بالخط الكوفي: (لله) أي "في سبيل الله" أو "الله" في الكتابة العربية القديمة.



الخاتم الفضي بفصّ الزجاج الملون المكتوب عليه: (لله) أي في سبيل الله (موضع البحث) المستخرج أواخر 1800م من حفريات قبر امرأة من الفايكنغ من مدينة بركة السويدية - يعود تاريخه للقرن التاسع الميلادي

بما يدلل بوضوح تصنيع هذا الخاتم من قبل صائغ الفضة العربية.

وهذا مما يدلل بوضوح وجود تجارة بينية وتداول للمواد والبضائع الزجاجية الجذابة بين الدول الاسكندنافية وبين مصر وبلاد ما بين النهرين في وقت مبكر قبل 3400 سنة، ومن ثمّ، فإن الدول الاسكندنافية التي تمخر عُباب البحر بسفنها ربما هي التي ذهبت وحصلت على البضائع الزجاجية من تجار العالم الإسلامي في نفس هذا الجزء من العالم بعد أكثر من 2000 سنة بدلاً من الانتظار لهذه القطع المرغوبة من البضائع الزجاجية لتتحرك شمالاً

إليها وهي في مكانها عبر شبكات التجارة والتجار آنذاك.

كما وتوثق النصوص القديمة لقاءات قد حدثت منذ حوالي 1000 سنة بين الدول الاسكندنافية وبين أعضاء من الحضارة الإسلامية التي امتدت من غرب آسيا إلى أراضي البحر الأبيض المتوسط (رغم ندرة الأدلة الأثرية).

وللمزيد يرجى مشاهدة معرض مدينة سامراء في المتحف الإسلامي في برلين (شباط / فبراير 2013) تحت عنوان: (سامراء مركز العالم)

لاحظ التصنيع العباسي للأواني الزجاجية والخزفية المتطور في القرن التاسع الميلادي (شاهد الرابطين أدناه):

https://m.youtube.com/watch?v=7UAfyR9kAxg

https://www.youtube.com/watch?v=uWIrY2VzRM0

ثاني هذه الدراسات الشيّقة:

تشير إلى خرزتين من الكوبالت- الزجاجي الأزرق (قد تكون خرز عقد)، وجدت في مقابر عمرها 3400 في الدنمارك، جاءت من مصر القديمة، ربما عبر طرق التجارة الأوروبية واسعة النطاق، وفقًا لبحث جديد صرح به أي. ميكلسن من المتحف الوطني في الدنمارك.

لقد ارتدت كبار شخصيات العصر البرونزي فيما يسمى اليوم بالـ (دنمارك)، ارتدت عقود الخرز الزجاجية ذوات الألوان الزاهية والمصنوعة في ورشات الفراعنة المصريين وورشات حكام بلاد الرافدين (العراق)، وفقًا لما يخلص إليه تحقيق جديد.

ربطت طرق التجارة مصر وبلاد الرافدين مع الدنمارك منذ 3400 سنة من الآن، وظلت هذه الطرق نشيطة حتى 3100 سنة من الآن وعلى أقل تقدير، كما يصرح بذلك



خرزتان من الكوبالت- الزجاجي الأزرق وجدت في مقابر عمرها 3400 في الدنمارك، جاءت من مصر القديمة

عالم الآثار جانيت فاربرغ وزملائها من متحف ميزغارد Moesgaard في هوبجيرغ Højbjerg (في الدنمارك).

أظهرت التحاليل الكيميائية للخرز الزرقاء التي وجدت في المقابر الدانماركية للعصر البرونزي لتلك المدة أن الحلي قد صُنّعت وجاءت من ورش تصنيع زجاجية من مصر الفرعونية ومن حكام الهلال الخصيب، كما كتب ذلك الباحثون في مجلة العلوم الأثرية (بتاريخ 13 ديسمبر).

"هذا هو أول دليل على انتقال الزجاج المصري القديم خارج منطقة البحر الأبيض المتوسط"، كما تقول جانيت فاربرغ.

وتضيف فاربرغ: أما زجاجيات بلاد الرافدين فقد كانت معروفة بوصولها شمالاً وحتى فرنسا.

يشير التحليل الكيمياوي إلى أن بلاد الرافدين هي المصدر لهذه الخرزة الزجاجية، وتظهر مُرصّعةً بعيون من الزجاج الملون: الأصفر والأبيض، اُكتُشفت هذه الخرزة في قبر دنماركي يناهز عمره 3400 سنة.

التوثيق: أي ميكلسن من المتحف الوطني للدنمارك. Credit: A. Mikkelsen, National Museum of Denmark



عيون الخرزة الزجاجية Beads glassy eyes

الخلاصة:

تتظافر الأدلة جميعًا على عمق العلاقات التجارية والمعايشة والمصاهرة والأخوة الإسلامية بين العرب وبين شعوب الفايكنغ بعد انتشار الإسلام، بل ولعلاقات تجارية وحميمة تربط سكان الشمال الأوروبي بوادي الرافدين ومصر منذ القدم وقبل الإسلام.

وتشير الأدلة وبقوة لإسلام قسم كبير من شعوب وممالك الفايكنغ، بل وانضمام وقتال قسم كبير من الفايكنغ ضمن وحدات الجيش العباسي في بغداد.

كما يشير البحث لتأثر الفايكنغ الكبير بالعالم الإسلامي وبلغة الإسلام: اللغة العربية، وتغلغل هذه المفردات العربية في لغة شعوب الفايكنغ (أي في النرويجية القديمة)، ومن ثم تغلغل مفردات النرويجية القديمة في اللغات الأوروبية: كاللغة الإنجليزية والألمانية والفرنسية.

وكانت مرجعية (معجم الفردوس) من أهم المصادر التي تصدرت قائمة المراجع لهذا البحث الشيّق، بل وأهم المراجع التي مهّدت جديًّا لتعميق واستمرار هذا البحث الأصيل الممتع.

مصادر البحث:

1. معجم الفردوس ومغامرات اللغة العربية عبر التاريخ
للأستاذ الدكتور مهند الفلوجي، طبعة الميكان للبحوث والنشر.
الجزء الأول، الفصل الثاني
والجزء الثاني (بكماله) عام2012
2. مقالات البحث الحديث:

أولاً:
https://www.sciencenews.org/article/ring-brings-ancient-viking-islamic-civilizations-closer-together
Ring brings ancient Viking, Islamic civilizations closer together
By Bruce Bower March 13, 2015
ثانياً:
Analysis and interpretation of a unique Arabic finger ring from the Viking Age town of Birka, Sweden
SCANNING
1. Sebastian K.T.S. Wärmländer,
2. Linda Wåhlander,
3. Ragnar Saage,
4. Khodadad Rezakhani,
5. Saied A. Hamid Hassan, and
6. Michael Neiß
Article first published online: 23 FEB 2015
ثالثاً:
Egyptian News Archaeology
Ancient Egyptian blue glass beads reached Scandinavia
Chemical analysis of Danish discoveries extends range of Bronze Age trade
By Bruce Bower December 19, 2014
رابعاً:
Ancient Egyptian blue glass beads reached Scandinavia
Magazine issue: Vol. 187 No. 2, January 24, 2015, p. 8
ScienceNews



دور التكنولوجيا في تنمية المعرفة بالوطن العربي



د.عبد المقصود حجو

أستاذ زائر بالجامعات المصرية والعربية - مصر

يتنامى دور المعرفة فى عالم اليوم يومًا بعد يوم وتتنوع المعلومات والبيانات ليس على المستوى المحلي بل على المستوى الدولي ولقد واكب هذا التنوع الهائل تعدد وسائل الإعلام مثل المقروءة والمسموعة والمرئية مما بات يمثل ثورة كبرى فى عالم المعرفة.

ثم دخل العالم بعد ذلك ثورة وليدة أخرى أكبر أثرًا وأعمق تأثيرًا وأشد خطرًا وهى الشبكة الدولية للمعلومات – الشبكة العنكبوتية- مما أحدث انقلابًا هائلاً فى حجم المعلومات المتاحة وأصبح من الميسور بلمسات دقيقة من الأصابع أن تطلع على أحدث الموسوعات وتجوب أقاصي بقاع الأرض والسماء.

وأضحى للمعرفة ثمنًا باهظًا لا يملكه إلا من يملك مقومات وأسس عالم اليوم – عالم الاتصالات والمعلومات – وأيضًا علم التطوير الحالي والمستقبلي لتكنولوجيا الحاسبات الآلية

وأصبح العالم فريقين:

- فريقًا يملك المعلومات والتكنولوجيا.
- فريقًا يستورد المعلومات والتكنولوجيا.

وأضحى العالم الأول المتقدم يضع شروطًا قاسية لتصدير التكنولوجيا، وها هو يضع الشروط للدخول على عالم المعرفة.

وجدير بالعرب ومصر هى الرائدة أن تتبنى خططًا طموحة للدخول فى هذا العالم الجديد – عالم الاتصالات والمعلومات والحواسب الآلية – لكى تتمكن من اللحاق بركب التقدم.

التكنولوجيا كحل لمشكلات العالم

يواجه العالم فى الألفية الثالثة مشكلات جمة تأخذ بخناق الأمم والشعوب منها :

- الغذاء
- الطاقة
- المياه
- البطالة
- الإسكان

وتتعدد وتتباين هذه المشكلات من دولة لأخرى ويأخذ العرب نصيبًا وافرًا منها ......إذن ما الحل وكيف السبيل للخلاص ...الحل الوحيد والعملي والعلمي في الوقت نفسه هو اللجوء للتكنولوجيا لتوفير سبل الحياة الكريمة والرفاهية المنشودة.

وإذا كان الفرد الحالي قد شهد نزول إنسان على سطح القمر وهو أول تابع لكوكبنا الأرض فليس ببعيد أن تطأ قدما الإنسان بقية كواكب المجموعة الشمسية وقد يتمادى الإنسان في أحلامه ويطمح الذهاب لمجموعة أخرى غير مجموعتنا الشمسية وليس بغريب – أن بعض الأفراد من أمريكا وأوربا – قد بدأت تحجز فى وادي القمر الرحب.

ويشهد عالم اليوم قدرة تكنولوجية جبارة تتطور يومًا بعد يوم، ويأتي بالجديد فى جميع نواحي الحياة بل تعدتها إلى الهندسة الوراثية ومحاولة فك الشفرة الجينية والوصول لهذا العالم الفسيح فى البناء الإنسانى وأيضًا الهندسة الوراثية فى النبات لاستنباط سلالات أكثر إنتاجًا وأعلى مقاومه للأمراض والآفات وذلك لإشباع الأفواه المفتوحة.

وفي الصناعة الإنتاج العالي التقنية وبالسعر المناسب لكي يلبي رغبات المستهلكين، أن التكنولوجيا هي ميدان التنافس الواسع بين الأمم والشعوب حيث إنها تنقل دولاً من آخر القائمة للصف الأول.

ولقد كان الإستعمار التقليدي بمعناه الشامل عسكريًّا ثم تطور ليكون اقتصاديًّا ثم تطور الآن ليكون تكنولوجيًّا ومعرفيًّا وأصبحنا نسمع لأول مرة عن ما يسمى "حظر تصدير التكنولوجيا الفائقة" وهو بهذا يهدف لحجب هذه التقنية المتقدمة وحرمان بعض الدول منها.

وتقدم هذه الثورة التكنولوجية فى مجالات عدة من أبرزها التكنولوجيا البيولوجية (الحيوية) وأحلال وإعادة هيكلة المواد وصناعة المعلومات في بعض جوانبها فرصًا جديدة لدفع عجلة التنمية فى العالم الثالث وحل مشكلات الفقر ونقص الموارد وتشير بعض الدراسات أن الدول النامية أصبحت تابعة تكنولوجيًّا للدول الصناعية المتقدمة.

وقد ساعد هذه المسلك فى الدول النامية أن كثيرًا من المشروعات فى الدول النامية أعتمدت على التمويل على المعونات الأجنبية وهى مقيدة فى معظمها بما يعني أن على الدول المستفيدة من المعونة أن تلتزم بشراء المعدات الرأسمالية وما يرتبط بها من تكنولوجيا وتصميمات هندسية من الدول المانحة للمعونة.

الإسهام العربي فى تكنولوجيا الغد

إن العالم العربي في مفترق طرق خطيرة قد تؤثر عليه لسنوات طوال قادمة فهو أما بمنأى عن التقدم التكنولوجى أو مستورد له من دول العالم الأول وكلاهما جد خطير ولابد له من دور فاعل ليضعه على مصاف الأقوياء – المتقدمة تكنولوجيا – وطريق هذا وواضح إلا أنه شاق وعسير وصعب ولا ينقص العالم العربي ومصر بصفة خاصة الكوادر العلمية القادرة على استيعاب الجديد فى عالم اليوم إلا أنها البيروقراطية الإدارية والمشكلات الفردية بين القاعدة والقمة.

لكى تؤتي حركة التكنولوجيا العربية ثمارها المرجوة فلابد لها من التخلص من قيود وإغلال البيروقراطية واتباع أحدث أساليب الإدارة العلمية مثل:

1 – الإدارة بالأساليب.

2 – الإدارة بالأهداف.

3 – الإدارة بالرؤية المشتركة.

وفى رأي أن الأسلوب الثانى هو أفضل الأساليب لتطويع البحث العلمى لإنتاج تكنولوجيا تخدم الأهداف التكنيكية للوصول للهدف الإستراتيجي، ومن ثم تتعدد الأهداف وطرق الإداء تبعًا للمستويات الإدارية والتنفيذية.

ويجب أن ينأى الهدف الإستراتيجي عن أي مطالب مادية سوى الصالح العام وخدمة المجتمع بمعناه الشامل، أي إنتاج تكنولوجيا صالحة لقطاعات الدولة المختلفة صناعة وزراعة واقتصادية بل وسياسية وخدمية.

إن ظهور وأفول القوى العظمى رهن بالتطوير الحادث على مسرح الأحداث الدولية وكذا سقوط الحواجز بين البحوث العلمية الأساسية والتطبيقية لإبراز منتج تكنولوجي قادر على المنافسة.

إن الثورة التكنولوجية تتطلب غزارة في المعلومات وتقنية عالية في المعدات والأجهزة وتدريب للكوادر العلمية. ملحق رقم (1)

مجتمع المعرفة ودوره في التقدم البشري

يواكب عالم اليوم كما هائلاً من المعلومات التي هي الرافد الرئيسي للمعرفة ودورها حيوي ومؤثر في منطقة التقدم البشري.

إلا أن هذا الرافد الرئيسي قد يقود بعض العقبات التى تجد من تأثيره المحوري مما يجعل تداول المعرفة والإستفادة منها أمرًا عسير المنال، ومن ثم ينخفض معدل التنمية.

وليس بخاف أن إنتشار الأمية في مجتمع ما يكبل طموحات وتطلعات الأمة نحو الرقي والتقدم والرفاهية.

ونورد بعض المعوقات كالآتي:

– إرتفاع نسبة الأمية.

– تدني مستوى خريجو الجامعات والمعاهد العليا.

– عدم تطوير التعليم والأخذ بمبدأ التكنولوجيا المتقدمة A dvanced Technology .

– عدم الأخذ بأسباب الاستعداد الرقمى E – readness

– إنخفاض عدد مشتركي شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

الدور العربي فى تنمية المعرفة الإنسانية

لقد قدم – العرب الأوائل – للحضارة الإنسانية مقومات الحضارة الحالية وذلك في مختلف فروع العلم كالرياضيات والفيزياء والكمياء والفلك والموسيقى وغيرها.

وفي عالم اليوم يتطور العلم بمعدلات مذهلة ويأتي بالجديد كل ساعة، ويطمح الإنسان أن يغزو الكواكب الأخرى بعد نزوله على القمر.

إلا إن الإسهام العربي ما زال ضئيلاً ومحدودًا على المستوى القومي بيد إن الإسهام الفردي للعلماء العرب كبير ومتعدد، حيث إن معظم البحوث الهندسية التطبيقية بواسطة علماء عرب. ملحقي رقمي (2) ، (3)

الخلاصة:

إن المعرفة في عالم اليوم لها مكان الصدارة والإهتمام. ويحدث صراع شرس بين الدول حول امتلاك تكنولوجيا المعلومات وكيفية معالجتها وتطويرها. والتكنولوجيا هي الحل الوحيد والواقعي لحل مشكلات العالم، بيد أن الإسهام العربي مازال محدودًا على المستويات القومية إلا أن متنامي وفاعل على المستوى الفردي .

وجدير بالعرب أن يركزوا حضورهم للحاق بركب المعرفة لكي يكون لهم الصدارة في مجريات الأحداث العالمية.

التوصيات:

1 – الاهتمام بإنشاء قواعد البيانات ومراكز المعلومات على المستويات المختلفة.

2 – الارتقاء بمستوى التعليم ورفع مستوى الخريجين.

3 – تطويع التكنولوجيا لخدمة المجتمع.

4 – أسلوب بحث علمي لحل مشكلات المجتمع.

5 – ربط الخطط الخمسية بتكنولوجيا العصر.

الهوامش:

1 - مطبوعات جامعة طوكيو – اليابان 1995

2 - مؤتمر تطوير الدراسات العليا والبحث العلمي 15-16 فبراير1998 – جامعة الاسكندرية.

3 - التنمية فى عالم متغير – د. إبراهيم العيسوي – دار الشروق 2002م

4 - نظم وشبكات المعلومات – تأليف كجيل صامويلسون وآخرين – ترجمة د. شوقي سالم – 1977م- الهيئة المصرية العامة للكتاب.

5 - مؤتمر التعليم العالي في مصر وتحديات القرن الواحد والعشرين – جامعة المنوفية يوليو- 1996م.

6 - World Competitiveness Tear beok " Lausame، " Switzerland، 1997 IMD (International instuite for Mangement Development) .

7 - Human Development Report، 1999" (Globalization" with a hummen face UNDP، Washington bc ، 1999 .

الملاحق

ملحق (1) مؤشرات التطور التكنولوجي :

1 - بروز قطاع خدمي حديث

2 - وجود قطاع صناعي حديث

3 - الهيكل الصناعي والتشابكات الداخلية فيه

4 - المدخل المعلوماتي فى عمليات الإنتاج

5 - المستوى المهاري لقوة العمل

6 - هجرة العمالة للخارج (بما فيها الهجرة للأقطار العربية)

7 - توافر زراعات وخدمات حديثة تقوم على التكنولوجيا العالية

8 - تواجد وحدات بحث وتطور

9 - إنتاجية قوة العمل في الزراعة والصناعة

10 - وجود تعاقدات فنية وتكنولوجية على المستوى الإقليمى (العربي) بالقطاعين العام والخاص.

11 - الاستثمار في تطوير الصناعات والحرف

12 - حجم معلومات فنية تخدم قطاع الاستثمار

13 - قاعدة بيانات للقطاعات بالمجتمع

14 - أسلوب لتدفق البيانات والمعلومات

15 - تدفق عناصر الإنتاج عن طريق حجم المعلومات المتوافرة

ملحق (2) بيان مشتركي الإنترنت بالعالم العربي

1 - فى مصر	(2-3) مليون مشترك
2 - في السعودية	مليون مشترك
3 - في الإمارات	05، مليون مشترك.

ومن هذا يتضح انخفاض الاشتراك النسبي للإنترنت – في مصر – عنها في الدول العربية الأخرى مقارنة بالتعداد الكلي للسكان

ملحق (3) ميزانية البحث العلمي – فى بعض الدول منسوباً للدخل القومي .

1 - اليابان	% 2.8
2 - أمريكا	% 2.47
3 - كوريا	% 2.2
4 - إسرائيل	% 3
5 - مصر	1 %(كانت قبل ذلك 0.1 %)
-6 الهند	% 2.3

المرجع تقرير التنمية البشرية بالعالم العربي 2011م



التعلم الإلكتروني الحقيقي كما يجب أن يكون



د. عماد عمر سرحان

استشاري في المعلوماتية وإدارة المعرفة - الرياض

ينظر الكثيرون إلى التعلم الإلكتروني على أنه تعليم أقل مستوى من التعليم التقليدي بصفته أنه لا يوجد لقاء حقيقي بين المعلم والمتعلم، وأن الغش والتدليس فيه متاح بشكل أكبر. وربما يعود السبب في تلك النظرة إلى التطبيق الخاطئ للتعليم الإلكتروني، الذي اعتمدت عليه أغلب المؤسسات التعليمية خصوصًا في المنطقة العربية، التي ركزت على مجرد تحويل التعليم التقليدي إلى تعلم إلكتروني عبر بث وتسجيل المحاضرات العلمية من خلال الإنترنت أو استخدام التقنية في الصفوف الدراسية، متجاهلين كل التقنيات والأساليب الحديثة، التي تؤثر على إنسان اليوم. وهم بذلك يحاكون التعليم التقليدي الذي يعتمد على نقل المعلومات من المعلم إلى الطالب، ثم قيام الطالب بعد ذلك بنقل تلك المعلومات التي حصل عليها إلى الورق.

لقد زاد الأمر سوءًا تلك العزلة التي تفرضها تطبيقات إدارة التعلم الإلكتروني Learning management Systems المستخدمة في الجامعات والمؤسسات التعليمية اليوم لتقديم المقررات الإلكترونية. ففي الوقت الذي تتطور فيه وسائل التواصل الحديثة وأدوات المعرفة حولنا، تصر تلك التطبيقات على عزل الطالب عن أقرانه ليتعلم ويختبر وينجح وحده. لقد كان يدرس مع أقرانه في الصف الدراسي، لكنه ومع استخدام تلك الأنظمة التقنية يفقد ذلك ويعود وحيدًا. فهل يمكن لهذه البيئة التي تساعد الطلاب على الحفظ والتلقين والاتكال على المدرس وتعتمد على القوالب التعليمية الجاهزة أن تساهم في حدوث تطوير في التعليم.

لقد كانت النتيجة أن التعلم الإلكتروني السائد الآن لم يضف قيمة حقيقية للمجتمع برغم الدور الكبير الذي يمكن أن يلعبه في تطوير العملية التعليمية في المنطقة العربية، بل تم صنع نسخة مكررة ومشوهة من التعليم التقليدي. فما العائد من التعلم الإلكتروني إن لم يضف لعملية التعليم أي قيمة أو فائدة؟ إن كان مجرد تكرار لما هو عليه التعليم اليوم دون تغيير، إن لم نستفد من التقنيات الحديثة في التطور والنمو. هل يمثل التعلم الإلكتروني مجرد "أتمتة" للتعليم التقليدي، مجرد تكريس للوضع القائم ولكن بطريقة مبتكرة. ما فائدة أن نضمن لقاء الطالب بالمدرس إن لم يكن لهذا اللقاء أي عائد أو أن المدرس لا يتقن التعليم. وما الفائدة من أن نحكم على تحصيل الطلاب بمدى استجابتهم للتلقين دون أن نستفيد من التقنيات الحديثة لتطوير أسلوب

تعليمهم؟

إن الكثير من المؤشرات تدل على أن التعلم الإلكتروني سيكون أمرًا حتميًّا خلال الأعوام القادمة، ولن يكون هناك أي خيار أمام الأجيال القادمة سوى التعلم الإلكتروني كوسيلة لتلقي المعرفة أهمها:

- ندرة عدد المعلمين المتميزين القادرين على تقديم تعليم حقيقي للمتعلمين مقارنة بعدد المتعلمين الذي يزداد يومًا بعد يوم، مما سيجبرنا على استخدام التعلم الإلكتروني لتوفير التعليم لعدد أكبر من المتعلمين.
- المبالغ الكبيرة التي يتم صرفها على التعليم التقليدي دون نتائج ملموسة وحقيقية، مما سيجعل التعلم الإلكتروني فرصة لتوفير تعليم أفضل وبتكاليف أقل.
- ديناميكية المعرفة وتوفرها بشكل مستمر عبر شبكة الإنترنت، حيث لا يمكن للتعليم التقليدي أن يواكب هذا التغير أو أن يتعامل مع هذا الكم المتدفق من المعرفة. ومن ثم فالمتعلم اليوم بحاجة إلى تعليم إلكتروني حقيقي يمكنه من الاستفادة من المعرفة حوله بشكل أفضل.
- حاجة الأجيال الرقمية اليوم إلى أسلوب أكثر حداثة في التعلم يستغل ما هو متوفر من تقنيات تناسبهم، بحيث يكون قريبًا منهم بشكل أفضل. فالتعليم التقليدي والإلكتروني السائد لا يتناسب مع جيل، اليوم لأن المعلومات التي يقدمها المعلم للمتعلمين، ويطلب منهم أن يعيدوا تكرارها، هي في الأساس متوفرة وبغزارة على شبكة الإنترنت.

وحتى نكون مستعدين لذلك فنحن بحاجة إلى نظرة أخرى للتعلم الإلكتروني، لا تقف عند بث محاضرة إلكترونية أو لقاء بين معلم ومتعلم عبر الإنترنت، بل أن نتعامل معه على أنه عملية تعليمية متكاملة ترتبط بمجموعة من العناصر التي تجعله قابلاً يومًا ما، لأن يكون بديلاً للتعليم التقليدي وقريبًا لطبيعة المتعلمين اليوم. أهم تلك العناصر:

1 - البيئة المفتوحة:

إن الدمج والتكامل الذي نراه اليوم بين التطبيقات السحابية Cloud Computing والأجهزة المتنقلة Mobiles والشبكات الاجتماعية وتقنيات البيانات الضخمة Big Data أوجد بيئة تقنية مختلفة تمامًا عن تلك التي تعاملت معها الأجيال السابقة. فهي بيئة مفتوحة وغير محتكرة وغير مركزية ومتاحة في أي وقت وفي أي مكان ومن أي جهاز وبتكلفة منخفضة. بيئة يتسارع فيها التطور بشكل كبير، وتوفر حرية في العمل لم تكن متاحة للأجيال السابقة.

لذلك ينبغي أن يتم استغلال تلك البيئة المفتوحة بوصفها بيئة تعليمية مفتوحة في أي عملية تعلم إلكتروني. فلا يمكن لأنظمة تقنية جامدة أو صفوف دراسية محدودة أن تحد من تلك الحرية المتوفرة اليوم بين أيدي المتعلمين، وأن تنجح في إيجاد بيئة تعلم حقيقي كما كان الحال سابقًا. فالمتعلمون اليوم بحاجة إلى بيئة تعليمية ذات هيكلية ديناميكية تتلاءم مع تلك الحرية، وتستغل هذا التطور المتسارع وتلك الأدوات المتوفرة بشكل متكامل، وفي الوقت ذاته مرنة قادرة على استيعاب ما قد يأتي من جديد.

وتوفر تلك البيئة المفتوحة اليوم الكثير من الأدوات للمعلم والمتعلم، التي يمكن استخدامها في العملية التعليمية بشكل يضاهي الأدوات التعليمية التقليدية من حيث التكلفة والمرونة وسهولة الاستخدام وتوافرها في أي مكان أو زمان ومن أي جهاز. فالفصول الافتراضية وأدوات التواصل الاجتماعي والتراسل المباشر وإدارة المستندات الإلكترونية وأدوات التدوين والكتابة وأدوات بناء المقررات والمواقع التعليمية والتجارب الافتراضية وتقنيات الواقع الافتراضي كلها وسائل يمكن استخدامها لبناء بيئة تعليمية إلكترونية مرنة وقوية. الجدول التالي يعطي أمثلة لبعض تلك الأدوات:

التواصل الاجتماعي	Google Plus، Facebook، Twitter، Edmodo، Ring، Pinterest
أدوات التدوين والكتابة	Wordpress، Blogger، Tumblr، twitter
إدارة المستندات	Google Docs/Drive، Box، Dropbox، Alfresco، MEGA، Offcie 360، iCloud
البحث والمصادر التعليمية المفتوحة	Google Scholar، Google for Education، OER Commons، MIT OpenCourseWare، OpenCourseWare Consortium، MERLOT، Connexions، WikiEducator، Open of Course، EDUCAUSE، Commonwealth of Learning، iTunes U، Khan Academy، Dardasa، Tahrere Academy
إنتاج الوحدات التعليمية	Youtube، Teachertube، Kaltura، Panopto، ShareStream، Mediasite
الفصول الافتراضية	WIZIQ، Blackboard collobrate، YouTube Live، Skype، Google Hangout، WebEx، eLecta Live، CollabWorx
بناء المواقع التعليمية	Google Sites، Wikispaces، Wordpress، Coursesites، Odijoo، edublog Weebly
التجارب الافتراضية	LEARNZ، Tramline، airpano، vLab، LMS Virtual.Lab، Fractal Lab، oppia
التقويم	MakeAQuiz، QuizMagic، QuizStar، ClassMarker، surveymonkey

2 - مناهج دراسية مرنة:

إن ديناميكية المعرفة تفرض علينا أسلوبًا في التعليم مختلف تمامًا عن ذلك الأسلوب الذي ساد في التعليم التقليدي، وحتى في التعليم الإلكتروني السائد اليوم، فالمعرفة تتدفق علينا من كل اتجاه وهي متغيرة باستمرار، فما هو صحيح اليوم قد يكون غير صحيح في الغد. لذلك فلا مكان اليوم للكتب الدراسية الساكنة والأنشطة التعليمية المكررة وأساليب التدريس القديمة والبيروقراطية في التخطيط والتنفيذ.

ينبغي أن يعتمد التعلم الإلكتروني الحقيقي على مناهج مرنة يتم التعديل والتطوير فيها عامًا بعد عام، اعتمادًا على التغذية الراجعة التي ترد من المتعلمين أو المعلمين أو نتيجة التغيرات، التي يمكن أن تحدث في المعرفة أو في أدوات التعليم ذاتها. ينبغي أن تتضمن تلك المناهج منح المتعلم حرية أكبر في تحصيله للمعرفة من مصادر متنوعة دون إجباره على كتاب محدد، ليكون بذلك أكثر ابداعا وليس مجرد متلقنًا ومكررًا.

كما ينبغي عدم إجبار المتعلم على مسار تعليمي محدد في أي مقرر إلكتروني، بل أن تترك له الحرية في ترتيب أولوياته وفقًا لحاجاته. فهو من يقرر المسار التعليمي الذي يسير فيه وطبيعة المعرفة التي يحصلها، والمصادر التي لا يحتاج الاطلاع عليها أو تجاهلها. المهم هو أن يحقق الهدف الذي تم وضعه للمقرر، سواء من قبل المعلم وأيضًا من قبله هو كمتعلم.

وينبغي الاهتمام بالمحاضرات الإلكترونية التي يتضمنها المنهج الإلكتروني بحيث تكون محاضرات فعالة تبتعد عن أسلوب المحاضرة التقليدية التي تعتمد السرد. يجب أن تعمل المحاضرة على إرشاد المتعلم وتقوية التعلم الذاتي

> ”ينبغي أن يعتمد التعلم الإلكتروني الحقيقي على مناهج مرنة يتم التعديل والتطوير فيها عامًا بعد عام، اعتمادًا على التغذية الراجعة التي ترد من المتعلمين أو المعلمين أو نتيجة التغيرات التي يمكن أن تحدث في المعرفة أو في أدوات التعليم ذاتها. ينبغي أن تتضمن تلك المناهج منح المتعلم حرية أكبر في تحصيله للمعرفة من مصادر متنوعة، دون إجباره على كتاب محدد، ليكون بذلك أكثر إبداعًا وليس مجرد متلقنًا ومكررًا.“

لا يمكن للمعرفة أن تصل للمتعلم دون أن يمارس المتعلم ما تعلمه، لأنه في النهاية هو يتعلم ليعمل. هذه القاعدة لا تستثني التعلم الإلكتروني كما قد يعتقد البعض، بل على العكس تمامًا، فالتعلم الإلكتروني هو الذي يوفر الوقت لتفعيل الممارسة أكثر من التعليم الصفي. إن إستراتيجيات التعليم النشط والتعليم بالعمل من الصعب أن يتم تطبيقها بفعالية ضمن الوقت المحدود للحصة الدراسية أو المدة المحدودة للفصل الدراسي، ولكن يمكن أن يتم ذلك ضمن الوقت الكبير الذي يمكن أن تمنحه المقررات الإلكترونية.

لديه، كما ينبغي أن تتميز بالقصر، وتحوي عناصر جذب للمادة العلمية، التي يتلقاها المتعلم كالمؤثرات البصرية السمعية واستخدام القصة والحوار، وأن تكون أكثر تفاعلاً مع المتعلم، فيشارك أكثر في محتواها من خلال طرح الأسئلة أو التشارك مع الآخرين في النقاش حولها.

3 - **ممارسة حقيقية:**

لا يمكن للمعرفة أن تصل للمتعلم دون أن يمارس المتعلم ما تعلمه، لأنه في النهاية هو يتعلم ليعمل. هذه القاعدة لا تستثني التعلم الإلكتروني، كما قد يعتقد البعض بل على العكس تمامًا، فالتعلم الإلكتروني هو الذي يوفر الوقت لتفعيل الممارسة أكثر من التعليم الصفي. إن إستراتيجيات التعليم النشط والتعليم بالعمل من الصعب أن يتم تطبيقها بفعالية ضمن الوقت المحدود للحصة الدراسية أو المدة المحدودة للفصل الدراسي، ولكن يمكن أن يتم ذلك ضمن الوقت الكبير الذي يمكن أن تمنحه المقررات الإلكترونية.

وهذا ما ينبغي أن تبنى عليه الأنشطة التعليمية، التي يخوضها المتعلم في أثناء تعلمه في أي مقرر إلكتروني. فيجب أن تكون تلك الأنشطة أقرب للحياة العملية والمهنية بعيدة عن القيود الأكاديمية الجامدة، كما ينبغي أن تتضمن تعلم مهارات التخطيط والتفكير والإدارة والتحليل والنمذجة والتشخيص واتخاذ القرار والتفاوض والعمل الحقيقي الجماعي، لأن هذا ما سيحتاجه المتعلم بعد إنهائه العملية التعليمية.

وينبغي هنا الموازنة في العملية التعليمية بين استخدام الأدوات المتزامنة وغير المتزامنة Synchronous and asynchronous tools التي توفرها البيئة السحابية واستغلالهما بشكل كامل لبناء أنشطة تعليمية متكاملة للمتعلمين. فهناك الأدوات التي تحاكي الصف الدراسي التقليدي فتوفر لقاءً متزامنًا بين المعلم والمتعلم، وهناك أدوات أخرى غير تزامنية تدعم التفكير والتعلم الذاتي والمشاركة الجماعية دون ضرورة اللقاء بشكل مباشر، وكلاهما مهم في توفير بيئة تعليمية قد تفوق البيئة التقليدية.

ويجب ألا تنحصر الممارسة بحدود المقرر الدراسي الجامد ووقته، بل يجب أن تفتح آفاقًا أوسع للمتعلم، فينجزها وفقًا لقدرته وإمكانياته وضمن الوقت الكافي الذي يحتاجه. يجب أن تكون المهام المطلوب ممارستها أكثر تعقيدًا وعمقًا من مجرد نشاط تعليمي بسيط، بحيث تمثل تحديًا للمتعلمين، وتدعوهم للتفكير العميق والتأمل والتحليل والإبداع، وتجعلهم ينخرطون في المقرر الدراسي

نحن لا نحتاج إلى المدرس في التعلم الإلكتروني الحقيقي، بل إلى الخبير الذي يساعد المتعلمين على التعلم. فلم يعد المعلم هو المالك الوحيد للمعلومة بالنسبة للطالب كما كان الحال سابقًا، لأن المعرفة اليوم مشتركة ومتبادلة بين المعلم والمتعلمين، يتم اكتسابها عبر الحوار والتغذية الراجعة والممارسة، بل والمشاركة في محتوى المقرر من قبل المتعلمين.

بتفاصيله عبر ممارسة حقيقية لما يتعلموه دون حدود أو قيود لما يمكنهم تحقيقيه، فتعمل على جعل المتعلمين يكونون شيئًا جديدًا ومبتكرًا على الأقل بالنسبة لهم.

4 - **المعلم الخبير:**

نحن لا نحتاج إلى المدرس في التعلم الإلكتروني الحقيقي، بل إلى الخبير الذي يساعد المتعلمين على التعلم. فلم يعد المعلم هو المالك الوحيد للمعلومة بالنسبة للطالب كما كان الحال سابقًا، لأن المعرفة اليوم مشتركة ومتبادلة بين المعلم والمتعلمين، يتم اكتسابها عبر الحوار والتغذية الراجعة والممارسة، بل والمشاركة في محتوى المقرر من قبل المتعلمين.

يجب أن يهتم المعلم هنا برسم خارطة الطريق للمتعلمين ليتعلموا مع المتابعة المستمرة وتقديم النصح والمشورة والدعم عند الحاجة، معتمدًا على المساعدة الجانبية لهم Guide on the side دون التدخل المباشر، وذلك عبر توفير الخبرة التي يحتاجها المتعلمون وترتيب الأولويات ووضع المفاهيم التعليمية وإدارة الأنشطة الدراسية والمساعدة في النقاشات واقتراح مصادر للتعلم وحل أي

التعلم الذاتي هو أساس التعلم الإلكتروني الحقيقي، وأحد أهم دعائمه التي لا يقوم إلا بها، وهو ما يجعل المتعلم مركز العملية التعليمية وهدفها الرئيسي. فقدرة المتعلم على التعلم ذاتيًا هو ما يمكنه من الاستمرار في أي مقرر دراسي إلكتروني دون وجود المدرس كعنصر أساسي ومسيطر في العملية التعليمية، وما يساعد المتعلم على اكتساب المعرفة، لأنه يقوم بذلك بنفسه وبجهوده الذاتية.

مشكلات، والتقويم المستمر لتقدم المتعلم في مسيرته التعليمية، حتى يكون المتعلم على بينة مما يفعله ويصحح مسار تعلمه إن احتاج الأمر ذلك.

وليحدث تعلم حقيقي فمن الأفضل أن يدير العملية التعليمية الإلكترونية أكثر من معلم ضمن فريق عمل واحد لكل مقرر إلكتروني. فوجود فريق عمل متكامل لتقديم المقرر الإلكتروني سيؤدي إلى الاستفادة من خبرات مختلفة، كما سيساعد على وجود عدد أكبر من المتعلمين يستفيدون من المقرر الإلكتروني الواحد على عكس الدراسة التقليدية المحصورة في الصف الدراسي. ويجب أن يتناسب عدد أفراد فريق الدعم مع عدد المتعلمين، فكلما زاد عدد المتعلمين كلما احتجنا لمعلمين مساعدين للمعلم الرئيسي للمقرر، فشعور الطالب بوجود المعلم أمر ضروري لنجاح العملية التعليمية.

ويدعم المعلم المؤسسة التعليمية التي ينتمي لها، فكلما توافرت قاعدة معرفة لدى المؤسسة التعليمية كلما كان المعلم في التعلم الإلكتروني قادر على القيام بالمهام المنوطة به بشكل أفضل. تتكون قاعدة المعرفة تلك من المصادر التعليمية التي يمكن اتاحتها للمعلمين ليستخدموها وأيضًا من الخبرات التعليمية المختزلة لمعلمين آخرين، التي نتجت عن الممارسة على مدى حقبة زمنية، التي يمكن أن يستفيد منها المعلم، ويضيف لها في الوقت ذاته. فهذه الخبرات ستمثل معرفة ذات قيمة عظيمة لفريق المعلمين في حال توافرت لهم عند إعدادهم وتنفيذهم للمقرر الإلكتروني.

5 - **التعلم الذاتي:**

التعلم الذاتي هو أساس التعلم الإلكتروني الحقيقي وأحد أهم دعائمه التي لا يقوم إلا بها وهو ما يجعل المتعلم مركز العملية التعليمية وهدفها الرئيسي. فقدرة المتعلم على التعلم ذاتيًا هو ما يمكنه من الاستمرار في أي مقرر



دراسي إلكتروني دون وجود المدرس كعنصر أساسي ومسيطر في العملية التعليمية وما يساعد المتعلم على اكتساب المعرفة، لأنه يقوم بذلك بنفسه وبجهوده الذاتية.

يعتمد التعلم الذاتي على اهتمام المتعلم بما يتعلمه وعزيمته على الاستمرار في التعلم لتحقيق هدف محدد، ويتأتى ذلك من الدافعية التي قد يملكها المتعلم، أثناء الدراسة، والتي يجب أن تكون مرتفعة حتى يستطيع الاستمرار في التعلم حتى النهاية. وتنبع الدافعية من إيمان المتعلم بما يفعله وبالهدف الذي يسعى لتحقيقه وبجديته. ويرتبط ذلك بيقظة المتعلم لذاته ولما يتعلمه وإلى أين هو ذاهب، لأن ذلك ما سيساعده على التخطيط لتعلمه وتحديد المهام التي يحتاجها للوصول إلى الهدف المنشود.

ومن ثم فلا مكان للجدول الدراسي الجامد المعد مسبقًا وللقوالب الجاهزة للجميع في أي تعلم إلكتروني. بل لابد أن يحدد المتعلم الطريقة التي سيتعلم بها، والمصادر التي سيعتمد عليها والأدوات التي سيستخدمها، حيث يقوم المتعلم واعتمادًا على خبرته السابقة ومهارته من البحث والتواصل مع الآخرين للحصول على مصادر أخرى تساعده في عملية التعلم. ويتضمن ذلك قيام المتعلم بمجموعة من الأنشطة الذاتية التي يجب أن يدعمها أي مقرر إلكتروني، حتى تساعد المتعلم على بناء تلك المصادر المعرفية الخاصة به، وتشجعه على مشاركتها، فهذا سيضيف الكثير للمقرر الدراسي، ويدعم المعرفة التشاركية بين المتعلمين، ويثري المحتوى المعرفي للمقرر الإلكتروني. وأهم تلك الأنشطة:

- استخدام شبكات التواصل الاجتماعي للتواصل مع ذوي الخبرة أو مع أقرانه داخل أو خارج الصف الدراسي لاستشارتهم أو طلب مساعدتهم في أثناء تأدية الأنشطة التعليمية. فكثير من المعلومات التي يحصل عليها جيل اليوم تتم عبر تلك القنوات الاجتماعية.
- البحث عن مصادر تعليمية مساعدة عبر الإنترنت سواء مقالات أو تطبيقات أو مقاطع فيديو أو تطبيقات وسائط متعددة، ومشاركة تلك المصادر مع أقرانه في المقرر الدراسي. قد تكون هذه المصادر ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة بالمقرر الدراسي، لكنها تمثل حاجة لدى المتعلم تدفعه للبحث عنها.
- استخدام ما لديه من مصادر حصل عليها سابقًا نتيجة خبرته أو ممارسته لعمل معين حيث يقوم عادة بمشاركتها مع الآخرين والتعديل فيها لتلائم المقرر الدراسي.
- التعديل في المصادر التعليمية المتوافرة بالفعل من قبل المقرر الدراسي من خلال وسمها أو التعليق عليها أو التصويت لها، مما يعني إضافة معرفة وخبرة جديدة لها. ويمكن اتخاذ حوار المتعلمين جزءًا من تلك المصادر التعليمية.
- إنتاج محتوى جديد، حيث قد يعمد المتعلم إلى تأليف مقال أو صنع محتوى بصري أو تصوير مقطع فيديو يلخص معلومات معينة أو تجربة لها علاقة بالمقرر الدراسي، ثم يقوم بمشاركتها مع الآخرين.

ختامًا

إن التعلم الإلكتروني حتمي وقادم لا محالة لأجيالنا القادمة، فالتقنية وطبيعة المتعلمين ستفرض ذلك. وعلينا أن نكون مستعدين عبر التعامل مع التعلم الإلكتروني بوصفه نظامًا تعليميًا قد يكون بديلاً عن التعليم التقليدي وليس بوصفه مجرد لقاء تعليمي عبر الإنترنت أو محاضرة يتم بثها. يجب أن يتم العمل على بناء منظومة تعلم إلكتروني حقيقي يعتمد على بيئة تعليمية مفتوحة ومرنة ومعلمين خبرًا يساعدون المتعلمين في تلقيهم للمعرفة من مصادر متنوعة غير محصورة بمدرس أو كتاب أو زمان أو مكان، وتعتمد على ممارسة حقيقية لما يتم تعلمه، بحيث تساهم في إخراج متعلمين صالحين لسوق العمل وصالحين لأوطانهم.

"إن التعلم الإلكتروني حتمي وقادم لا محالة لأجيالنا القادمة، فالتقنية وطبيعة المتعلمين ستفرض ذلك. وعلينا أن نكون مستعدين عبر التعامل مع التعلم الإلكتروني بوصفه نظامًا تعليميًا قد يكون بديلا عن التعليم التقليدي وليس بوصفه مجرد لقاء تعليمي عبر الإنترنت أو محاضرة يتم بثها"



الأســس النفســية لسلوك النصيحة بين الإبداع والنقد



د. خالد بن ناهس الرقاص
أستاذ علم النفس المشارك – وكيل كلية المجتمع للشئون الأكاديمية

يُعد فهم آليات النقد والإبداع مقدمة ضرورية لصياغة إستراتيجيات للتوجيه الإيجابي للنصيحة في مجتمعنا، ومن هنا فإن المهمة الأساسية المناط بهذا المؤتمر تتمثل في الوقوف على الأبعاد والمنطلقات الفكرية والثقافية الكامنة وراء النصيحة، بوصفها مهارة اتصالية ومحدَّدة لمسار العلاقة مع الآخر، وفي هذا الإطار فإننا نأمل أن تضيف هذه الرؤية لبنة في مضمون فهم النصيحة كوسيلة اتصالية وسبلها تنميتها، ومن ثم، سلوك الآخر كأساس ضروري للتعامل البناء معه في إطار تقديم النصيحة وحري بالذكر أن اهتمامنا سينصب فيها على التفكير الإبداعي والناقد كوجه إيجابي من أوجه النصيحة، والوقوف على مبررات الاهتمام بالتفكير الإبداعي الناقد كمدخل إلى الإسداء الحكيم للنصيحة، يضاف إلى ذلك أن تلك المعرفة ستمكننا من توجيه النصيحة في المسار الإيجابي للآخر بالصورة التي تجعلها أيسر فهمًا وأمضى تأثيرًا لتعديل سلوكه.

يُعد السلوك الاجتماعي الإيجابي موجهًا لشتى مجالات حياتنا اليومية، ومن أبرز تلك السلوكيات اليومية سلوك النصيحة بوصفه قد يسهل تعايش الآخرين بعضهم بعض؛ لذا تحظى النصيحة باهتمام العديد من الباحثين والمفكرين الإسلاميين في سبيل استثمارها في الوجهة المرغوبة، وتتمثل النصيحة في أبسط معانيها في تعريف إجرائي قوامه محبة الخير للمنصوح ودرء الشر عنه في أمور دينه ودنياه وآخراه ، فهي حق من حقوق المسلمين، وواجب متبادل يجب شيوعه بينهم، كما يمكننا النظر إلى النصيحة بوصفها سلوكًا موجهًا نحو فرد أو جماعة بهدف تغيير اتجاهاتهم أو تعديل سلوكهم لدفع الضرر القائم أو المتوقع حدوثه، وبذا تنطوي النصيحة على المبادرة لتقديم الرأي والمشورة الصادقة لمن يحتاجها بوصفها مبدأً إسلاميًا أصيلاً (سعيد الرقيب،2008)، وقد جعل النبي عليه الصلاة والسلام لب الدين النصيحة فقال: " الدين النصيحة" قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم "[1].

ونجد أن الصحابة رضي الله عنهم قد فهموا المراد من حديث النبي، فطبقوه واقعًا عمليًا، فعن جرير رضي الله عنه قال: "بايعت رسول الله عليه الصلاة والسلام على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم"، فكان – جرير – إذا اشترى شيئًا أو باعه يقول لصاحبه: اعلم أن ما أخذنا منك أحب إلينا مما أعطيناك فاختر "[2].

قال ابن حجر في بيان النصيحة للمسلمين:" والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم والسعي فيما يعود نفعه عليهم وتعليمهم ما ينفعهم وكف وجوه الأذى عنهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه"[3].

بمعنى آخر أن النصيحة تحمل دلالة أوسع تشمل الاستشارة والإرشاد والتوجيه والعلاج انطلاقًا من دلالة الحديث النبوي الشريف.

وفيما يتصل بالأسس النفسية والفكرية القائمة على تقديم النصيحة وتقبلها بوصفها بعدًا نقديًا إيجابيًا:

سواء كانت النصيحة موجهة من الآخرين، أو للآخرين، فهي وسيلة مهمة لتقييم وتطوير القدرات ورأب الثغرات على كل من المستوى الشخصي والمجتمعي، ويتطلب توجيهها أو تقبلها أن يتحلى الفرد بعدد من الآليات التي قد تكفل له الاستخدام الأمثل حتى تصبح أكثر فعالية؛ لذا يجب تبني مجموعة من الأسس تتمثل فيما يلي:

1. أسس تقديم النصيحة:

– الهدف من توجه النقد أو النصح للآخر يتمحور في السعي نحو تحقيق هدف واحد من الأهداف الثلاثة التالية:

أ. أن يفعل شيئًا ما بطريقة أفضل.

ب. أن يتوقف عن فعل شيء غير مرغوب.

ج. أن يفعل شيئًا ما لم يقم بفعله.

– يجب الابتعاد عن التعبيرات التقييمية فهي تثير مشاعر الآخر وردود فعله الدفاعية، وبدلاً من أن تقول لصديقك (منظرك بهذا الشماغ سيء) قل (سيكون منظرك أفضل في غيرها)، ويعزى ذلك إلى أن وضع الشخص موضع اللوم شيء غير محبب، بل يجعله أكثر ميلاً لاتخاذ سلوك دفاعي – عدواني، وهنا ينبغي التمييز بين كل من النقد والعدوان والشك المرضي، فعلى سبيل المثال يتمثل الفارق الرئيس بين النقد والعدوان في أن الأول مواجهة نحو نقد الفعل ونقد الأفكار التي يطرحها الآخر لتنفيذها وتقييمها ، أما في العدوان فإن الهجوم ينصب على الفاعل لا على الفعل، أما فيما يتصل بالفارق الجوهري بين النقد والشك المرضي (غير المبرر) ، فيتمثل بأن الفرد في حالة النقد يعتمد على معايير منطقية في إصداره الحكم، في حين الشك المرضي قائم على توقعات غير عقلانية ليس لها أساس منطقي، فليس هناك سقف للشك مما يجعل الفرد يتشكك في المسلمات كالثوابت الدينية التي يقوم على أساسها المجتمع، وهذا شيء لا نرغبه بالطبع.

– لا تقدم تعبيرات عدائية تحط من قيمة الآخر، فعلى سبيل المثال لا تقل له: (أنت لا تحسن صنع شيء) ولكن

قل له: (يجب عليك تنفيذ ما أطلبه منك حرفيًا في المرة القادمة) أو (إن هذه المناقشة عديمة النفع) بل قل له: (أشعر أنني لم أستفد من هذه المناقشة)، وإذا شرحت لفرد شيئًا ما، ولم يفهمك لا تقل له: (إن كل الناس يفهمونني فلماذا لا تفهمني أنت؟) فهذا مثير لاستيائه، ولكن قل له: (ماذا تجده غامضًا في كلامي لأزيده وضوحًا).

- احرص على العبارات الموجهة مباشرة نحو الهدف، وليست السلبية، فلا تقل لمن يغضبك مثلاً: (إن سلوكك سيء ومرفوض) ولكن قل له: (أعتقد أن سلوكك هذا يحول دون توطيد علاقتنا).

- تجنب عبارات التهديد والوصاية، فلا تقل له: (إذا لم تفعل كذا لن أفعل كذا). تجنب العبارات التي تظهر مظهر الوصاية على الآخر، فلا تقل له: (يجب أن تفعل أو يجب ألا تفعل).

- النصيحة في السر وليست على رؤوس الأشهاد، وإلا أصبحت فضيحة لا نصيحة، فقد أورد عن الفضيل قوله: "المؤمن يستر وينصح، والفاجر يتهك ويعير (أي يفضح)" لذا فالنصيحة يقترن تقديمها في كثير من الأحيان سرًا في حين الفضيحة تقترن بالإعلان (الحافظ زين الدين الحنبلي، 1988).

- ينبغي فهم السياق الذي يحدث فيه السلوك قبل إصدار حكم من الأحكام (Naumann.2011)

- حدد التغيير المطلوب في سلوك الآخر بوضوح حتى يعرف ماذا عساه أن يفعل، لكي يكون أفضل حالاً، كأن تقول له: فضلاً توقف عن ممارسة السلوك (أ) (مخاطبتي بطريقه سوقية)، ومارس السلوك (ب) (خاطبني بطريقة مهذبة).

- أشعر الطرف الآخر بأنك تريد مساعدته، وأظهر له أن سلوكك يحكمه مبدأ حُسن النية، فالآخر قد يغفر لك سوء الرأي، لكن من النادر أن يغفر لك سوء النية (نقلا محمد أبو رزيزة، 2009).

2. فنيات تقبل النصيحة:

- تقبل نصيحة الآخر لا يعنى أن تقبلها بالضرورة، والمقصود هنا أن يتسع صدرك للإنصات لنقد الآخرين، غير أنك غير مطالب بالاستجابة لكل ما يوجه إليك من نقد، وإلا تحول الموقف إلى الوصاية بمعنى وجود طرف منقاد وآخر يملي إرادته. بل تقبل من حيث المبدأ النقد الذي يطرحه الآخر. وأشعره أنك تتفهم ما يقول، وتقبل دوافعه لذلك، ولكن لا توافق على الفعل السلوكي الذي يقدمه بصورة حرفية، وهذا لا يمنع من تنفيذ ما ترى أنه مناسب لك، فكما تقول الحكمة" أن أعين الآخرين مرآة عيوبنا" (جبرائيل سكاف، 1985، 40). وقد قيل في الأثر: "تقبل النصيحة بأي وجه، وأدِّها على أحسن وجه". فقد ورد أن رجلاً قال للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اتق الله يا ابن الخطاب. فضاق بعض

> **"يمكننا النظر إلى النصيحة باعتبارها سلوك موجه نحو فرد أو جماعة بهدف تغيير اتجاهاتهم أو تعديل سلوكهم لدفع الضرر القائم أو المتوقع حدوثه"**

الحاضرين من هذا، فقال عمر: دعوه، والله لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها.

- يجب أن تشعر الآخر أن أحكامك قابلة للمراجعة حتى يقبل على التحاور معك. وتذكر أن شعور الآخر أنك متضايق منه سيجعله يمتنع عن ذلك إن كان حريصًا على عدم فقدانك، ومن ثم ستخسر النصيحة الأمينة والعين الثانية التي ترى عيوبك حتى تتجنبها. ولا يفوتنا هنا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه "رحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي".

- تذكر أن وقت، وأسلوب، الشخص الموجهة إليه النصيحة، يحددان مدى فعاليته، أن التحديد التدقيق للتوقيت الذي يوجه فيه النصيحة يرفع من تأثيرها، والعكس صحيح، فلا تنقد أو تنصح شخصًا أمام الآخرين، أو وهو يشعر بالضيق، أو عندما يكون محتاجًا لمساعدتك. ويعين علينا هنا الالتزام بحكمة الإمام الشافعي الشهيرة " من وعظ أخاه على الملأ فقد فضحه وشانه، ومن وعظه في السر فقد نصحه وزانه" (عبد الغني الدقر، 1988)، فالنصيحة كالدواء الجرعة الزائدة تقتل، بمعنى أن تمارس التلطيف في توجيه النصيحة بوصفه ذا فائدة أكبر قياسًا بالنصح المكثف.

- شجع الآخرين على توجيه النقد الإيجابي وتحمل النقد منهم، فالنقد قد ينطوي على جانب من الصواب قد يكون غائبًا عن الفرد مما يجعله مدخلاً لتنمية قدراته وتوجيهها في الاتجاه الصحيح، مع حرص الفرد على تقديم عائد للناقد حول ما يسمع يتضمن ملاحظات حول الطريقة التي عبر عما يريد قوله، مما يفيد الآخر في إدخال تعديلات مستقبلية على طريقته في توجيه النقد للآخرين" أفكارنا تصبح أكثر نضجًا عندما تتجاوز عتبة شفاهنا" (جبرائيل سكاف، 1986، 226)، وليكن شعارك قوامه "أن من ينقدك كأنه ينقذك من الغرق في الخرافات".

- تعلم مهارات الإنصات من منطلق أنها تعد بابًا ملكيًا للحصول على الخبرة من الآخرين، وتفهمهم، والتعاطف معه، ومن ثم إسداء النصح والمشورة لهم. وتتمثل مهارات الإنصات في قدرة الشخص على تلخيص ما تم فهمه من حديث للطرف الآخر، بما يحويه من معارف مفيدة، تعد ذات أهمية خاصة في فهم الحوار.

- قدم عائدًا للناقد (الناصح) حول ما قال يتضمن ملاحظاتك نحو الطريقة التي عبر بها عما يريد قوله، وتأثيره الإيجابي، والسلبي عليك حتى يدخل بعض التعديلات مستقبلاً حول طريقته في توجيه النقد للآخرين، أو لك، وأن يحدد بصوره أدق ما الذي فعله واستدعى توجيه النقد له، وادعه لتقديم تصور إجرائي حول ما يمكن عمله حتى تنتفي مبررات النقد مستقبلاً.

خاتمة:

يجب علينا التحلي بضوابط وآداب النصيحة كأن يقصد الناصح الحق، وأن يبتعد عن الخلط أو المغالطة، والعناية بحدود الألفاظ والتحلي بالإنصاف والانضمام للحق، والابتعاد عن التقليد أو التعصب مصدقًا لأمر الله تعالى لسيدنا موسى وأخيه هارون عليهما السلام بنصح فرعون قائلاً جل جلاله:﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ طه: 44. فضلاً الالتزام بالممارسات الحكيمة للنصيحة والنقد حتى لا يتحول النقد أو النصيحة إلى ضرب من ضروب الشك والتشهير والوصاية على الآخر، فالنقد والنصيحة عندما يفقدان التوجيه الأخلاقي الحكيم يعدان غاية في حد ذاتهما ليس إجراء أو عملية توجيهية نرغب في جني ثمارهما. كما يجب علينا في هذا الإطار اعتبار منظور الآخر، وسلوكه، ودوافعه سواء كان فردًا أم جماعة أم ثقافة، بوصفها مهارة ضرورية لإقامة علاقات متزنة، وواقعية معه، وأكثر إثمارًا أيضًا، فضلاً عن أنها مقدمة لازمة للتعايش مع الآخر فقد ورد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوله: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ المائدة: 105 وإني سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابه". مسند أحمد: 36/1.

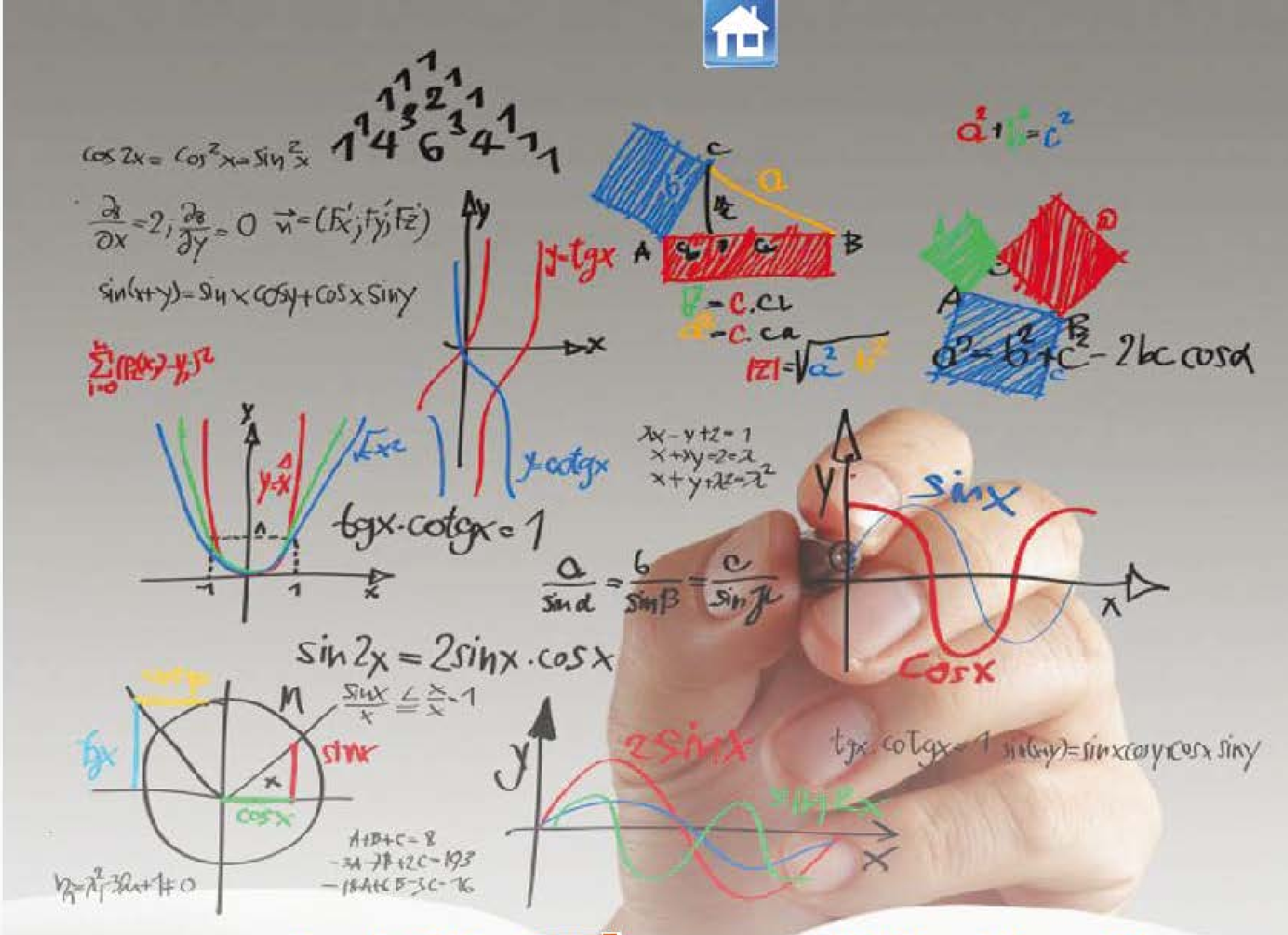
يبقى أن نشير إلى أن المكاسب التي يحققها الفرد من ممارسته للنقد لابد أن تتصف بقدر من الحكمة، حيث أن النقد المركز قد يؤدي إلى توتير علاقة الفرد أصدقائه حين يوجه لهم النقد، وهو ما لا نرغبه؛ لذا يجب أن يكون الفرد على وعي بذلك فالنقد كدواء يؤخذ بجرعات محددة، وألا يصبح سيفًا مسلطًا على رقابنا بدلاً من أن يكون في أيدينا لاستخدامه عند الضرورة، ينطبق على من يمارس النقد المكثف دائما قول الجاحظ: "لو تأملت أحوال الناس لوجدت أكثرهم عيوبًا أشدهم تعييبًا"، فكما يقول ديكارت" لا يكفي أن يكون لديك عقل (ناقد) جيد، بل الأهم أن تستخدمه بشكل جيد".

الهوامش

(1) أخرجه مسلم في صحيحه رقم (55).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه رقم (56) ، وابن حبان في صحيحه رقم (4546) ، واللفظ له.

(3) فتح الباري 137/1.



#وظيفتك_وبعثتك تكامل تنموي داخلي وخارجي

هند مبارك الدوسري

الرياض

طورت وزارة التعليم رؤية منهجية تكاملية للمرحلة الثالثة لبرنامج خادم الحرمين الشريفين للابتعاث الخارجي (#وظيفتك-وبعثتك) تقوم على دراسة الاحتياج الفعلي من الموارد البشرية في سوق العمل السعودي.

وتمثل هذه المنهجية أنموذج للتخطيط الإستراتيجي للمسارات الوظيفية، والتخطيط الإستراتيجي للمسار الوظيفي هو الربط بين الاحتياجات الوظيفية في التخصصات التي تحتاجها منظمات قطاعات الدولة والطموحات المجتمعية والتنظيمية والفردية، ويتطلب تخطيط المسارات الوظيفية في منظمات قطاعات الدولة مراعاة: توجهات الدولة الإستراتيجية، والتطور المُستدام، وتصميم ورسم المسارات الوظيفية الملاءمة لاحتياجات المنظمة الفعلية، وتعزيز التنافسية، والتوازن بين الفرص الوظيفية الحالية والمستقبلية عبر اكتشاف وتقييم الفرص الوظيفية، على أن يسبق ذلك أنظمة وتشريعات مرنة تسمح بالتخطيط الفعّال للمسارات الوظيفية، ولذا يُعدّ مشروع (#وظيفتك-وبعثتك) تنظيمًا عصريًا لحوكمة تخطيط المسارات الوظيفية، وسيلبي شاغر (13000) وظيفة تخصصية في قطاعات الدولة، ومن مؤشرات الرضا والإنجاز عن هذا المشروع الإقبال الكبير عليه، وتمديد مدة التسجيل، حيث بلغ عدد المسجلين (11608) وفق آخر إحصائية.

وكما تم التنسيق من قبل وزارة التعليم مع قطاعات الدولة المختلفة لتحديد حاجاتها من تخصصات الابتعاث، وعقد شراكات لتوفير الاحتياجات من طلبة المرحلة الثالثة لبرنامج الابتعاث لتوظيفهم بعد تخرجهم وعودته، فيمكن زيادة نسبة كفاءة وفاعلية مخرجات المشروع، بأن يتسع نطاق التخطيط له استهداف طلبة التعليم العام بمراحله

المختلفة - وألا يقتصر على خريجيهم - وبما يعكس منطق النظام، وترسيخ فلسفة تعزيز قيم العمل مبكرًا ضمن هيكلة متكاملة من الخطط، عبر تبني منحى تعليمي ينمي الميول والاتجاهات المهنية الطلابية المبكرة لهذه الاحتياجات الوظيفية، ويعزز القوة الاقتصادية بتنمية الكفاءات البشرية عبر مقاعد الدراسة مبكرًا. ويُمكن مخططي السياسات التعليمية وصنّاع القرار من مأسسة التخطيط الفعّال والمبكر للمسارات الوظيفية في مراحل التعليم العام وتنظيم تشريعاته.

ويتطلب ذلك بدايةً تبني منحى تعليمي تقوم فلسفته على دعم ركائز الاقتصاد القائم على المعرفة الخمس، وهي: النظام والأداء الاقتصادي والاجتماعي القائم على المعرفة وإداراتها، والعلوم والتقنية والابتكار، والتعليم والعمالة المعرفية، وتقنية العلوم والاتصالات.

وتعد العلوم والتقنية والابتكار إحدى ركائز الاقتصاد المعرفي لأنها أساس صناعة المستقبل التنموي، وحيث إن إحدى الفئات الرئيسية الست لمؤشرات الخطة الوطنية للعلوم والتقنية والابتكار هي: الموارد البشرية. فبوجود عجز في تلبية احتياجات القوى العاملة الوطنية والمؤهلة في تخصصات العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات، فإن من تبعات هذا العجز هو انخفاض المؤشرات الاقتصادية في العلوم والتقنية والابتكار. ومن أسباب هذا العجز طرق التدريس التقليدية، وقلة كفايات المعلمين في دعم إكساب الطلاب مهارات القرن الواحد والعشرين، وإنتاج المفكرين القادرين على حل المشكلات خاصة عبر تخصصات العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات.

ولأجل هذه المبررات المهنية والاقتصادية ظهرت توجهات تعليمية حديثة، ومنها منحى تعليم (STEM) التكاملي Science، Technology، Engineering، Mathematics . وتتضح المبررات المهنية في بُعد التخطيط الإستراتيجي بتوفير فرص وظيفية واسعة عبر تعليم STEM من خلال تأهيل الخريجين بالمهارات المطلوبة لسوق العمل في تخصصات مجالاته العلمية. وبالنسبة للجانب الاقتصادي فإذا أقررنا بأن الابتكارات لا تخرج عن كونها ضمن مجالات STEM أو تداخل فيما بينها أو تكامل. من ثم سيكون التركيز على تعليم STEM رافد قوي للاكتشافات العلمية والابتكارات التكنولوجية، وتعزيز المنافسة العالمية في عصر ترقى فيه المجتمعات وتتقدم بقدر محصولها من الإنتاج العلمي والتقني.

وتعليم STEM هو توجّه تطبيقي لدمج مجالات العلوم والتقنية والهندسة والرياضيات، وتدريسها عبر نموذج مترابط في نسق تكاملي واحد، يوفر سياقات تدريسية واقعية لمحاكاة العالم الطبيعي، عوضًا عن تدريسها منفصلة.

والسبب وراء اختيار هذه المجالات المعرفية الأربع كون العلوم والرياضيات تشكل العلوم الأساسية الحياتية، بينما التقنية والهندسة هي الجوانب التطبيقية لتلك المعارف والعلوم، بما يحقق معنى للتعلّم.

وظهر تعليم STEM للمرة الأولى في الولايات المتحدة الأمريكية بالتسعينيات من قبل المنظمة القومية الأمريكية للعلوم (NSF)، ثم تزايد الاهتمام به لارتباطه بالجوانب السياسية وتعزيز القوة الاقتصادية التنموية من حيث توفير القوة العاملة في مجالات العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات. كما أن مناهج STEM ليست موجهة فقط لتعلّم العلوم، وإنما هي موجهة أيضًا لتنمية ميول الطلاب تجاه هذه التخصصات مبكرًا، ولمعالجة مشكلة شاعت في السنوات الأخيرة على نطاق واسع تُعرف بـ "STEM Pipeline"، المتمثلة في نقص عدد الطلاب الذين يتابعون دارستهم في مجالات STEM العلمية، بسبب تسربهم مبكرًا مما يسمى "بأنبوب STEM" حين يفقد كثير من الطلاب الاهتمام بالعلوم والرياضيات في سن مبكرة. وأظهرت إحصائيات دراسة تتبعية في أمريكا إلى أنه بعام 2001 بلغ عدد طلاب الصف الثالث متوسط أكثر من أربع ملايين في أمريكا، تخرج منهم من الثانوية 2.8 مليون، والتحق بالجامعة 1.9 مليون، وبلغ عدد الخريجين الجامعيين 1.3 مليون، وعدد المتخصصين منهم في مجالات STEM 167000.

وتستثمر الولايات المتحدة الأمريكية ما يقارب ثلاث مليارات دولار في برامج فدرالية مرتبطة بتعليم STEM، وتصميم برامج STEM التعليمية لجميع المراحل التعليمية (من رياض الأطفال وحتى التعليم الثانوي). وأسس تصميم هذه البرامج تعتمد على التربية الهندسية والتكنولوجية والبيئية، واستهداف قضايا ومشكلات العالم الحقيقي في سياقات مجتمعية، والتأكيد على دور الهندسة (من منظور كيفية عمل الأشياء)، والاسترشاد بعملية التصميم الهندسي (عملية التصميم كطريقة لحل المشكلات)، وتطوير أفكار متعددة الحلول لها، وتصميم نماذج أولية للحلول واختبارها، للوصول إلى تصميم هندسي، ومنتج مادي تقني. وتتيح بيئة STEM احتمالات ثرية لحلول مبتكرة. وهذا ما يميز تعليم STEM تركيزه على دمج الهندسة في جميع المراحل التعليمية من رياض الأطفال وحتى الثانوية.

فإن تم تبني مثل هذه المناحي التكاملية في مراحل التعليم العام سيساعد ذلك في اكتساب خريجي طلاب التعليم المهارات اللازمة لبدء الحياة المهنية، وتشكيل اتجاهات الطالب المهنية، ومهارات سوق العمل ما قبل مرحلة التعليم الجامعي، وترسيخ ثقافة الإنتاجية، وتحقيق التكامل التنموي الداخلي والخارجي مع رؤية وتوّجه وزارة التعليم لمشروع (# وظيفتك ـــــ وبعثتك).

"وتعد العلوم والتقنية والابتكار إحدى ركائز الاقتصاد المعرفي لأنها أساس صناعة المستقبل التنموي، وحيث إن إحدى الفئات الرئيسية الست لمؤشرات الخطة الوطنية للعلوم والتقنية والابتكار هي: الموارد البشرية."

"وتعليم STEM هو توجّه تطبيقي لدمج مجالات العلوم والتقنية والهندسة والرياضيات. وتدريسها عبر نموذج مترابط في نسق تكاملي واحد، يوفر سياقات تدريسية واقعية لمحاكاة العالم الطبيعي، عوضا عن تدريسها منفصلة."

"وظهر تعليم STEM للمرة الأولى في الولايات المتحدة الأمريكية بالتسعينيات من قبل المنظمة القومية الأمريكية للعلوم (NSF)، ثم تزايد الاهتمام به لارتباطه بالجوانب السياسية وتعزيز القوة الاقتصادية التنموية من حيث توفير القوة العاملة في مجالات العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات."



الاستشراق الجديد و الإسـلام



د. علي عفيفي علي غازي

أكاديمي وصحفي

الاستشراق Orientalism تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق، ويطلق على كل من يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم. ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، التي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته. ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة، معبرًا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما.

بدأ الاستشراق بشكل رسمي حين صدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام 1312 بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية. ولم يظهر مفهوم الاستشراق في أوروبا إلا مع نهاية القرن الثامن عشر. فقد ظهر أولاً في إنجلترا عام 1779، وفي فرنسا عام 1799، كما أدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1838، وعقد أول مؤتمر دولي للمستشرقين في باريس سنة 1873، ثم تتابعت المؤتمرات بعد ذلك حتى بلغت أكثر من ثلاثين مؤتمرًا دوليًا، فضلاً عن الندوات واللقاءات الإقليمية الكثيرة الخاصة بكل دولة من الدول كمؤتمر المستشرقين الألمان الذي عقد في مدينة درسدن بألمانيا عام 1849، ومنذ انهيار القطبية العالمية في أعقاب الحرب الباردة 1990، وظهر اصطلاح جديد يتوافق مع عصر ما بعد الحداثة يتمثل في النيو استشراق، ويعني الاستشراق الجديد.

صدر عن وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية، العدد الثالث من سلسلة "مراصد"، بعنوان "تيار الاستشراق الجديد والإسلام من الشرق الشيوعي إلى الشرق الإسلامي"، للدكتور أوليفييه موس؛ أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة فرايبورغ في سويسرا ومدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية في باريس، قام بترجمة الدراسة عومرية سلطاني؛ مترجمة وباحثة في العلوم السياسية.

تعالج الدراسة موضوع انبثاق خطاب ثقافوي جديد في مرحلة ما بعد الحرب الباردة يتعلق بانتقاد الحالة الإسلامية وبشكل خاص الإسلام السياسي، وتتناول الدراسة عدة محاور رئيسة؛ هي: تحليل للاستشراق الجديد والرواية النيواستشراقية، وافتراضات الرواية النيواستشراقية، وسياق ظهور الاستشراق الجديد، والتحول من الاستشراق الكلاسيكي إلى الاستشراق الجديد، بالإضافة إلى دراسة كتابات "بات يجاور"؛ المؤرخة في الاستشراق الجديد، وتحليل موقف المرأة المحجبة في الرواية النيواستشراقية، وبحث تداعيات الرواية النيواستشراقية على الحقول الإعلامية والفكرية والسياسية.

يبين الباحث السويسري أن مصطلح "الاستشراق

الجديد" يعكس مذهبًا ثقافويًا جديدًا ذا طبيعة أخلاقية، وطريقة لأشكلة المجال الإسلامي والعلاقات بين الهوية الإسلامية والهوية الغربية، يقوم على تجديد افتراضات الاستشراق الكلاسيكي، ومتطلبات الدفاع عن قيم الديمقراطية والحداثة. ويمثل "الاستشراق الجديد" تجديدًا وإعادة تأهيل للأطروحات الاستشراقية الكلاسيكية في سياق يتميز بأدلجة متنامية للعلاقات بين الشرق الأوسط والدول الغربية، تعمل على تشجيع العودة إلى قراءة ماهوية للمجال الإسلامي، وتفضل الرواية النيواستشراقية تعبئة كُتّاب ينتمون إلى أوساط متنوعة، ويمكن أن تكون متعارضة على الصعيد الأيديولوجي أو السياسي.

تعرض الدراسة أربعة افتراضات يتهيكل حولها الاستشراق الجديد؛ وهي: المجال الإسلامي كل متجانس، الإسلام بشكل استثناء، جمود العالم الإسلامي، العنف الإسلامي هو نتاج ثقافي. ويؤكد المؤلف على وجود تحديد مزدوج لعالم عربي إسلامي يُنظر إليه ككيان متجانس، ومحددات ثقافية يفترض أنها تقدم معلومات عن الفعل الجماعي والفردي للمسلمين. وينتج عن هذا الموقف سلسلة من الافتراضات المنهجية التي تقدم اقترابًا مُبسطًا يختصر ظاهرة تتميز بالتعددية سواء في فضاءات المكان أو الزمان. فالاستخدام المتكرر للمبررات الدينية، واستخدام مفهوم الأمة بحيث يتم تجاهل التقسيمات الجغرافية والثقافية، والأسباب نفسها التي تؤدي إلى نفس النتائج، وفكرة الممارسة السياسية الإسلامية المشروطة باللاهوت، هي من ضمن أمثلة عديدة على هذه الافتراضات.

تستند السمة الثانية على استثنائية الإسلام (كحضارة)، بمعنى أن الإسلام بوصفه نظامًا للقيم يخبرنا عن كل نواحي الحياة الاجتماعية والفردية للمسلمين، وهي من المواضيع الأقل أهمية مرورًا بالمظاهر العامة، ووصولاً إلى الممارسة السياسية والاقتصادية. في هذا المنظور يفسر تيار الاستشراق الجديد نقص أو غياب الإجراءات والثقافة الديمقراطية في الدول العربية والإسلامية بوصفها نتاجًا لعوامل مرتبطة بـ "الهوية" في هذه المجتمعات: الثقافة، والدين، والتاريخ، وأن أي تطور نحو الديمقراطية والاعتراف بحقوق الإنسان لا يُمكنه أن يكون إلا نتاج قطيعة أو عملية تغريب.

أما فكرة جمود المجال الإسلامي فترتبط بشكل وثيق بفكرة الاستثنائية، وهي مظهر مهم آخر في الاقتراب النيواستشراقي، ويفترض شكلاً ما من الاتساق أن ينظر الاستشراق الجديد إلى المجال الإسلامي بوصفه كتلة مصمتة وساكنة، نمط من التعارض الذي يقيمه بين غرب ديناميكي، حديث، بشكل معقلاً للتحرر، ويوفر مساحات للإنجاز الفردي، وبين شرق جامد حيث يتشكل الفرد عبر الثقافة وعبر الدين، المؤطران بقوة عبر الأعراف الاجتماعية والجنسية. ويرتبط مخيال "الإرهاب الإسلامي" بشكل وثيق جدًا بتعريف لـ" العقلية العربية" وهو ما يفسر استخدام الإرهاب كنتيجة لـ" التأخر" الثقافي، ولخصائص محددة لثقافة عربية إسلامية.

تشير الدراسة، في إطار سياق ظهور الاستشراق الجديد، إلى أنه من بين النتائج التي أعقبت نهاية الحرب الباردة، شكل زوال الاستقطاب الإيديولوجي بين المعسكرين دون شك أحد المداخل القوية لفهم انبثاق وتكريس الرواية النيواستشراقية في المجال الفكري والإعلامي الأمريكي والأوروبي، وأدى انهيار الروايات التي كانت تمنح المعنى، مثل المواجهة بين الليبرالية والشيوعية، في سنوات التسعينيات، إلى سباق لأجل صياغة بديل للتوازن التقليدي بين الشرق والغرب، وتأتي قوة الجذب لدى الرواية النيواستشراقية بشكل خاص من هذا التجديد، الذي يطال أطلس الغربية في ترتيب عالم ما بعد الثنائية القطبية، من خلال اتباع خطوط التوتر المرتبطة بالهوية الإسلامية، وحدود الإسلام الدموية هذه رسمها "صامويل هنتجتون" على الخريطة بالمعنى الحرفي، في مقالته الشهيرة "صدام الحضارات".

يتطرق الباحث إلى فكرة اعتبار الاستشراق الجديد "إرهاب علمي": مبينًا أنه عبر المقابلات التي قادها مع عدد من ناشطي حركة الاستشراق الجديد، وعبر تحليل المؤلفات والمراجع، اتضح أن النقد الموجه للإسلام هو في قسم كبير منه ليس نتاجًا لحالة عارمة من الإسلاموفوبيا، ذلك أن معاداة الإسلام السياسي هي بالأحرى نتاج سياقات محددة وللتلاعب بها من قبل مجموعة متنوعة من الفاعلين لخدمة أجندات أيديولوجية أو سياسية، محلية أو وطنية. ويؤكد مووس على أن شخصيتين اثنتين كانتا في قلب الانتقال من الاستشراق الكلاسيكي إلى شكله الجديد: هما: عالم التاريخ البريطاني "برنارد لويس": الكاتب الذي نهل من تراث الاستشراق القديم، والذي ساهم مقاله: "What Went Wrong?" في "أثقفة" أو "أسلمة" أحداث الحادي عشر من سبتمبر. أما العالم الثاني فهو "صامويل هنتجتون"، حيث صاغ كتابه عن صدام الحضارات المفردات والأسلوب المناسب لقراءة هذه الأحداث.

تتطرق الدراسة إلى الأطروحات التي طورتها "بات يجاور": وهي مؤرخة بريطانية من أصول يهودية من مصر، خاصة مصطلحيها حول "الذميانية" dhimmitude و" أورابيا" Eurabia التي تميل لتصبح مواضيع مكررة، حيث كتبت نصوصًا يظهر فيها مصطلح "الذميانية": اللفظ المشتق من اللفظ العربي "ذمة" التي تشير إلى علاقات التبعية بين السلطة الإسلامية والسكان المسيحيين واليهود والزرادشتية. أما كلمة "أورابيا" فتصف نتاجًا هجينًا من الأوربة والإسلام، وانصهار اصطناعي حيث الضفة الجنوبية المتوسطية التي كانت



"تشير الدراسة، في إطار سياق ظهور الاستشراق الجديد، إلى أنه من بين النتائج التي أعقبت نهاية الحرب الباردة"

"من بين النتائج التي أعقبت نهاية الحرب الباردة، شكل زوال الاستقطاب الإيديولوجي بين المعسكرين"



تمثل حدودًا فيما مضى، تلتهم ضفة شمالية تتغافل عن هويتها اليهودية المسيحية. ويقول الكاتب إن كتابات المؤرخة البريطانية، منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001، وبفعل استثمارها في رواية الفاشية الإسلاموية، لا تجد صدى حماسيًّا لدى جمهور أقل أو أكثر تطرفًا من الناحية الأيديولوجية فحسب، ولكنها أيضًا تؤثر في أوساط أكثر أهمية من الناحية الفكرية.

يؤكد الباحث أن التفاسير في أوروبا، بشكل خاص، تتناول النيواستشراقية الممارسات المرتبطة بالحجاب بوصفه رمزًا يحيل، بشكل مزدوج، إلى حالة تمييز بين سلطة ذكورية فاعلة وبين خضوع أنثوي سلبي، وبوصفه شعارًا يدل على الفصل بين فضاء الحداثة وبين تقليد غابر. ويحاول تفسير النجاح في الربط المشترك بين المرأة المحجبة وبين فكرة الخضوع في المجتمعات الغربية، وذلك ممكن بفضل أداة كاشفة يوفرها نجاح نشر السير الذاتية لنساء "منشقات"، أي نساء مسلمات سابقًا اخترن الانتقال الرمزي من الشرق الإسلامي إلى الغرب العلماني. وفي أدبيات الاستشراق الجديد، فإن هذا الانتقال لا يمكن أن يتم، بدون حدوث قطيعة أو ردة. وتجسد شخصية "أيان هيرسي علي"؛ النائبة الهولندية السابقة ذات الأصول الصومالية، عبر كونها امرأة، ومن خلال لهجتها الحادة، وسيرتها الذاتية، رمزية هذا " المنشق في الإسلام"؛ اللقب الذي تعلنه عن نفسها بشكل صريح. وتؤكد حالتها اثنتين من الحجج الرئيسة في الرواية النيواستشراقية: الأولى هي وجود تعارض بين فضاء غربي، تحرري وبين فضاء إسلامي غير صالح ثقافيًّا أمام التحديث، والثانية في تقديم الحل للعالم الإسلامي إذا كان يريد الخروج من عصوره الغابرة فيحدث قطيعة مع "الإسلام".

مجموع هذه الإدراكات الواعية وغير الواعية التي تتبلور من حول "المرأة" هي التي تفسر العلاقة المتفردة التي تقيمها النظرة الغربية بين "المرأة المحجبة" وبين الأخرى" المسلمة المنشقة". عبر خلع الحجاب، سوف تتحرر هذه الأخيرة وتصبح غربية فإذن، حديثة. الممارسات المتعلقة بارتداء الحجاب تحمل دون شك معان عدة، تختلف حسب السياق، سواء بالنسبة للمحجبات كما في أعين أولئك الذين يتواجهون مع هذا الرمز. وإذا كانت ثنائية "التحرر عبر خلع الحجاب" في مقابل "حجاب رجعي" لا تشدد سوى على البعد المتعلق بالخضوع من ضمن التفسيرات الأخرى الممكنة، إلا أنه يأخذ كامل معناه في الرواية الإستشراقية. ولم تعد ديناميكية الهيمنة التي ترتكز على استخدام صورة المرأة على ما يبدو ذات طبيعة استعمارية فحسب، لكنها يمكن أن تستخدم أيضًا بوصفه تبريرًا دقيقًا لروايات صراعية في داخل الدول ومن خارجها. هكذا فإن إدانة وضعية المرأة والواجب المعنوي في تصحيح هذا الظلم الواقع عليها هي مكونات هامشية، جرى إعادة استخدامها من قبل إدارة جورج بوش الابن (2001-2009)، بهدف أن تضيف إلى الاستجابة العسكرية لهجمات 11 سبتمبر، بعدًا تدخليًّا ذا طبيعة حضارية.

يرى الباحث أنه يجب أن لا ينسب إلى الرواية النيوإستشراقية أثر قد يكون غير متناسب مع حجمها الفعلي. فالصورة المشوهة لهوية ولإستراتيجيات النضاليات الإسلامية المتورطة في النزاعات أو في مناطق التوتر، بالإضافة إلى الأدوار المختلفة، المؤسسية والمهنية التي يتولاها دعاة هذه الحركية، لا تستنفد العوامل المتداخلة في عملية اتخاذ القرار أو عدد الخيارات المتاحة أمام صناع القرار. وبالرغم من ذلك، فإن التعرف على تيار نيوإستشراقي والفاعلين الرئيسين فيه يسمح بتسليط الضوء على أحد الوكلاء الذين يتدخلون في تقليص إدراكاتنا وقدرتنا على التفكير بشأن مجال واسع للحركة بشكل مكتمل. هذا هو المظهر الرئيسي في الاستشراق الجديد، والمتمثل في التناقض الظاهر بين الجذب الذي يُمارسه حتى في الأوساط الأكثر تخصصًا، وبين طبيعته غير الإجرائية في نظر العلوم الإنسانية والاجتماعية.

يبين مووس أن الهدف الرئيسي للاستشراق الجديد ليس توفير أداة لفهم التحديات السياسية والاجتماعية التي يتورط فيها الفاعلون الإسلاميون، بل في التحرر من الوقائع التي لا تتوافق أو تتوافق بصعوبة مع "مصالح" هوياتية، أو مهنية، وأيديولوجية، أو أيضًا سياسية. وإمكانية إثبات وتأكيد هذه المصالح بإخفاء التحاليل المنهجية للأحداث والعلاقات بينها، لفائدة سرد للقصص، هي التي تجذب عددًا غير يسير من المتكلمين ومن الجمهور. وإذا كانت هذه الرواية لا تفسر شيئًا فهي في المقابل تحكي قصة صراع، وتعرض التفاعلات بين الهوية الغربية والهوية الإسلامية، حيث يتم فيها تسطيح الوقائع إلى حد كبير.

تختتم الدراسة بسؤال حول التشويش الذي أحدثه نجاح الرواية النيوإستشراقية، وما إذا كان له تأثيرات جانبية عملية أم أنه سيظل خطابًا هامشيًّا في وجود متغيرات قوية أخرى؟ ويبين أن الحتميات الدينية وفكرة الاستمرارية الثقافية توجد اليقين والقدرة على التوقع، فتمارس بذلك جاذبية على حزمة واسعة من الفاعلين، وسواء تم اعتماد هذا الخيار عن تقليد أعمى أو عن عقيدة أو بشكل براغماتي، فليس أكيدًا أن تَبَنّي هذه الأفكار وهذه اللغة لا يحمل تأثيرًا على إدارة المعلومات والقرارات والإجراءات المتخذة لدى هؤلاء. ذلك أن اللغة والمفردات المستخدمة، وطريقة "سرد" التهديد الإسلاموي، والنماذج التفسيرية تساعد في تأطير هذه الالتزامات، سواء على المستوى المحلي، كما تكشفه حجج المبادرة السياسية ضد بناء المآذن في سويسرا، أو على المستوى العالمي كما في حالة نموذج النزاع الإسرائيلي الفلسطيني.



في الحاجة إلى سقراط

د. عثمان حسيني

الرشيدية - المغرب



يرحل الكثيرون دون أن تكون لحياتهم ولا حتى لموتهم معنى يخلدهم في التاريخ، بل هناك من يحيى في صمت وفيه يموت ليترك من خلفه لا شيء يذكره. إن التاريخ البشري هو تاريخ تناقض مستمر على الدوام، يكاد يكون هذا التناقض هو المحرك الأساسي للتاريخ البشري؛ فهناك من يحيى بالحب وبعشقه يموت، وهناك من يحيى بالحرب وبسيفها يموت، وهناك من يحيى بالحكمة وبمحبتها يموت.

لا تكاد تذكر الفلسفة إلا ومعها أعداءها، فالتاريخ الإنساني يتذكر ولا ينكر، التحامل الذي أبداه أعداء الفلسفة في سبيل هدم صروحها المجيدة، لكنهم نسوا، ويا للغباء، أنها مشيدة بالعقل والمنطق والحجة والبرهان، وإن مساعيهم تلك تحيي الفلسفة، إنهم ينفخون نفسًا جديدًا في قلبها ويحشدون محبين وعشاقًا لها، فهم لم ولن يفهموا أن الصغيرة "صوفيا" وقعت في محبة الحكمة وخاضت رحلتها الجميلة وتذوقت لذتها، بسؤال قد يعده العامة صغيرًا وساذجًا، "من أنت؟"

بسهام بائسة ورماح منكسرة حاولوا قتل الفلسفة في الفيلسوف، وبرزانة عقل وبشجاعة قلب أحيا الفلسفة والفيلسوف، إنه سقراط العظيم الذي انبعث من رماد موته نفَس - بفتح الفاء - الفلسفة، لقد أفسد عليهم نخب ما اعتقدوا بأنه نصر.. ربما لم يكن يعنيهم موت الفيلسوف بقدر ما كانوا ينتظرون موت الفلسفة، وربما كانوا ينتظرون لحظة ضعف يستسلم فيها العقل لعاطفة المحبين والأصدقاء، لكن الحكمة انتصرت على الأهواء والعقل خان العاطفة وبسعادة الموت تلاشت الحياة، فحتى حين أصدروا حكمهم الجائر بتهم رخيصة، لم يكن صعب عليه تفادي الموت، ولكن "الهرب من الشرور أصعب"، كما يقول، لأن "شرور الكون هي الأسرع"، فهكذا لم يستطع فيدون إخفاء غرابة شعوره أمام لحظة لم ولن تتكرر كثيرًا في التاريخ البشري، قائلاً: في الواقع إن شعوري كان غريبًا حقًا وأنا إلى جانبه - يقصد سقراط قبيل الموت - وفي الحقيقة لم تتملكني الشفقة عندما كنت أفكر أني أشاهد رجلاً كنت أتعلق به كثيرًا ذلك لأنه بدا أمام عيني سعيدًا سعادةً لا يعرفها إنسان أبدًا".

إنه لتأكيد حق، لقيم النبل والشجاعة الحقة، التي تبناها سقراط كممارسة وليست كقناعات نظرية تتهاوى أمام أولى لحظات الحقيقة والواقع، "فالذي قضى حياته في الفلسفة حقا، تكون نفسه مليئة بثقة عظيمة في لحظة الموت"، وليس سقراط إلا واحد من الذين تعلقت قلوبهم وعقولهم بمحبة الحكمة، لذلك فقد كان منشغلاً عن الموت بالحديث عن اللذة والألم وتحرير الفكر، والفضيلة الحقة، والتطهير والحجة، وموضوعات الحواس والفكر والمسائل العامة للطبيعة وحتى واجب الاهتمام بالذات... فالموت لم يكن يعنيه في شيء "يوجد حينًا لا نوجد، ونوجد حين لا يوجد".

ها هنا حقًا وصدقًا تصبح الحاجة إلى الفلسفة، أكثر من غيرها، ضرورية؛ ذلك إن الإنسان الفيلسوف وحده يشعر بملكية الفكر ومعه الحرية وسعادة الموت، كم تبغضك على سعادتك بموتك يا سقراط، وكم هم أعداؤك بائسون، بائسون، تعساء حين اكتشفوا أنهم فشلوا أيما فشل في احتلال وجود الفلسفة لما طردتهم من كينونتها إلى سفسطتهم المتلاشية.



تأليف: شاييم بيرلمان

ترجمة: أنوار طاهر* *

العراق

فلسفة الحجاج القانوني

بين شمولية السلطة وعنف الأيديولوجيا*

إن التظاهرات السياسية وحملات العصيان المدني والاستنفار الأكاديمي، التي انتشرت في جميع أنحاء العالم خلال السنوات الأخيرة، جرى عرضها في كل مكان تقريبًا، بوصفها تمردًا على السلطة autorité التي ما إن أصبحت مرادفًا لمفهوم القوة pouvoir وذلك نتيجة لاستعانتها بقوة البوليس العام، بدأت تشكل تهديدًا مستمرًا تجاه الحريات الفردية.

وقد تناول الفيلسوف الانجليزي جون ستيوارت مل، ومنذ أكثر من قرن، لقضية التعارض القائم بين السلطة والحرية، وذلك في دراسته المعروفة: حول الحرية " On liberty " والتي اقتبس منها النص التالي:

«إنَ الصراع بين كل من الحرية/ والسلطة هو من السمات الأكثر وضوحًا في تلك العصور التاريخية المألوفة بالنسبة لنا، بدءًا من اليونانية والرومانية وحتى الإنجليزية... حيث كانت تعني الحرية، الضمان والحماية ضد طغيان الأنظمة السياسية... ففي الماضي البعيد، كان الحكم عمومًا يتمثل في شخص واحد، أو في قبيلة أو في طائفة، وكان يستمد سلطته من الحق في الإرث أو في الغزو والفتح، وفي جميع الأحوال، هي سلطة لا تؤخذ برضا المحكومين، الذين لا يمتلكون الجرأة الكافية، أو ربما لا يرغبون، في مواجهة نفوذها، مهما كانت نوع الاحتياطات التي يمكنهم اتخاذها ضد ممارساتها القمعية»[1].

ويُلاحظ فيما بعد أن جون ستيوارت مل، لم يعد يستعمل مصطلح "السلطة" autorité، مستعيضًا عنه، على الدوام، بمصطلح "القوة" pouvoir، كما لو أنهما مترادفان. لكن، هل يمكن استبدال الواحد منهما بالآخر؟ فإذا ما قلنا عن أولئك المتحكمين بزمام القوة، أنهم يمثلون "روح السلطات وجوهرها"، فهل يعني ذلك اعترافًا منا بشرعية نفوذهم، التي ما إن تتلازم معها بالضرورة، ممارسات تقديم فروض الطاعة والولاء والتزلف، حتى نمضي قدمًا في التعامل مع كل من مفهومي "السلطة" و "القوة" بوصفهما مترادفين. وهذا ما أشار إليه الفيلسوف الساني الفرنسي إميل ليتريه LITTRÉ ÉMILE، في ملاحظة له ذكرها في قاموسه الكلاسيكي الشهير، حول مفردة autorité، حينما سلّم أن هناك جانب معين في استعمال مصطلحي السلطة والقوة بجعلهما متقاربين بعضهما من بعض، لكنه عاد ليستدرك: «إلى أنه لما كانت السلطة هي من تسمح بشيء ما، والقوة هي من تقدر على تنفيذه، لهذا، دائما ما تتوفر السلطة على ملمح من التأثير المعنوي/القيّمي morale الذي لا تنطوي عليه القوة بالضرورة.

في الواقع، أن التعارض بين كل من مفهومي: السلطة والقوة، مثلما هو الحال عليه بين الوقائع والقانون، استمر حتى القرن الثامن عشر، لذلك، نجد أن الأسقف وفيلسوف الأخلاق الانجليزي جوزيف بتلر Joseph Butler، في موعظته الثانية، قد جعل من قوة الانفعالات le pouvoir des passions مناقضًا لسلطة الوعي l'autorité de la conscience؛ ومن ما ينبغي الالتزام به من معايير مسيطرة مخالفًا لما ينبغي الخضوع له بسبب تفوقه الأخلاقي[2]. فكلمة السلطة في اللغة اللاتينية L'auctoritas، تعبر عن كل ما يأمر به الحاكم ويُصادق على صلاحيته، بإرادة من المحكومين، ومن ثمة، فهو إذن، يقوم بتحوير مفهوم الإرادة ليكون تعبيرًا عن "فعل" غير نافذ الصلاحية من الناحية التشريعية، عديم الفاعلية من الناحية القضائية في آن واحد.

وإلى ذلك النوع من التعارض، أشار أيضًا الفيلسوف الفرنسي جاك ماريتان في تقريره التاريخي والموسوم: الديمقراطية والسلطة "Démocratie et Autorité "، الذي نُشر في المجلد الثاني الذي كرسه المعهد الدولي لفلسفة السياسة لموضوعه القوة، وطرح فيه تعريفين اثنين:

«نعني بمصطلح "السلطة" حق الحكم وفرض الأوامر من جانب الحاكم، وواجب الطاعة والخضوع له من جانب المحكومين؛ أما مصطلح "القوة" فنقصد به ما نملكه من نفوذ يمكننا من إجبار الآخرين على السمع والطاعة. فالإنسان العادل المحروم من كل أشكال القوة والمحكوم عليه بتجرع السم، لا يُدني – بل يُعلي – من سلطته الأخلاقية. أما اللص أو الطاغية، فهم يبطشون بقوتهم دون أن يتوفروا بالضرورة على السلطة، وهذا ما جعل من مؤسسات مثل مجلس الشيوخ الروماني القديم والمحكمة العليا للولايات المتحدة، مؤسسات تستعرض لسلطة كبيرة غير متماثلة بالضرورة مع مقدار ما تؤديه في الواقع من

وظائف ضمن نظام القوة المُتَنفِّذ... فمن أجل أن تحقق السلطة تأثيرًا كاملاً على الحياة الاجتماعية، لابد وأن تستند على مبدأ القوة (بغض النظر عن أن يكون نموذج تلك القوة مشرعًا له قانونيًا)، ومن دونه ستكون السلطة غير فعالة وغير متنفّذة وعديمة التأثير على الشعب. كل قوة لا تعبر عن سلطة ما، ستكون قوة ظالمة. من هنا، كان الفصل بين القوة والسلطة، يعني الفصل بالضرورة بين النفوذ والقانون» [3].

ولطالما أكد الكاتب الفرنسي برتراند دي جوفنيل في دراساته المتميزة: "حول القوة Du Pouvoir" و "حول السيادة De la Souveraineté" على أهمية السلطة في مجال السياسة، حيث: «أطلق مفهوم السلطة على مدى القدرة في كسب قبول الآخر، أو بالأحرى، هي من يمثل السبب الفعال في تحشيد الجموع طوعيًا. ذلك الحشد الذي أرى فيه ممارسات السلطة المتنفّذة بوضوح كبير جدًا.

لا شك في أن لكل مؤلف الحق في استعمال أي كلمة ضمن المعنى الذي يختاره، شريطة أن لا يكون استعمالاً خارج السياق العام والمألوف، لكننا برغم ذلك نقع في الالتباس حول مسألة فيما إذا كان المعنى المعطى للكلمة ليس بقريب من معناه المعتاد، وعلى ما يبدو إنني وقعت أيضًا في تلك الحالة. وذلك لأن هناك الكثير ممن يعمد إلى المماثلة بين مصطلح الحكومة الاستبدادية "gouvernement autoritaire" وبين الحاكم الذي يلجأ إلى الاستخدام المفرط للعنف، قولاً وفعلاً، من أجل إخضاع الشعب له. فحاكم مثل هذا، وحسب رأيي، إنما يفتقر إلى السلطة الكافية للاضطلاع بوظائفه على الوجه الأمثل. لذلك نراه يلجأ إلى ردم تلك الفجوة بأداة الترهيب. من الملاحظ أن هذا الانحراف الحاصل في معنى كلمة السلطة، هو حديث العهد، ومحاولتي إنما تأتي لغرض إعادة وضعه في مجرى سياق معناه التقليدي الأصلي» [4].

ولفت جوفنيل إلى أننا نلمح ذلك التحريف في استعمال مصطلح السلطة، عند من يماثل بين كل من: سلطة القانون والخوف من العقاب، برغم أنه في الواقع، لا ينبغي لقوة البوليس التدخل إلا عندما لا يصبح الاحترام الواجب أمام القانون مبدأ كافيًا في تجنب انتهاكه.

لهذا، غالبًا ما يلازم عرض خطاب السلطة حضورًا/ وسيطرة لنزعة معيارية، فلابد من قواعد محددة ينبغي اتباعها أو الخضوع لها، كسلطة الحكم المقضي فيه، أو سلطة العقل أو سلطة الخبرة. في الواقع، إن من يملك القوة دون سلطة، قد يجبر الآخرين على الخضوع له، لكن ليس على احترامه.

نلاحظ أن مفهوم السلطة في التقليد اليهودي- المسيحي، لا يرتبط بالقانون، وإنما بقواعد القيم الأخلاقية morale، وهو ذو صلة مباشرة بمبدأ الاحترام. من هنا، نجده مفهومًا يُمثل في أنموذج سلطة الأب على أولاده،

«نلاحظ كثيرًا أنه قد أصبح من الرائج في مجال السياسة أو مجال الدين، أن يتم الاستعانة بصورة الأب من أجل التعبير عن الاحترام والتقديس الواجب تقديمه تجاه زعيم كاريزمي»

فهو الذي يُعلمهم ويُرشدهم حول ما ينبغي القيام به وما يلزم تجنبه، وذلك ما يلقنهم إياه عبر التقاليد والعادات وأعراف الوسط العائلي والاجتماعي الذي سينضمون إليه لاحقًا. إن السلطة المستمدة من الأب هي نفسها التي للمعلم، الذي يحدد لتلاميذه الطريقة الصحيحة في القراءة والكتابة، وما ينبغي عليهم اعتباره صحيحًا أو خاطئًا. فالقول المأثور: المعلم قال بذلك، magister dixit (هو قول حقق للفيلسوف فيثاغورس مكسب ضمان خضوع تلاميذه الكامل لكل الحقائق المطروحة دون فحص واختبار أو حتى إبداء رأي أو فتح جدال) هو أفضل مثال على تبرير عمل السلطة. على أي حال، لا يمكن أن يتشكل حضور مبدأ المساواة سواء في العلاقة بين الأب وأولاده الخاضعين لسلطته الأبوية، ولا في تلك العلاقة القائمة بين المعلم وتلاميذه في المدرسة الابتدائية، لأنه في واقع الأمر، كل تربية، بل وكل تعليم، في أي حقل كان، لابد وأن يتأسس على مرحلة من التلقين، حيث يكون فيها من العبث الاعتراف بمبدأ مساواة المُلقِن مع المُلقَن له. فمن اللازم منح بعض من السلطة للشخص المسؤول عن التعليم، حتى وإن كان تعليمًا لتلاميذ بالغين.

فإذا ما قصدت معلمًا من أجل أن يعلمني أصول علم الكيمياء أو أسس اللغة الصينية، ينبغي حينها، سيما في مرحلة التعليم الأولى، أن امتثل إلى توجيهاته وتعليماته، لأن ما يعرضه المعلم من انتقادات يفترض المعرفة بالحقل الذي يشتغل عليه. ولهذا السبب، نجد أنه من الطبيعي أن يكون التعليم الابتدائي أكثر دوغمائية من التعليم الثانوي، وأن تكون سمة التعليم الجامعي هي التدرب على التفكير النقدي. وهذا على أي حال لا يتعلق بمسألة السن والمستوى التعليمي فحسب، وذلك لأنه حتى في التعليم الجامعي، هناك مواد دراسية غير معروفة للتلاميذ، مثل اللغة الصينية، تحتاج حتمًا إلى دورة من التلقين والتعلم. لكن ذلك سيحصل على أساس من الاعتياد المسبق على التفكير النقدي في مواد ومقررات علمية أخرى.

إن استبعاد الفيلسوف الفرنسي ديكارت لأي دور للتربية، بأحداث قطيعة مع سلطة الماضي، قاده إلى افتراض وجود أفكار فطرية في ذهن كل كائن عقلاني، وهذا ما قاد الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو يمضي في مؤلفه "إميل أو عن التربية" إلى بناء نظرية غريبة بعض الشيء، بدعوى أن لا مكان لتدريس العلوم للأطفال، بل ينبغي عليهم اكتشافها بوسائلهم الخاصة. لكننا أصبحنا على علم اليوم، أن المناهج ذات الفاعلية العملية تستلزم


شايم بيرلمان

ضرورة وجود المعلم الذي يتوفر على الكفاءة وروح الإبداع أكثر بكثير من تلك التي تتطلبها المناهج التقليدية التي يمكن أن يستعاض فيها، عند الحاجة، عن المعلم بكتيب تعليمي موجز.

بالطبع، أن من غير المعقول إنكار الدور الأساسي لسلطة الأب والمعلم تجاه الأطفال الصغار، لكن المشكلة الأساسية تكمن في تحديد المرحلة والطريقة التي ينبغي أن تنتهي فيها علاقة السلطة تلك، لتفسح المجال تدريجيًا لعلاقة من التعاون والتبادل النقدي، والأهم من ذلك أيضًا، تحديد الدور الذي ستلعبه السلطة داخل بنية العلاقات بين البالغين.

نلاحظ كثيرًا أنه قد أصبح من الرائج في مجال السياسة أو مجال الدين، أن يتم الاستعانة بصورة الأب من أجل التعبير عن الاحترام والتقديس الواجب تقديمه تجاه زعيم كاريزمي. فالأب بالنسبة للوطن يمثل "ميتافورا" للزعيم السياسي، الذي كانت/ وستكون أفعاله مبدعة ومحصنة على الدوام. فعلى سبيل المثال لا الحصر، الآباء المؤسسين "Founding fathers" للولايات المتحدة الأمريكية، هم الأجداد الذين قاموا بصياغة الدستور الأمريكي ومن ساهموا / ولا زالوا يساهمون في ترسيخ الاحترام والامتثال لذلك الدستور. إن عبادة الأسلاف شائعة جدًا في أغلب البلدان الأسيوية والأفريقية، لكنها معروفة بصورة لافتة للنظر أكثر في التقليد اليهودي-المسيحي. ففي سبيل إظهار ما ندين به للرب من مشاعر حب واحترام، ندعوه بـ"أبينا، ملكنا". حتى إن الصلاة اليومية سواء في الديانة اليهودية، أو في الديانة المسيحية، تبدأ عادة بكلمات معروفة للغاية: "أبونا الموجود في السموات". فأضحى قس الكنيسة قابضًا، في آن واحد، على سلطة الأب وعلى سلطة المعلم، طالما كان

هو الذي يدرك الحقائق الصالحة والضامنة لخلاص العباد المؤمنين.

يُعدُّ الإله في التقليد العبري هو الحافظ للسلطة السياسية. ولا يمكن التشريع لسلطة نظام ملكي إلا بتفويض ديني، ليصبح الملك خادم السيد المسيح خليفة الرب. فكل سلطة سياسية تصدر عن الرب، مسؤولة بالضرورة أمامه.

وقد استعمل ميتافور الأب هذا، في العصور الوسطى أيضًا، للتعبير عن علاقة السيد مع العبيد، وفيما بعد، من أجل تحسين صورة علاقة الكولونياليين مع الناس الملونين "أطفالهم الكبار" حسبما يصفونهم به. إن النظام الأبوي/ البطريريكي paternalisme الذي يعبر عن ذلك الاتجاه يفتقر كثيرًا اليوم للمصداقية والاحترام.

إن التقليد الفلسفي الغربي منذ سقراط وحتى يومنا هذا، طالما وقف بالضد من مبدأ السلطة، بحجة البحث عن الحقيقة، التي جرى بسببها إدانة سقراط بكونه معارضًا لايديولوجيا السلطة الأبوية/ البطريركية. وفي وقت لاحق، عدّ الفيلسوف التجريبي الإنجليزي بيكون السلطات التقليدية نقيضًا من سلطة المعاني والتجربة، التي أعدَّها الفيلسوف الفرنسي ديكارت مناقضًا للعقل. وخلال صراعه مع الكنيسة، رأى عالم الرياضيات والفلك الإيطالي غاليلو أن سلطة الإنجيل وسلطة أرسطو المطلقة تقع على النقيض مع كل من: الملاحظة والمنهج التجريبي. لقد أعد فلاسفة عصر الأنوار كل الحقائق المفروضة تحت ذريعة السلطات الدينية أو العلمانية، هي ادعاءات وأحكام مسبقة تفتقر للموضوعية.

من المؤكد، أنه كلما توفرت مناهج مؤسّسة على التجربة، تسمح باختبار وفحص قيمة إثبات/ ادعاء ما، وملاحظة صلاحية فاعليته على الدوام. سوف لن تعلو عليها أي سلطة كانت، وسينظر إلى الواقعة بعين التقدير أكثر بكثير من سلطة عمدة المدينة. فإذا ما استعنا سواء بالتجربة أو بالحساب، واستطعنا إن نصل إلى النتيجة نفسها، دون خطأ. عندها، لا تصبح فكرة اللجوء إلى سلطة معينة، عديمة الجدوى فحسب، بل وغير مألوفة بشكل كاف أيضًا. فمن أجل الإقرار بأن واحد + واحد + اثنان = أربعة، هل نحن في حاجة إلى سلطة تثبت ذلك: عندما يتوفر الجميع على مناهج تطبيقية، تقود كل واحد منهم إلى نتيجة واحدة، حينها فقط، سيتحقق مبدأ المساواة بين الجميع، ويصبح التذرع إلى سلطة ما، بكل بساطة، فكرة مثيرة للسخرية.

غير أن التقليد الكلاسيكي المؤسّس، ولعدة قرون، على قيم دينية تارة، وفلسفية تارة أخرى، عمل على ترسيخ الادعاءات بوجود جواب صائب وصالح في حل جميع المشكلات الإنسانية المطروحة بشكل جلي. إنه الجواب، الذي يعلمه الإله منذ الأزل، وينبغي على كل كائن عاقل أن يسعى حثيثًا لاكتشافه.

> **"فأنا على الرغم من اعتقادي الشخصي بوجود دور للعقل العملي، إلا إنه مجرد دور سلبي، يتلخص في أنه يسمح بأن نستبعد الحلول المخالفة لما هو عقلاني. لكن لا يوجد ما يضمن لنا وبطريقة عملية وجود حل صحيح واحد"**

لكن، علينا أن نتساءل هنا، هل يوجد، في الواقع، لكل سؤال يمكن أن يطرحه الإنسان بصورة عقلانية، جواب واحد وصائب بالضرورة؟ وهل يمكننا الاعتراف بإمكانية الوصول إلى حقيقة واحدية، أو على الأقل بوجود مناهج تسمح باختبار كل فرضية خاصة بتلك الحقيقة وبإمكانية صياغتها؟

لا يمكن إنكار أن عددًا كبيرًا من العلوم سيما المتعلق منها بالمعرفة تحديدًا، ينبغي أن يسود فيها مثال الحقيقة على جميع الاعتبارات الأخرى. لكن عندما يتعلق الأمر بالسلوك، وتمييز العادل من الظالم؛ والجيد من السيئ، وما يتصل بمعرفة الدوافع التي تحثنا على القيام بفعل ما؛ أو إلى اجتنابه. هل توجد فعلا، حقيقة موضوعية تحدد طبيعة السلوك الأفضل في اتخاذ قرار ما أو اختيار معين؟ إن لم يكن كذلك، هل يمكن أن يكون العقل هو الذي يقودنا في إنتاج أفعالنا؟ ألا تحمل فكرة القول بوجود عقل عملي كما اعتقد بها الفيلسوف الانجليزي هيوم، تناقضًا مفاهيميًّا في ذاتها؟

فأنا على الرغم من اعتقادي الشخصي بوجود دور للعقل العملي، إلا إنه مجرد دور سلبي، يتلخص في أنه يسمح بأن نستبعد الحلول المخالفة لما هو عقلاني. لكن لا يوجد ما يضمن لنا وبطريقة عملية وجود حل صحيح واحد. إذن، في هذه الحالة، إن لم يكن هناك حلاً واحدًا نافعًا في المسائل العملية، كذلك الذي يقدمه لنا الجواب الصائب في المسائل النظرية، فسوف لن تكون اختياراتنا في حل مشكلاتنا مستمدة بعد الآن من العقل بل من الإرادة volonté.

ومن وجهة النظر أعلاه، أصبحت القوانين والقواعد الإلزامية في الدولة، تعبيرًا عن إرادة الملك العليا المفروضة على كل القوانين التي جرى تسييسها وبما يتلاءم مع مصلحته الخاصة، وذلك حسب آراء العديد من فلاسفة النظرية السياسية منذ السفسطائي تراسيماك الذي عرّفنا به أفلاطون وحتى ماركس.

وإذا حصل ما يخالف رؤية منظّري الحق الطبيعي التي تستند على وجود قواعد موضوعية غير نافذة صلاحية، تقع على عاتق المشرِّع مهمة البحث عنها وسنها قانونيًّا، إذن تلك القواعد الإلزامية معبرة عن إرادة المشرِّع، وسيكون من الطبيعي أن يطالب الأفراد الملزمين بتطبيق تلك القوانين، بالمساهمة في تشكيلها وتطويرها وبحقهم في منح تصويتهم بالموافقة عليها بصورة مباشرة أو عن طريق ممثليهم في البرلمان. هكذا، ومنذ الوثيقة العظمى Magna Charta عام 1215 التي تعهدت للنبلاء وللبرجوازيين بأن لا تُفرض أي ضريبة عليهم دون موافقتهم، بدأنا نشهد تطورًا تدريجيًّا للأيديولوجيا الديمقراطية التي أصبحت السلطات، وفقًا لها، لا تستمد شرعيتها من الإله أو من ممثليه من رجال الدين على الأرض، وإنما من الأمة وأعضائها المنتَخَبين.

هناك تعارض واضح بين مفهوم الايديولوجيا الديمقراطية مع فكرة وجود قواعد موضوعية غير نافذة الصلاحية، سيما فيما يتعلق بالسلوك الانساني، لأننا لا يمكن أن نقرر عن الأغلبية ما هو الصائب من الخطأ. فمن كان يعتقد من أمثال فيلسوف النظرية السياسية الإنجليزي جودوين GODWIN التلميذ الاناركي لفيلسوف القانون الإنجليزي ومؤسس مذهب النزعة النفعية Utilitarisme، بنتام BENTHAM، في إمكانية إيجاد مبدأ يحدد موضوعيًّا "ما هو السلوك الأكثر نفعًا لأكبر عدد ممكن من الناس"، نجدهم وقفوا على طرفي نقيض مع فكرة ضرورة الحاجة إلى مشرِّع يعمل على صياغة قواعد سلوكياتنا. أما فيما يتعلق بالمسائل العلمية، فليس هناك ما يدعو إلى فرض سلطة للمشرِّع. طالما، كان مرسخًا لدى وعي الأفراد مجمل المقاييس الموضوعية للصواب وللخطأ، تغدو فكرة الاستعانة بأي مشرِّع كان، ليست مضجرة فحسب، بل ومثيرة للسخرية تمامًا.

لكن إذا كانت المذهب الاناركي anarchie لا يعني بالنسبة لنا فقط، غياب الحكومة وإنما الفوضى أيضًا، فهذا يعود إلى أنه عندما يتعلق الأمر باتخاذ قرارات معينة أو بأعداد قواعد محددة أو باختيار أشخاص بعينهم لأداء عدد من الوظائف، يصبح من الضروري، وبعد استبعاد الحلول غير العقلانية، تعيين فرد أو هيئة تؤسس لسلطة اتخاذ قرارات معترف بها قانونيًّا. من هنا، كانت السلطة التشريعية وحدها من تستطيع صياغة قوانين إلزامية تقع ضمن حدود أقاليمها. ولما كان من الممكن أن تكون تلك القوانين موضوعًا لتأويلات مختلفة وفقًا للمسائل العملية المطروحة، يصبح من الضروري تفويض السلطة القضائية بصلاحية المساهمة في إعداد وتطوير التشريعات القانونية وبما يتلاءم مع التغييرات الحاصلة في المجتمع.

إن سلطة تلك الهيئات التشريعية والقضائية المسؤولة عن قيادة مجتمع سياسي منظم، تصبح أقل فاعلية في حال استنادها على القوة وحدها كأداة من أجل إخضاع الأفراد وفرض طاعتها. فمن أجل ممارسة صلاحية سلطتها السياسية، ينبغي الاعتراف بشرعيتها القانونية أولاً، وأن تتمتع بسلطة تحث الأفراد على القبول العام بالامتثال لها. وهنا يقع بالضبط الدور الأساسي للأيديولوجيات، التي سواء كانت ذات طبيعة دينية، فلسفية أو تقليدية، فأنها تسعى، فيما وراء الحقيقة، إلى إضفاء الشرعية على سلطة النظام السياسي. وغالبًا

ما يتلازم إنتاج تلك الشرعية مع خاصية مطابقتها مع القانون، بعبارة أخرى، مع واقع أنها تعمل وفق الإجراءات القانونية في الترشيح والانتخاب السياسي. وهذا ما يفترض، أن هذه الإجراءات نفسها غير قابلة للاعتراض والطعن، ومتسقة مع الأيديولوجيا الرسمية، ضمنيًا أو علانية.

في الواقع، إنها ليست بإجراءات علمية تهدف إلى ترسيخ ما هو صائب أو ما هو خاطئ، أو على الأقل، ما هو قابل للاحتمال من عدمه، وتسمح بتبرير قراراتنا وتمدنا بأسباب تدفعنا نحو الفعل والاختيار أو على تفضيل فعل ما على آخر. إن المناهج العلمية تعمل على تحديد الوقائع، دون النظر إليها بوصفها بواعث على الفعل.

إن البواعث الوحيدة لأفعالنا، وفقًا لبعض الفلسفات الوضعية أو الطبيعية، إنما تتكون في المتعة التي توفرها لنا أو في الألم الذي تجنبنا إياه، أو في الشعور بالرضا الذي تستطيع أن تمنحنا إياه، وذلك من خلال السماح لنا في إشباع غرائزنا وحاجاتنا ومصالحنا المختلفة. من هنا، يصبح كل حكم قيّمي هو تمويه عن مصلحة معينة، وتقنين لرغبة، ولا تكون الأيديولوجيا إلا قناعًا خادعًا لمشروع يتخذ من الخضوع والقسر أداة، ابتغاء خدمة مصالح القوى المتنفذّة. وكانت هذه هي الأطروحة البارزة في كتابات ماركس ونيتشه.

من هنا، يمثل النقد الفلسفي الذي يعمل على كشف وتعرية الأقيسة الفاسدة والادعاءات المزعومة التي تضفي الشرعية على نفوذ سلطة الأيديولوجيا المسيطِرة، مقدمة لكل فعل ثوري. فمنذ اللحظة التي نبدأ فيها بالنظر إلى السلطة المتنفذّة بوصفها أبسط شكل من أشكال التعبير عن علاقات القوى، سوف لن نتردد في معارضتها بواسطة قوة ثورية تخدم المصالح المختلفة. لكن على من يؤيد تلك الثورة أن لا يكتفي بتلك المعارضة أمام القوى التي تحمي النظام القائم، بل يجب عليه أيضًا أن يكون مدافعًا عن النظام الجديد، الذي ينبغي أن يكون نظامًا أكثر عدلاً وإنسانية، ومنقذًا للفرد من مختلف أشكال الاغتراب aliénation، عبر استعادة الحرية الإنسانية المفقودة. لهذا، كان لزامًا علينا صياغة أيديولوجيا جديدة لإظهار تفوق فاعلية النظام الثوري الراديكالي على النظام القائم.

ولأن المناهج العلمية أصبحت مجرد أداة طيّعة تعمل على تقويض الوقائع التي يمكن لها أن تكون مقدمة لأيديولوجيا جديدة، دون أن تقدم تحليلاً نقديًا للأسباب التي دعتها إلى دعم الأيديولوجيا القديمة والمسيطِرة. لأنه من المتعارف عليه، أن نقد الأيديولوجيا المسيطِرة لا يتحقق إلا باسم أيديولوجيا جديدة؛ ونموذج جديد للإنسان وللمجتمع. وهذا لا يعني أبدًا أن تكون الأيديولوجيا الجديدة بمنأى من النقد. بهذه الطريقة، يتحول الجدال الفلسفي إلى صراع دائم بين الأيديولوجيات التي تسعى

> **" في الواقع، إذا كان التقليد الشائع في المؤسسات الأكاديمية يؤكد على عدم اللجوء إلى قوة خارجية لحفظ الانضباط، فهذا يعود إلى أن هذه المؤسسات وعلى مدار تاريخها تشعر بالارتياب تجاه استخدام القوة، وتعدها تهديدًا للحرية الأكاديمية. وهي باسم قيم احترام الحرية الأكاديمية "**

لفرض حقائقها الخاصة على الجميع. وعلى الرغم مما ينتجه ذلك الصراع من وجهات نظر نقدية مختلفة، يتناقض الواحد منها مع الآخر، إلا إنها تمثل في الواقع، فرصة ملائمة لتحقيق ثراء عقلانيًا، لأن لو كل فرد من الأفراد سيأخذ في الحسبان آراء الآخر المختلفة، ربما سيتخذ موقفًا مغايرًا عما كان يتبناه في البدء. لأن فتح باب النقاش والحوار والتواصل بين الآراء المتعددة، سيؤدي بالضرورة إلى إحداث تغيير كبير في المواقف.

لكننا في الوقت الحالي، لا نشهد في الغالب، صراعًا بين الأيديولوجيات، وإنما نزاعات عدائية تفتقر لأي تأسيس نظري، وتستعير شعارات من هنا وهناك، بل وتتسم بكونها شعارات متقلبة ومتناقضة، وفيها من الإسفاف الكثير، تكتفي بمعارضة النظام القائم بوسيلة العنف، وإنكار كل نفوذ للسلطة الحالية.

يمكن أن يجد هذا الاتجاه تبريره عند من جرى استبعادهم دائرة النقاش، ونرفض الإصغاء إلى مطالبهم، طالما كان حكمنا عليهم أنهم لا يتسمون بالكفاءة الجيدة وغير صالحين للحوار، لذا نجدهم يضطرون إلى اللجوء في أحايين كثيرة إلى العنف من أجل أن إسماع صوتهم وإيصال مطالبهم. لكن، فيما إذا بقي النزاع على صورته هذه، فسوف لن يأتي بنتائج فعالة، إلا في حال استناده على أيديولوجيا مختلفة عن القديمة، تجعل من مبادئ احترام كرامة الإنسان والتأسيس لمجتمع أكثر ديمقراطية على رأس أولوياتها. وبذلك، سينجح المتظاهرون في تبرير احتجاجاتهم ضد دعوات المدافعين عن النظام القائم بضرورة الاستعانة بقوة البوليس، في حال حصول اضطرابات داخل الجامعات، لأنه إن لم يتم الاستناد على أيديولوجيا جديدة، فلماذا إذن يسخط المتظاهرون من المدافعين عن النظام السائد من استخدامهم للقوة، ما دامت القوة هي الأداة المستخدمة والمشتركة بين الطرفين؟

في الواقع، إذا كان التقليد الشائع في المؤسسات الأكاديمية يؤكد على عدم اللجوء إلى قوة خارجية لحفظ الانضباط، فهذا يعود إلى أن هذه المؤسسات وعلى مدار تاريخها تشعر بالارتياب تجاه استخدام القوة، وتعدها تهديدًا للحرية الأكاديمية. وهي باسم قيم احترام الحرية الأكاديمية، لا ترغب بالاستعانة بقوة البوليس التي بإمكانها أن تشكل خطرًا على حرية التعبير عن الرأي.

فلما كانت المؤسسات الأكاديمية في التقليد الغربي تمثل دومًا ملاذًا لحرية التفكير والتعبير، وللبحث الحر عمًا هو صائب وحقيقي، لذا كان لابد من العمل على حماية الجامعات من استخدام العنف من أي جهة كانت وتحت أي ذريعة، ولن يتم إقرار حظر استخدام القوة، إلا تحت مسمى أيديولوجيا أخرى جديدة. لكن لو استمر الحال في الإصرار على إنكار جميع الأيديولوجيات بوصفها ليست إلا تسويغات واهية، وأن الحياة السياسية ليست إلا صراع قوى، حينئذ سوف لن تكون حقوق السلطة المتنفذّة هي المتفوقة على الدوام فحسب، بل وستتلاشى أيضًا فكرة الحق نفسها، لتفسح المجال للعنف وحده.

ختامًا، من أجل أن لا يجري اختزال الحياة الاجتماعية والسياسية إلى محض علاقات قوى مُتنفذة، ينبغي الاعتراف بوجود قوة شرعية، حيث تُؤسَس السلطة فيها على أيديولوجيا معترف بها قانونيًا. ولا يتم نقد هذه الأيديولوجيا إلا باسم أيديولوجيا أخرى، لأن الصراع بين الأيديولوجيات أيًّا كانت تلك الأيديولوجيات، يشكل أساس الحياة العقلانية والروحية في العصور الحديثة. وإن منع التنافس بين الأيديولوجيات، إنما يعني إعادة التأسيس لدوغمائية ولأرثوذكسية جديدة، وإخضاع حياة الفكر إلى سلطة النفوذ السياسية. إن نفي كل قيمة للأيديولوجيات، سيعيد الحياة السياسية إلى الكفاح المسلح ضد القوة المسيطِرة، الذي سينتصر فيه وبشكل غير قابل للجدال، الزعيم العسكري الأكثر نفوذًا.

من هنا، تتأتى أهمية السماح للمؤسسات الجامعية بأداء وظيفتها تحت مظلة الحرية الأكاديمية، لأن ذلك يعني بالضرورة الاعتراف بوجود منظومات قيّم أخرى ومختلفة عن قيّم القوة والعنف؛ والإقرار بأن جميع المنظومات لا تقع بمنأى عن النقد، وأنه لا ينبغي لأي أيديولوجيا الاستناد على نفوذها الترهيبي من أجل ضمان بقائها.

الهوامش:

❊ Ch. Perelman : Autorité, idéologie et violence, un article publié dans son livre : Le champ de l'argumentation, Presses Universitaires de Bruxelles, Cet article publié à l'origine dans .216-1970, 207 Annales de l'Institut de Philosophie de l'Université de .Bruxelles, 1969, pp. 9- 19

نُشر هذا المقال لمؤسس البلاغة الجديدة، الفيلسوف وعالم القانون البلجيكي شاييم بيرلمان (-1912 1984)، تحت عنوان: (السلطة، الأيديولوجيا والعنف) في مؤلفه: حقل الحجاج، وقد ظهر هذا المقال في الأصل، ضمن حوليات معهد الفلسفة في جامعة بروكسل.

❊❊ باحثة من العراق- مختصة في حقل الدراسات الفلسفية.

JOHN STUART MILL, La liberté, trad. Par M.(1) .Dupont-White, Paris, 1860, p. 2

J. BUTLER, Fifteen sermons upon Human Nature, (2) London, 1726, cité d'après A. I. MELDEN, Ethical .253-Theories, second Ed. Prentice Hall, 1967, pp. 252

Le Pouvoir, tome second, Paris, Presses Universitaires (3) .27-de France, 1957, p p. 26

Bertrand DE JOUVENEL, De la Souveraineté, Paris, (4) .1955, p. 45



نظرية البناء في العهود القديمة



أ. د. مسعد بن عيد العطوي

عضو تدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عضو مجلس الشورى - الرياض

المتأمل في التكوين البشري يدرك أن آدم عليه السلام يمثل البذرة الأولى للحياة البشرية، وأن له وظائف أعده الله لها، فخلق الأرض قبله، وخلق الشجر والماء والمطر فكانت بيئة صالحة للحياة البشرية، وخلق الله آدم وجعله يستوطن الجنة ونعيمها، ثم تحول إلى نموذج أدنى بكثير، ولكن الله أعدّ آدم بمكونات عقلية وعملية وقدرات وقوى قادرة على التعامل مع البيئة المعدة قبله، والسؤال الذي طرحه كثير من المفكرين: هل تعامل آدم وأبناؤه مع البيئة الجديدة تعاملاً بدائيًا يتدرج مع ضرورياته، فلم يعرف كيف يأكل ولم يعرف كيف يصنع الأكل، ولم يعرف كيف يزرع، وكيف يبني ذلك؟ رأي كثير من المفكرين في الغرب.

أمّا الكتب السماوية والمؤرخون المسلمون، فيرون غير ذلك فالله رعاه في الأرض وعلمه الضروريات وحف الإنسان الأول بما يجعله يبني الحياة وتنقسم النظريات إلى:

أولاً: الإلهام:

والمتأملُ في التكوين البشري الذي رعاه الله وكون له البيئة الصالحة يدرك أن الله لم يترك آدم هملاً ضائعًا، بل حفه بالرعاية، منها الإلهام والاستلهام، فالإلهام: هو ما يوحي به الله لآدم أو يهديه الله له بفطرته، ومما يؤيد هذا أن الله علم آدم الأسماء كلها، والمفكر يدرك أن الأسماء وراءها دلائل، وتحمل مكونات عملية، وهي شاملة للحياة، ففي كل اسم دلالة قبل المطر والشجر والغذاء والسكن، فهذه أوحت لآدم بالعمل الحياتي، فهو رأى آلة الزراعة، وأخذ يزرع، وكذلك أدوات البناء، وألهمه البناء واستنبط معالم من أسماء البناء؛ يؤخذ شاهد لذلك، نقل عن الضحاك عن ابن عباس: علمه الأسماء كلّها التي يتعارف بها النّاس: (إنسان ودابّة وأرض وسهل وجبل وفرس وحمار وأشباه ذلك)[1] وآدم يدرك دلالتها والعمل بها ونطقها.

ومن الدلائل الكبرى على التوجيه الرباني لآدم مع إتاحة العمل للعقل والتفكير: مما روي: (إن أول ما خلق الله القلم، وقال له: اكتب .. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن)[2] هذا الحديث دلنا على علم الله بما هو كائن، كل كائن، وهو متعلق بكل كائن بعمل، كما هيئ الله له بالإلهام والتفكير وبالوحي للمصطفين الأخيار، والله بث علمه للملائكة وللجن وللبشر، كل في ما هو بدء بمهمته التي خلقها الله لها، وما هو ضروري له وتحت قدراته، وأفسح المجال للتأمل والتدبر فيما هو تحت قدرات العقل أو ما تعمله الغرائز، مثل الهضم، وحب الأمومة، وحب الإنجاب، وأما العقل فمجاله أوسع فهو يولد اكتشافه من خلال الإلهام والتقليد والحاجة الضرورية لكل موقف وكل هذه وسائل التطور البشري، وبدأت الحكاية بلباس الستر لعورتيهما بعد التعرية في الجنة وإنزالهما أمّا في الأرض فلما التقى آدم وحواء وكل منهما عاريا؛ (فلما رأى الله تعالى عري آدم وحوّاء أمره أن يذبح كبشًا من الضأن ومن الثمانية الأزواج التي أنزل الله من الجنّة، فأخذ كبشاً فذبحه وأخذ صوفه، فغزلته حوّاء ونسجه، آدم فعمل لنفسه جبّة، ولحواء درعًا وخماراً، فلبسا ذلك)[3] وقيل أرسل إليهما ملكًا يعلمهما ما يلبسانه من جلود الضأن والأنعام، وقيل: كان ذلك لباس أولاده، وأمّا هو وحوّاء فكان لباسهما ما كان خصفًا من ورق الجنة، ثم تطور الغزل والنسيج بمعرفة البشر وعقلانيته إلى ما نحن فيه.

ثم جاءت مرحلة البناء والدور وأولها بناء الحرم، فكان بإيحاء وإلهام من الله، (فأوحى الله إلى آدم: إن لي حَرَمًا حيال عرشي، فانطلق وابن لي بيتًا فيه، ثمّ طف به كما رأيت ملائكتي يحفون بعرشي، فهنالك أستجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتي، فقال آدم: ياربّ وكيف لي بذلك؛ لستُ أقوى عليه ولا أهتدي إليه، فقيض الله ملكًا فانطلق به نحو مكّة، وكان آدم إذا مرّ بروضة قال للملك: انزل بنا هاهنا، فيقول الملك: مكانك، حتى قدم مكّة، فكان كلّ مكان نزله آدم عمرانًا وما عداه مفاوز، فبنى البيت من خمسة أجبل: من طور سينا، وطور زيتون، ولبنان، والجُودي، وبنى قواعده من حراء؛ فلمّا فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات فأراه المناسك التي يفعلها النّاسُ اليوم، ثم قدم به مكّة فطاف بالبيت أسبوعًا، ثمّ رجع إلى الهند فمات على نُود)[4] وقال عن بيوت الله سأجعل فيها بيوتًا ترفع لذكري، وأجعل فيها بيتًا أختصه بكرامتي، وأسميّه، بيتي، وأجعله حرمًا آمنا، وأشار إلى أن

آدم هو الذي عمر البداية بالحرم ونتيجة للوحي والإلهام لآدم يرى بعض العلماء أن الله علمه صنعته من كل شيء تعمره (أنت يا آدم ما كنت حيًّا، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمّة بعد أمّة، ثمّ أمر آدم أن يأتي البيت الحرام، وكان قد أهبط من الجنة ياقوتة واحدة، وقيل: دُرّة واحدة، وبقي كذلك حتى أغرق الله قوم نوح عليه السلام، فرفع وبقي أساسه، فبوّأ الله لإبراهيم، عليه السلام، فبناه على ما نذكره إن شاء الله تعالى)[5].

الزراعة والنار: أمّا الزراعة فقد كان جبريل رسول الله إلي آدم وزوده بصرة من حبوب القمح، وأمر جبريل آدم أن ينثر تلك الحبوب في الأرض فأنتجت حب الحنطة، «وأنزل عليه جبرائيل بصرّة فيها حنطة، فقال آدم: ما هذا؟ قال: هذا الذي أخرجك من الجنة، فقال: ما أصنع به؟ فقال: انثره في الأرض، ففعل فأنبته الله من ساعته، ثّم حصده وجمعه وفركه وذرّاه وطحنه وعجنه وخبزه، كلّ ذلك بتعليم جبرائيل، وجمع له جبرائيل الحجر والحديد فقدحه فخرجت منه النار، وعلّمه جبرائيل صنعة الحديد والحراثة، وأنزل إليه ثوراً، فكان يحرث عليه» قيل: هو الشقاء الذي ذكره الله تعالى بقوله:﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[6]. ومن الوحي والإلهام سفينة نوح عليه السلام.

ثانيًا: الاستلهام:

فالاستلهام: هو نظرة التأمل في الجنة والسير على موكبها، وعندما بنى آدم بيت الله وحرمه أضحى البناء مثالاً يحتذى فأخذ آدم وأبناؤه يبنون منازل لهم على شاكلة البناء بما يتناسب وحاجتهم الضرورية للإيواء والذرى والكن وحماية من البرد والشمس ومستقرًّا لهم ومن الاستلهام ما رآه قابيل لحفر القبور حين رأى الغراب يحفر للغراب الميت ليواريه، قال تعالى:﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[7].

ثم جاءت مرحلة وفاة آدم، فأتت الملائكة لتغسله، وروى أُبيُّ بنُ كعب عن النبي ﷺ: (أن آدم حين حضرته الوفاة بعث الله إليه بحَنوطه وكفنه من الجنة، فلما رأت حوّاء الملائكة ذهبت لتدخل دونهم، فقال: خليّ عني وعن رسل ربّي، فما لقيتُ ما لقيتُ إلاّ منك، ولا أصابني ما أصابني إلاّ فيك، فلما قُبض غسلوه بالسِّدْر والماء وترًا، وكفّنوه في وِتْر من الثياب، ثمّ لحدوا له ودفنوه، ثمّ قالوا: هذه سُنّة ولد آدم من بعده)[8].

ومما رآه آدم في الجنة وما جاء على لسان الرسل والأنبياء بالترغيب بالجنة وأوصافها؛ وقالوا إن مهلائيل وهو ابن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم: إنه أول من بنى البناء، وأستخرج المعادن، وأمر أهل زمانه باتخاذ المساجد، وبني مدينتين كانتا أول ما بُني على ظهر الأرض من المدائن، وهما مدينة بابل، وهي بالعراق، ومدينة السُّوس بخُوزِستان، وكان ملكه أربعين سنة.

مرحلة التنظيم:

وقيل هو أوّل من استنبط الحديد وعمل منه الأدوات للصناعات، وقدّر المياه في مواضع المنافع، وحضّ النّاسَ على الزراعة واعتماد الأعمال، وأمر بقتل السباع الضارية واتخاذ الملابس من جلودها والمفارش، وبذبح البقر والغنم والوحش وأكْل لحومها، وإنّه بنى مدينة الريّ، قالوا: وهي أول مدينة بنيت بعد مدينة جيوميرث التي كان يسكنها بدنباوند، وقالوا: إنه من وضع الحكام والحدود، وكان ملقبًا بذلك يُدعى بيشداد، ومعناه بالفارسية أول من حكم بالعدل، وذلك أنّ بيش معناه أوّل، وداد معناه عَدْل وقضى[9].

وهو أوّل من قطع الشجر وجعله في البناء، وذكروا أنه نزل الهند وتنقّل في البلاد وعقد على رأسه تاجًا، وذكروا أنه قهر إبليس وجنوده ومنعهم الاختلاط بالنّاس وتوعّدهم على ذلك وقتل مرَدَتهم، فهربوا من خوفه إلى المفاوز والجبال، فلمّا مات عادوا بالجن والكهنة والسحرة، فبنوا مدائن كثيرة جميلة، وقد غمرتها الريح أو أخفاها الله، وكثير من الأبنية تحمل خاصية أمّا من الجن أو من السحرة، كما تشير المباني الفرعونية التي لها خاصيات متعددة مثل القصر الذي يحتوي على صور للحيوانات، فإذا أقبل جيش العدو فإنهم يرمون تلك الصور فينهزم الجيش الغازي إنها مدائن أسطورية لا تستبعد الحقيقة فيها.

وقبلها أشاد شداد بن عاديا مدينة في حضرموت على شاكلة الجنة، تحاذيا للأنبياء والرسل عليهم السلام حين وصفوا مباني الجنة، وذكر التاريخ أوصافها بما لا يخطر على بشر الآن، وقد حجبها الله ما عدا أحد الصحابة فذكرها لأبي بكر، وصدق ذلك بما سمعه عن الرسول ﷺ.

مرحلة التعليم والتصنيف للمهن:

ذكروا أن الملك جمشيد وهو الحفيد الخامس أو السادس لآدم، وهو أول من كون المهن وصنف الأعمال، وأوكل لكل صناعة معلمين ومدربين، وهو أول من ملك في بابل، وجمع شتات المعارف والمهن، وجعلها علمًا متوارثًا، فهو بدأ بصنع الحديد والسيوف والدروع وكثير من الأسلحة، وقويت دولته حتى أخذ بالتنعيم والرفاه، فصنع الحرير والألبسة وأقسام مصانع عليها مهرة متدربين وبدأ له في مرحلة تالية: بتصنيف المجتمع، فطبقة مقاتلة، وطبقة علماء، وفقهاء، وطبقة كتاب وصناع، وطبقة حراثين وسخر المجتمع لخدمة السلطة، وهذا التصنيف قبل تصنيف الفلاسفة الغريق.

ثم بعد ذلك حارب الشياطين، وسخر الشياطين يعملون له قطع الحجارة والصخور من الجبال، وعمل الرخام والجص وسائر مكونات البناء ومكونات العمران، ومن هنا ندرك أن بداية الكون تعتمد على الإلهام والاستلهام وتسخير الجن والشياطين، الأمر الذي يفوق قدرة الإنسان منفردة.

ثالثًا: النظرية المائية:

كانت الأرض غير الأرض الحالية، فكانت أنهارًا وبحيرات وعيونًا جارية، وأمطارًا غزيرة، ولما تتجسد كثير من الأودية بفعل السيول، ولذلك كانت قمم الجبال وما يسمى بالقنة وهى سطوح الجبال الممتدة، كانت مكان البناء وتكثر المباني على سفوح الجبال، وترى معالم البناء بالقرب من الكهوف وتكثر الأبنية فوق الجبال المطلة على الأودية ذات الحجارة الكثيفة، إن الجزيرة وجبال السروات تمثل المشهد تمامًا، فالذي يطوف فوق الجبال وعلى قمم الحرات المنبسطة والمتدبر في أحضان قمم الجبال يذهل من وجود الأبنية المندثرة، ويذهل من كثرة الأنفاق تحت هذه القمم.

إن تعدد المباني وتعدد أشكالها يخضع للمكان والزمان وتطور الأجيال وقوة الرجال وتضاعف قدراتهم.

ومن العوامل المائية الطوفان الذي غمر الأرض جميعًا فهو ظل زمنًا طويلاً حتى قل أثره مما جعل الناس يبنون في الأرض الجافة.

رابعًا: نظرية الرياح:

كانت الرياح تقوى وتخبو، وكانت تحمل البرودة الشديدة، فدعت الناس إلي البناء في أحضان الجبال وفي المنخفضات وفي التلاع وفي الحقوف (الأحقاف).

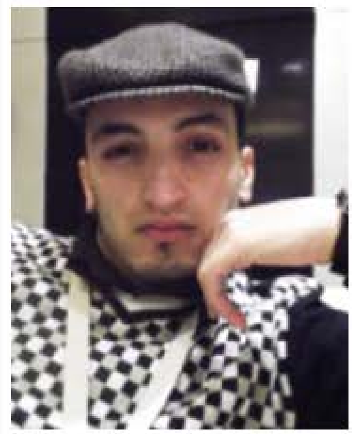
ثم جاءت الريح القوية على قوم عاد، فطمرت المباني، واقتلعت الأشجار وأهلكت البشر، فكانت عبرة للناس، ولكن بعد قرون نسي الناس أثرها، ورأى الجبابرة أن قوم عاد لم يتخذوا الحيطة والحذر، فتداعي قوم ثمود إلى الجبال ونحتوها وجعلوها مأوى للحاجة، فهم وضعوا لها أبواب حديدية شديدة يلجئون إليها إذا اشتدت الرياح، وقد أشار التاريخ إلى تلك الأبنية، وأنها مساكن وقت الحاجة، وأيدهم القرآن الكريم، ويروي التاريخ أن ملكهم جندع بن عمرو أمر بالبناء وتحت الجبال، ويبرر ذلك إنما هلكت عاد لأنها لم تشد مبانيها في الجبال.

الهوامش:

1 - الكامل 1/72
2 - الكامل 1/62
3 - الكامل 1/78
4 - الكامل 1/78
5 - الكامل 1/79
6 - طه/177
7 - المائدة/31
8 - الكامل 1/89
9 - الكامل 1/89

النكتة

لغتها ووظائفها



الباحث: أكثيري بوجمعة

جامعة ابن طفيل القنيطرة- المغرب

إنه لمن الصعوبة بمكان أن نعطي تعريفًا جامعًا مانعًا لهذا المفهوم الملتبس المسمى " النكتة " على صفة أنه مفهوم زئبقي يأبى الثبات . هذه الصعوبة تمتد إلى الضحك، إذ هو الأصل الذي تتفرع عنه مجموعة من المفاهيم كالسخرية والفكاهة والهزل والنكتة، وقد فطن بركسون إلى صعوبة تعريف النكتة وإلى ارتباطها بالضحك، حيث قال: إن دراسة الضحك لا تكون كاملة إذا هي أغفلت تعمق طبيعة النكتة، وتوضيح فكرتها، ولكن أخشى أن يكون هذا الجوهر اللطيف هو من تلك الجواهر التي سرعان ما تتحلل إذا عرضتها للنور.[1]

وبعد أن أشرنا إلى الصعوبات التي تواجه الباحثين في تعريف النكتة، لابأس أن نقف مليًّا عند وظيفة عملية التنكيت ومكونات هذه العملية والشروط السوسيو ثقافية لنجاحها، والأقسام الكبرى للنكتة، انطلاقًا من كتابات سكموند فرويد.

1 -وظيفة التنكيت

النكتة ظاهرة اجتماعية تقوم بوظائف متعددة، فبالإضافة إلى التسلية، فهي تخفف من حدة التوتر والحقد والعداء، وتسعى إلى نشر الفضيلة وتقويم الإعوجاج، وفضح الانحراف كما تعد وسيلة فعالة للتواصل الاجتماعي، إنها استعمال براكماتي للغة، فعبرها يمكن للناس أن يُبلغوا مواقفهم ومعتقداتهم ورغباتهم وميولاتهم بشكل ملتو بعيد عن أعين الرقابة، الشيء الذي لن يتأتى لهم بوسيلة أخرى، فعن طريقها يمكن التعامل مع المواضيع المحظورة بسهولة ويسر، إنها بفضل مظهرها الخادع وشكلها المُحكم الصنع، تخفي أنها تحمل أي رسالة وبالأحرى موضوعًا مُحرمًا، وكمثال على ذلك النكت الجنسية التي تستعمل وسيلة لتبليغ الرغبة بطريقة غامضة لكنها مفهومة، يقول فاين (fine) في هذا الصدد: إن التحول من علاقة لا شخصية إلى علاقة شخصية يمكن تسهيله من خلال الفكاهة؛[2] فبالتواصل من خلال النكتة الجنسية يمكن للرجل أن يقيس رغبة المرأة في اتصال إضافي دون أن يرفض طلبه المباشر، هذا يبين أن الرجال يؤثرون مراودة النساء عن أنفسهن من خلال النكت الجنسية؛ أي بطريقة ملتوية أو مقنعة، مفضلين ذلك على الاقتراح المباشر؛ فالنكتة بهذا المعنى، توفر لهم إمكانية التملص إذا ما قُوبل اقتراحهم بالرفض أو التوبيخ، كما تمكنهم آنئذ من التظاهر بالخفة وعدم الجدية، أو بعبارة أخرى سيتظاهرون بأنهم يمزحون فقط، بالإضافة إلى التسلية والتعبير عن الأفكار المحظورة أو المحرمة تؤدي النكتة وظيفة أخرى، خصوصًا النكتة المبنية على اللغة أو اللعب بالألفاظ، إذ تسهم هذه النكتة في ترسيخ روابط الألفة بين الأفراد خصوصًا منها الفئة الشعبية، كما تساعد على تقوية روابط الصداقة والأخوة فيما بينهم، وتزيد من جاذبية المنكت لدى جمهور المستمعين.

1-2 مكونات التنكيت وشروطه

المقصود بمكونات فعل التنكيت الأطراف المشاركة في هذا الفعل، إذ بانعدامها أو انعدام أحدها يفشل هذا الفعل، ويمكن إجمال هذه المكونات والشروط التي يلزم أن تتوافر فيه فيما يلي:

1-2-1 الإطار the setting

وهو مجمل الشروط الاجتماعية المرتبطة بالبيئة والمحيط والزمن الذي تلقى فيه النكتة، فلكي يفلح الفعل الفكاهي يجب أن يكون موافقًا للظروف الاجتماعية التي تحدث فيها. فالإطار عنصر مهم يحدد إذا كانت النكتة مقبولة أم لا.

فالتنكيت ليس دائمًا ممكنًا وفي جميع المناسبات، ففي المجتمع الإسلامي لا يمكن التنكيت في الأماكن المقدسة كالمساجد أو وقت الصلاة، وفي أثناء تشييع الجنازة، لكن هناك مناسبات أخرى يستحب فيها التنكيت كمجالس الأصدقاء. غير أن عنصر البيئة يختلف من ثقافة لأخرى ففي بعض المجتمعات يسمح بالتنكيت في أثناء الجنازة لتحول هذه المناسبة الحزينة إلى مناسبة سارة، وما على المشارك في فعل التنكيت إلا أن يكون واعيًا بالقواعد والشروط التي تحكم زمن ومكان التنكيت، فكما قالت العرب "فلكل مقام مقال".

1-2-2 المشاركون the participants

كما لا يستطيع المنكت التنكيت متى أراد وأنى أراد، فإنه لا يستطيع فعل ذلك مع أي كان، فالتنكيت يسمح به

في أثناء التفاعل الاجتماعي بين الزملاء في العمل وبين الأصدقاء والمعارف الذين تجمع بينهم مودة.

ولعل من بين شروط نجاح فعل التنكيت بين المشاركين أن يكونوا من نفس السن والجنس والمستوى الاجتماعي، مع تفاوت بالطبع من مجتمع إلى آخر. غير أن هذه المودة والعلاقة بين المشاركين لا تكفي وحدها لنجاح هذا الفعل، إذ لا بد من توافر شروط أخرى لها علاقة بالتواصل.

3-2-1 **القواعد اللغوية** the lingustic code

لكي تنجح النكتة يلزم أن تتوفر لدى المتكلم والسامع ملكة لغوية تمكن الأول من الإفصاح والتبليغ، وتساعد الثاني على فك رموز النكتة وتبين مواطن المفارقة، خصوصًا في النكت المبنية على اللغة والتلاعب بالألفاظ. ومن ثم ففهم نكتة واستيعابها مرهون بتملك ناصية اللغة، كما أن الفشل في حل رموزها يبين أن المتعلم يحتاج لمزيد من الممارسة، وأنه بعيد عن امتلاك اللغة. وبما أن النكت اللغوية تنبني على جميع المستويات: المعجمي والدلالي والفنولوجي والتركيبي، فإن البعض يرى فيها أفضل وسيلة لتعلم اللغة واكتساب قواعدها.

4-2-1 **الخلفيات الثقافية**

لا يعني أن امتلاك اللغة شرط كاف لفهم النكتة. بل لا بد إضافة إلى ذلك من توفر شرط الاشتراك في الخلفية الثقافية. ذلك أن هذه الخلفية المتقاسمة بين المشاركين في الفعل الفكاهي وثيقة الصلة بفهم النكت. خصوصًا منها تلك المعتمدة منها على ثقافة، ويقول (nash) في هذا الصدد: نتقاسم الفكاهة مع هؤلاء الذين يقاسموننا تاريخنا. ويفهمون طريقة تفسيرنا للتجارب هناك ذخيرة، والذكريات المشتركة تعتمد عليها النكت مع تأثير لحظي[5] .لهذا نرى أن النكت تتضمن جملة من الإشارات الثقافية والحضارية التي يصعب فهمها خارج سياقها.

2 -**أقسام النكتة حسب فرويد:**

يقسم فرويد النكتة حسب مقصديتها إلى نكتة مغرضة (mot d'esprit tendacieux) ونكتة بريئة (mot d'esprit innocent)، فالنكتة المغرضة هي التي ترمي إلى إشباع الميول والنزعات الجنسية والعدوانية، تلك الميول الأساسية المرتبطة بالحياة النفسية للإنسان، ومن نماذج هذا النوع النكت الماجنة أو الخليعة التي تشبع رغبات منعها الكبت أو كبحتها الأعراف الاجتماعية وحالت دونها. ويذهب فرويد بعيدًا في تحليله لهذه النكت حين يقول: بأنها تتجاوز حدود إشباع الرغبة إلى الإثارة والتحريض؛ فهي موجهة في الغالب حسب رأيه إلى امرأة بهدف تعريتها وتجريدها من ملابسها، بل إن من يضحك من فُحش كأنما يضحك من مشاهدته لاعتداء جنسي[6].

أما النكتة البريئة أو المجردة كما يسميها (esprit abstrait) فتعتمد على اللغة واللعب بالألفاظ، ولا تحمل أي شحنة عدوانية، ويرجع فرويد النكتة في جميع الحالات إلى اقتصاد الجهد النفسي. وبعد أن تطرقنا إلى أقسام النكتة لا بأس أن نُدرج بعض التقنيات التي تشتغل عليها النكتة. وقد قسمها فرويد إلى ثلاثة أقسام وهي: التكثيف والنقل والترميز أو التمثيل الغير المباشر.

1-2 **التكثيف:**

يحصل التكثيف في النكتة بالتركيب بين كلمتين تركيبًا مزجيًا أو بأحداث تعديل بسيط على الكلمة نفسها، أو بإيجاد لفظة جديدة أو باستعمال نفس الكلمة أو الاسم (مرة كاملة ومرة أخرى مجزأة)، بمعنى مغاير يثير الضحك. والتكثيف عمومًا، مظهر من مظاهر الإيجاز والاختصار، الذي يعكس بدوره الاقتصاد في الجهد النفسي الذي تنهض به النكتة.

من أمثلة الرد بالمثل الذي يُعدُّ مظهرًا من مظاهر تكثيف النكتة الآتية:" هذا واحد مراكشي كاليه واحد السيد إلى مامشيتي فحالك غادي نضربك حتى تدور، جاوبوا هذاك المراكشي: أنا حتى كاع تدور أونضربك والملاحظ هنا أن المخاطب (بالفتح) رد تقريبًا بنفس العبارة، فنحن أمام جملة - حتى تدور - استعملت استعمالين مختلفين تمام الاختلاف. إذ إن من مظاهر التكثيف أيضًا التأويل، الذي تعطيه الفئات الشعبية لبعض الحروف، فالجيم الحمراء (ج) في سيارات البلديات والجماعات المحلية تعني" جابها الله" ، وليس جماعة محلية، وهذه النكتة تقر بذكاء عن تصورات ذلك الإنسان العامي البسيط لجملة من الدلالات.

2-2 **النقل:**

تعتمد مجموعة أخرى من النكت على إستراتيجية النقل والتحويل، وهو تحويل في مجرى الأفكار الناتج عن التباس وسوء تفاهم أو تفسير عكسي، وهذا ما تقف عليه في النكت التي تنبني على الحوار، سواء أكان بين الأشخاص، أم كان مفترضًا بين الكاتب والقارئ، فقد يركز أحد المتحاورين على عنصر من عناصر الخطاب، بينما ينصرف ذهن الآخر إلى عنصر مغاير. وكمثال على النقل والتحويل نذكر النكتة الآتية.

جاء على لسان أحد الساخرين المغاربة من أن " أكبر سد في المغرب هو سد فمك " فهذا مثال على التكثيف، حيث تكررت كلمة سد باستعمالين مختلفين، ومثال النقل أيضًا؛ إذ ينتقل ذهن السامع بصفة مفاجئة من كلمة سد الأولى التي توحي له بعالم السدود والزراعة، حيث يتوقع أن الخطاب جاد، وأن يكون الجواب هو سد " الوحدة " أو سد آخر، غير أن بقية النكتة تحوله وتنقله إلى معنى آخر ذي إيحاءات سياسية هو ضرورة سد الفم أو لجمه، لأنه قد يكلفه حريته في هذا البلد.



3 -2 **الترميز:**

نجده في النكت التي تعتمد على التلميح والاشارة أو المقارنة التي تستند على الإضمار أو الحذف، وأغلب النكت السياسية والجنسية تعتمد على تقنية السياسة بأسمائهم. حتى إن مجرد ذكر أسمائهم يُعدُّ أفق انتظار يفتح شهية السامع، ويثير ابتسامته، ومن هؤلاء من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر.

وحاصل القول، يتضح بأن فعل التنكيت قد اعتمد على جملة من الميكانيزمات، لتحقيق المطلوب منه داخل محيطه السوسيو ثقافي. ومن ثم يصبح آلية من آليات التخاطب اليومية المحملة بشحنات دلالية ورمزية وثقافية طافحة بالمعنى.

الهوامش:

1 - هنري بركسون، الضحك البحث في دلالة المضحك، تر: سامي الدروني وعبد الله عبد الدايم، إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001.

2 -نفسه.

3 -نفسه.

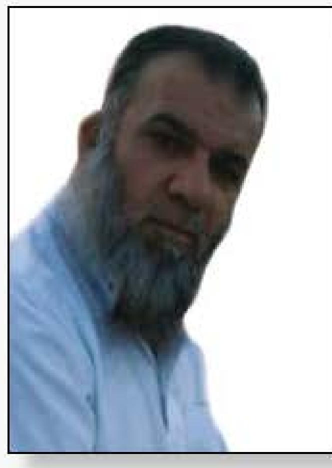
4 - Fine , gary alain , sociological approches to study of humour , in hand booie of hurmourresarch . volume 1.

5- Walter mach , the language of humour – le mot d'ésprit et ses rapports avec l'inconscient – gallimard.

6 - أحمد الشايب، أبحاث في الضحك والمضحك

مالك بن نبي

(فقيه الحضارة)



صبري بن سلامة شاهين

الرياض

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.

وصدق من قال:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم
إنَّ التشبه بالكرام فلاحُ

ورحم من قال:

أحبُّ الصالحين ولستُ منهم
لعلي أن أنال بهم شفاعة

قال محمد بن يونس رحمه الله: ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين.

ورحم الله من قال: إنَّ أخبار العلماء العاملين والنبهاء الصالحين من خير الوسائل التي تغرس الفضائل في النفوس، وتدفعها إلى تحمل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وتبعثها على التأسي بذوي التضحيات والعزمات، لتسمو إلى أعلى الدرجات وأشرف المقامات.

وعن مالك بن دينار رحمه الله قال: الحكايات تحف الجنة.

من أعلام الفكر الإسلامي الأستاذ مالك بن نبي المفكر الجزائري، الذي قضى حياته مجاهدًا من أجل حضارة إسلامية خالدة.

ولد مالك في الجزائر عام 1905 لأسرة فقيرة، وعاش أوقات شُبَابه فيها، ثم انتقل إلى فرنسا، ثم مصر، ثم رَجَعَ إلى الجزائر مرةً أُخْرَى.

لم يكن مالك غائبًا عن الشأن الوطني الجزائري وهو في فرنسا، حتى عندما شَكَّلَتْ بعض القوى الجزائرية وفدًا يَذْهَبُ إلى فرنسا للمطالبة بحق الشعب الجزائري، انتقد مالك هذا الوفد، وقال: إنّ الحلّ ليس في هذا، ولكنه في ضمير الأمّة الجزائرية.

وفي سبيل هذه الغاية الفكرية الكبيرة ألَّفَ مالك ابن نبي كُتُبًا، منها: كتاب: الظاهرة القرآنية، وكتاب: شروط النهضة، وكتاب: وجهة العالم الإسلامي، وكتاب: فكرة الأفريقية الآسيوية، وكتاب: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، وكتاب: المسلم في عالم الاقتصاد، وكلُّها بالفرنسية، وقام على ترجمتها فيما بعدُ الدكتور عبدالصبور شاهين، رحمه الله، وقدّم لكتاب الظاهرة القرآنية العلامة الكبير أبو فهر محمود محمد شاكر رحمه الله.

إن التكوين الفكري والثقافي لمالك بن نبي كان يسير في خطين متوازيين، هما:

1. التكوين الإسلامي العربي في الجزائر؛ حيث قرأ كُلَّ ما وقع تحت يده من كُتُبٍ وصُحُفٍ عربية وهو طالب في المعهد.

2. أتاح له وجوده في فرنسا قراءةَ الكثير من كُتُبِ علم النفس والاجتماع والتاريخ، وهو ما أعطاه بُعْدًا كبيرًا جدًا، فضلًا عن كونه مهندسًا كهربائيًا يمتلك عَقْلِيّةً عِلْمِيّةً جادّةً.

ومع أن ثقافة مالك الشرعية كانت ضعيفة، إلا أنّه كان كثير التأمل في القرآن، وقد تميز مالك بشخصية عاطفيّة وعميقة جدًا في تحليل الأفكار التي تلوح بذهنه.

أما أفكاره الأساسية: فهي قائمة على فكرة النهوض.

وتقوم على أن مشكلة المسلمين هي مُشْكِلَةٌ حضارية بالدرجة الأولى، فالحضارة عنده هي مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تُتيحُ للمجتمع أن يُقَدِّمَ لكل فرد من أفراده الحاجةَ الأساسيَّةَ الضرورية، بخلاف ابن خلدون الذي يرى أن الحضارة هي التَّرَفُ الزائد.

ووضع مالك معادلة: ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت، وبما أن الحضارة إنجاز لا يمكن أن يوهب أو يشترى أو يستورد؛ فإن ابن نبي أولى كل اهتمامه لتحريك الإنسان المسلم الذي يمثل بالنسبة له جوهر الحضارة

قال الجَنيد رحمه الله: الحكايات جند من جنود الله عز وجل، يقوي بها إيمان المريدين. فقيل له: هل لذلك من شاهد من كتاب الله تعالى؟ قال: بلى، إنه قول الله: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ هود الآية: 120

وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه لأنها آداب القوم وأخلاقهم.



وعمودها الرئيسي نحو مواقع: الفعالية والعطاء والإنتاج؛ لأن المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها، وسيكون من السخف والسخرية حتمًا أن نعكس هذه القاعدة، حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها.

وأن هذه المعادلة لا بد لها من مفاعل، وهو الدين، وهو الأمر الذي انتقده البعض بوصف الدين أنه مُفَاعِل، ولكنه عنصرٌ أساسيٌّ في المعادلة.. بل هو الأساس.

ويرى مالكٌ أن البُطْءَ في النهوض يرجع إلى:

أ. مبدأ اللاعنف: وهي فِكْرَةٌ أخذها من غاندي، وهذه الفكرة قد تنجح أحيانًا في زمنٍ ومكان معين، ولكنها تُخَالِفُ سُنَّةَ الصراع والتدافع، التي أشار إليها الله عز وجل في كتابه الكريم، في قوله تعالى﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ البقرة – الآية 51

ب. القابلية للاستعمار: يرى مالك بن نبي أن الشعوب العربية والإسلامية شُعُوبٌ قابِلَة للاستعمار، ضاربًا مثالًا على ذلك باحتلال هولندا– وهي بلد صغير– إندونيسيا، في حين تفشل بريطانيا– وهي دولة عظمى– في إخضاع الأيرلنديين؛ ويشير مالك إلى أسباب هذه القابلية، مُرْجِعًا إياها إلى قِلَّةِ العلم، وتَوَهُّمِ قوة الاستعمار، وخيانة البعض للوطن؛

وتقوم أفكاره الأساسية:

على فكرة الخلل الفكري: وهي أننا نعاني من وجودِ تهوينٍ لبعض الأمور واستسهالٍ لها، على الرغم من صعوبتها، وضرب مثلا لذلك بتهوين العرب أمر دخول بَعْضِ اليهود إلى الأراضي الفلسطينية في عام 1948، ونظرتهم إليهم بأنهم مجرد شرذمة سيتم طَرْدُهُم في أي وقت .

وعلى فكرة التكديس: أو كما يسميه مالك بطغيان الأشياء، وهي فكرةٌ تقومُ على أنّ تكديس الأشياء هو الحضارة، وهي فكرة خاطئةٌ؛ لأن الحضارة هي تصنيعُ الأشياءِ وإنتاجُها، لا استيرادها وتكديسها.

وعلى فكرة طغيان الأشخاص: وهي تقوم على أن المسلمين ينتظرون ذلك البطل الذي سيأتي ويأخذ بأيديهم وينصرهم على أعدائهم، فهم دائمًا بانتظار "صلاح الدين"، لكي يأخذ بأيديهم.

وعلى فكرة طغيان الأفكار: وهي تقوم على أن البعض قد يُرَكِّزُ على فكرة معينة أو قضية معينة، ويعطيها قَدْرًا أكبر من قدرها الطبيعي، وليس لها وجودٌ الآن، وهو ما أسماه مالك بن نبي بالهروب.

وعلى فكرة العقلية الذرية :وهي تقوم على أن المسلمين لا يستطيعون في كثير من المواقف أن يروا الصورة كاملة، ولكنهم يجزئونها إلى ذرات، وينظرون إلى كُلِّ جزء على حدة دون الرَّبْطِ بين الأحداث، فالعقلية الإسلامية كما يرى مالك بن نبي، هي عقلية مُجَزَّأة.

أما طوق النجاة عند مالك بن نبي:

فإنه يراه في: التمسك بالإيمان. وإيجاد شبكة قَوِيَّة من العلاقات الاجتماعية، مثل تلك التي كانَتْ في المجتمع الإسلامي الأول. والمطالَبَةُ بالحقوق مع القيام بالواجبات. والرُّجُوع إلى شيءٍ من الفطرة. وأن يكون لدينا استعدادٌ حقيقي للخَوْضِ في غمار تكوين حضارة جديدة. والإيمان بأن الحضارة هي التي تَبْنِي وتُنْتِجُ، وليست التي تُكَدِّسُ.

أما المرأة في فكر مالك بن نبي:

وقف مالك من قضية المرأة موقفه من القضايا الأخرى، وقد أطلق تسمية "مشكلة المرأة" في كتابه "شروط النهضة"، وذلك انسجامًا مع منظومته الفكرية التي تدور حول مشكلة الحضارة عمومًا، وللتدليل على مقدار التضخيم الذي كان من نصيب موضوع المرأة في العالم الإسلامي، سواء من أنصار التحرر الذي يصل بالمرأة إلى درجة التحلل، أم من أنصار التزمت الذي يغلق بصره أمام حقائق الإسلام.

لم يجعل مالك بن نبي مشكلة للمرأة معزولة عن مشكلة الرجل، فالمشكلة واحدة، هي مشكلة الفرد في المجتمع، فقد حاول الكثيرون، بوحي من الفكر العربي التجزيئي، النظر إلى قضية المرأة كقضية مستقلة، ومن ثم أوجدوا معركة مفتعلة بين أفراد المجتمع الواحد، ووضعوا المرأة في مواجهة الرجل، وهذه قمة التجزيئية وتشويه حقيقة الصراع الحضاري، لأنه يضع الزوجة في مواجهة الزوج، والبنت في مواجهة الأب، والأخت في مواجهة الأخ، وهلم جرا، فيتحول الصراع من صراع المجتمع ضد التخلف الحضاري والاغتراب إلى صراع داخل المجتمع نفسه، مما يلهيه عن التصدي للتحديات في بناء متماسك.

إن الفهم الدقيق لروحي الحضارتين الإسلامية والغربية والاستيعاب العميق لأسسها الفكري مكنا مالك ابن نبي من الصمود في وجه الحضارة الغربية فلم يجرفه تيارها، وتحرر من عبودية ذات وقع أثقلت– أو ما تزال تثقل– غالبًا فكر المثقفين العرب تجاه عبقرية أوروبا وثقافتها.

إن تلك التجربة العميقة والعنيفة في الوقت نفسه، بأبعادها الروحية، والفكرية، والاجتماعية، جعلت مالك ابن نبي يعلم علم اليقين أن الإسلام بعقيدته الموحِّدة، وفكره المنفتح على العقل منذ بدايته المتمثل في قوله تعالى: «اقرأ» وروحه الاجتماعي من مساواة، وتضامن، وأُخُوّة ..أقدرُ على مواجهة الحضارة الغربية، والانتصار عليها، ولكن المشكلة هي في المسلمين، الذين يشعرون بالدونية والنقص أمام الحضارة الغربية، وتعشعش الانهزامية في نفوسهم أمام أي ظاهرة مستوردة.

فلم ينشغل مالك بن نبي طوال حياته بقضية غير قضية الأمة الإسلامية، فانكب على تاريخها يدرسه، وعلى حاضرها يلاحظه ويتأمله، وعلى مستقبلها يرسم معالمه. وقد خرج من الدرس العميق لذلك التاريخ، والرصد الدقيق لهذا الحاضر بمعرفة جملة من الأمراض الحضارية التي أقعدت الأمة، وانتزعت منها القيادة، وأفقدتها السيادة، وصيّرتها ذيلًا بعد أن كانت رأسًا، ومن هذه الأمراض التي أشرت إليها سالفًا: التكديس، الشيئية، الذرية، اللافعالية، ذهان السهولة، ذهان الاستحالة، الأفكار الميتة، الأفكار القاتلة، القابلية للاستعمار. وغيرها وكان كلما اكتشف مرضًا نبّه إليه، وحذّر من أضراره، ووضح آثاره.

لم يكتف الأستاذ مالك بن نبي بالتعريف بتلك الأمراض والتحذير من أخطارها، ولكنه اجتهد في وصف الأدوية الشافية منها، والسبل الواقية منها ..وما هذه الأدوية إلا تلك الكتب القيمة التي سلكها في عنوان عام هو مشكلات الحضارة. فقد وضح لهم الوجهة، ونبههم إلى مشكلة الثقافة، وفتح أعينهم على الصراع الفكري، واقترح عليهم كومنولث إسلامي، وحذّرهم من إنتاج المستشرقين وأثره على الفكر الإسلامي، وبيّن لهم مشكلات الأفكار ومكانة المسلم في عالم الاقتصاد، وحدد دور المسلم ورسالته، وكان قد استفتح بالذي هو خير «الظاهرة القرآنية»وهي كنز المسلمين الذي لا ينفد، ودواؤهم الشافي لما في الصدور، ومغير ما بأنفسهم، ومعيدهم سيرتهم الأولى.

هذا غيضٌ من فيضٍ مما لمالك بن نبي من حقٍّ علينا في إبراز فكره ومنهجه وأطروحاته، التي عاش من أجلها، وسعى لتطبيقها في واقع الحياة، فهذا يحدو بنا أن نعيد قراءة مالك بن نبي، قراءةً واعيةً مُتَدَبِّرَةً؛ لما في كتبه من الفِكْر الراقي والزَّخَمِ العِلْمِيِّ الكبير .

هوية الكتابة النسوية

قراءة في رواية "الحب الظمآن" لـ: د. ثريا محمد علي



أ. د. أحمد يحيى علي

أستاذ الأدب والنقد، كلية الألسن، جامعة عين شمس، مصر

مدخل: في مصطلح الهوية والكتابة النسوية.

تنطلق هذه الدراسة من دال له موقعه في كثير من الخطابات، ألا وهو الدال "هوية"، الذي يأخذنا إلى الخصوصية، هنا تطرح الدراسة على فضاء القراءة سؤالًا تسعى إلى تفنيده: هل يمكن أن نحدد لما تقدمه المرأة من إبداع سمات خاصة تتيح لها موقعًا مميزًا (هوية) بإزاء ما يبثه الرجل من إبداع؟.

إن البحث عن إجابة لهذا سؤال يقتضي السير في مسارين، الأول: الشكل، وفوقه يكون السؤال: هل تتخذ الأنثى صيغة شكلية ذات ملامح محددة لإبداعها؟ الإجابة بالطبع ستكون بالنفي؛ فإذا ما نظرنا إلى فن الرواية على سبيل المثال نجد أنه فن احتمالي قلق على مستوى الشكل/ البناء، فهو لا يتقولب عند محدد بنائي يحاكيه المعنيون بهذا الفن، بل تفرض كل تجربة على صاحبها الشكل الذي يراه مناسبًا لظهورها أمام المتلقي.

إذن يتبقى مسار ثان لعل فيه الجواب: ألا وهو مسار المضمون: هل يحمل ما يسمى الأدب النسوي قضية/فكرة، بمتابعتها نستطيع أن نقول: إننا بصدد إبداع لا تنجزه إلا امرأة؟ إن البحث عن جواب يأخذنا إلى بدايات ظهور هذا التيار في الكتابة الذي عُرف في الغرب بـ(Feminism) الذي عُني في الأصل باهتمام المرأة بحضورها إلى جوار الرجل، وعلاقة هذا الرجل بها ووضعيتها وحضورها بإزاء وجوده، ونظرته إليها وما تحمله من سلبيات: كما هو الحال على سبيل المثال في "الباب المفتوح" للطيفة الزيات، و"فرج" لرضوى عاشور؛ ومن ثم يكون السؤال: هل كل إبداع تقدمه المرأة يركز في معالجته على هذه القضية يمكن أن نطلق عليه أدبًا نسويًّا؟ فماذا لو قدم رجل متعاطف مع المرأة ومنحاز إلى جانبها في مقاومة سلطة ذكورية لها مثالبها تجاه هذا المؤنث نسقًا إبداعيًّا يتناول هذه المسألة، هل يمكن أن نسمي ذلك أدبًا نسويًّا؟ إن تحديد سمات واضحة تمنح هذا الإبداع الذي ينضوي تحت مسمى (feminism) هوية مميزة يبدو أنه أمر متعذر الوصول إليه على الأقل في الظرف الزمني الراهن؛ بخاصة مع ظهور إبداعات لمبدعات تهتم بقضايا السياسة والمجتمع، مثلها مثل الرجل دون أن الالتفات إلى وضعية المرأة في علاقتها بالرجل ووضعه في قفص اتهام ومحاكمة، كما هو الحال على سبيل المثال في "بيروت 75" لغادة السمان، و"ثلاثية غرناطة" لرضوى عاشور.

الحب الظمآن: سلطة العنوان وتشكيل النص إن رواية الحب الظمآن للأستاذة الجامعية ثريا محمد علي التي تعمل في حقل الأدب بقسم اللغة الفارسية بكلية الألسن، جامعة عين شمس، ويمثل هذا العمل باكورة إنتاجها الروائي تضع نفسها منذ العتبات الأولى: أي صفحة الافتتاح وكلمة الغلاف في منطقة الكتابة النسوية التي تحيل إلى مرحلة البدايات: أي الإبداع الذي قدمته امرأة، ويضع الرجل في خانة الإدانة في نظرته إلى المرأة، التي يبرهن عليها سلوكه تجاهها: فحديث الغلاف الذي تخاطب فيه الكاتبة كل امرأة متزوجة لتنظر إلى ما قد يتفق مع واقعها في هذا المتن الحكائي، يعني أننا بصدد صورة مجازية كلية عبارة عن مجاز مرسل علاقته الجزئية: تطلق فيه الكاتبة عبر صوت الراوي الجزء/ البطلة نجمة في حياتها مع الرجل/فرجاني البتانوني، وتحيل إلى كل كائن في عالم الواقع على اتساعه، فيه كل امرأة شرقية تجد أوجها للتشابه بين حياتها وحياة نجمة بطلة عالمها الفني.

إن صيغة العنوان "الحب الظمآن" التي تعبر عن تركيب وصفي تضعنا على مستوى الشكل أمام ناقص لغوي، تصف جملة بحاجة إلى إكمال، ولا ندري هل الناقص يجعلنا أمام تركيب اسمي، أم فعلي؟ المهم أن النقص على محور الشكل يأخذنا كذلك إلى ناقص على مستوى المعنى: إن الظمأ نقص، احتياج، ألم، حالة تسافر بنا إلى حقل الماء وما يتعلق به من دلالات الحياة والرِّي، هذه الحالة المأساوية المتصلة بالدال "الظمآن" تسكننا في منطقة الواقع، في منطقة الأزمة، الكبد الذي يسم حياة الإنسان عمومًا مذكرًا ومؤنثًا في هذا العالم: فإذا كان الحب يمثل حالة فردوسية تتصل بعالم النعيم والمثال، وتعرج بنا إلى منطقة الجنة، فإن النعت "الظمآن" يفرض توازنًا لابد منه لوعي المتلقي الذي عليه أن يعيش عالمه ويتابع منطقة الفن هذه بعيدًا عن وهم لا يجب عليه الاقتراب منه.

ويتخذ هذا الظمأ لنفسه مطايا فنية يتحرك فوقها في داخل هذا العالم الفني: فنجمة بطلة الرواية تقص علينا من موقع الجدة التي جاوزت الستين حكايتها؛ بوصفها فتاة حالمة بفارس أحلام يحقق لها ما تصبو إليه كل أنثى من

معاني الأمن الاستقرار والتحقق؛ بوصفها إنسانًا له روح وجسد، لا بوصفها جسدًا أو متاعًا يتعامل معه المذكر/ الرجل على أنه أحد ممتلكاته، أو بمعنى أدق يتعامل معه بوصفه نصف إنسان أو جماد؛ إن هذه الجدة الحاكية داخل الرواية بضمير الغائب (هي) تأخذنا في مسار زمني ممتد يبدأ من مرحلة الطفولة وبيت أبيها وأمها الذي يمثل وعاء دافئًا حاضنًا لها لا يدوم طويلاً، بل يتلاشى مع غياب الرجل/ الأب بوفاته في حرب الاستنزاف، ودخول الفتاة نجمة عالمًا جديدًا، هو بيت الزوجية الذي آلت إليه من بوابة الجامعة وتعرفها إلى شاب يُدعى فرجاني البتانوني.

إن الحدث الروائي ينتقل بنا عبر الصوت الحاكي بضمير الغائب (هي) المعبر عن البطلة نجمة بما ينسج خيوط عالم سردي، فيه يبدو ساطعًا معنى الظمأ/ النقص/ الفقد؛ إن نجمة ظمآنة إلى أب يحنو عليها غاب بالموت في حرب الاستنزاف، ولم يستطع الرجل/ الزوج أن يعوض هذا الغياب؛ لأنه على مستوى القيمة والسلوك يمثل في وضعيته الدرامية دلالات الانحراف الخلقي والخيانة والطمع؛ إن الرجل/ فرجاني البتانوني زوج نجمة يتحول مع القارئ من كونه طالبًا إلى كونه زوجًا ومعيدًا في الجامعة، ثم أستاذًا جامعيًا يترقى في المناصب ليصير عميدًا لكليته، وهذه مفارقة يطرحها عالم الرواية في معالجته لشخصية المنوط بها أداء أدوار تربوية إصلاحية في داخل سياقه الاجتماعي، تراه يقدم قدوة ليست للاتباع، ولكن للنفور والمخالفة والهروب؛ إنه نموذج للزوج غير المعني باحترام زوجته ولا المهتم بشأن أولاده (سارة ومحمود) ولا المحافظ على زوجته في غيابها وحضورها، يمارس علاقات غير مرضي عنها دينيًا أو اجتماعيًا مع نساء يشغلن موقع الضحية بالنسبة إلى سلوكه المشين معهم.

إن الرواية المكونة من ثماني عشرة وحدة سردية تجعل من الوحدة الأولى منها بمثابة أساس فني تتكئ عليه باقي وحداتها؛ فمن حوار ديالوجي يجمع الابنة سارة بأمها، ويحمل في مضمونه حديثًا موجهًا من الابنة لأمها عن حزنها البادي عليها تبدأ ملامح هذا العالم في التشكل من خلال آلية مسرحية هي (one man show) عندما تلتفت البطلة من ابنتها إلى جمهور بانتظار حكيها خارج النص تُسمعه شكواها، هكذا تتولد وحدات الرواية السبعة عشرة من هذه الآلية في عملية سردية سمتها الاسترجاع (Flashback)، وفي طقس رومانسي يصدر إحساسًا مقصودًا بالعزلة والاغتراب اللتين تعاني منهما البطلة/ نجمة.

إن الراوي في "الحب الظمآن" يقدم المؤنث/ نجمة، والمذكر/ فرجاني البتانوني بحالة واحدة يعبر عنها ضمير الغائب، (هي) بالنسبة إلى المرأة، و(هو) بالنسبة إلى الرجل، وفي الغياب أزمة، فالبطلة غير متحققة، تشعر بالفقد، فكان هذا الغياب انعكاسًا لوضعيتها، والرجل ليس جديرًا بمقومات الرجولة الحقيقية، التي تعني التقدير والوفاء والرعاية بمعناها الحقيقي؛ لذا يأتي تغييبه أمرًا منطقيًا مبررًا من وجهة نظر فضاء الرواية.

إن الظمأ في العنوان يتمدد إذا ما نظرنا إلى البطلة



نجمة؛ فمن فقد حنان الأب، إلى فقد الأمن والرحمة والوفاء والتقدير مع الزوج، وفي مرحلة من المراحل نجد الظمأ يتجلى في فقد الوطن بالرحيل للعمل تحت قهر الزوج واستبداده في بلد عربي؛ هكذا تقص علينا الأستاذة الجامعية/ نجمة في طرحها لتجربتها المأساوية، فيها مؤنث (مفعول/ ضحية) نتيجة (فاعل/ جانٍ/ مستبد) هو فرجاني.

ولا يتوقف الظمأ عند المرأة البطلة فحسب، بل يتعدى إلى كيانها الأسري الذي أنكرت ذاتها من أجله، ولم تشأ أن تتحاز لحلمها بالزواج مرة ثانية بفارس ورجل حقيقي، وفضلت أن تعيش مقهورة مع رجل لا يعرف للرجولة الحقيقية سبيلاً؛ إن ولديها (سارة/ محمود) يشعران بالظمأ لأب يحنو عليهما وعلى أمهما، ثم نجد الظمأ بعد ذلك ينتقل إلى طبقة الأحفاد، وفيها نجد الطفلة منة الله ابنة سارة، التي ترى فيها البطلة الجدة مستقبلا تتمنى حصوله، مستقبلاً فيه المرأة تعيش عالمًا يمنحها حقها ويعطيها قدرها في ظل بيئة قيمية تعلي من شأن كل ما هو جميل في الفكر والسلوك في رسم علاقات صحية تجمع طرفي الثنائية الإنسانية (الرجل والمرأة).

ولا غرابة في أن نجد حالة من التناص تجمع البطلة في هذه المحاكمة السردية التي تعقدها لمجرم ينتمي إلى فئة الرجال مع آسيا زوجة فرعون؛ إننا نجد نجمة كلما ضاق بها حالها واشتدت أزمتها تكرر هذه العبارة الأثيرة "اللهم ابن لي قصرًا عندك في الجنة" في استدعاء للصابرة آسيا زوجة فرعون التي كانت تردد وهي في شدة العذاب هذه الآية في سورة التحريم ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

إن الكاتبة ثريا محمد علي في حالة من التعاطف الشديد مع بطلتها، هذه الحالة كان لها سطوعها الفني، عندما نجد أن بطلة روايتها تسمى "نجمة" ولا يخفى ما بين نجمة وثريا من علاقة ترادف على مستوى المعنى، ليس ذلك فقط بل إنها في تشكيلها للبطلة عبر الراوي المقدم لمنظومة السرد قد جعلت من نجمة أستاذة جامعية هي الأخرى، بما يرسخ لهذه الحالة من الاقتراب النفسي والوجداني بين ما هو كائن في الواقع وما هو ساكن في الفن.

ويبدو أن جو المأساة الذي يفرض نفسه على طقس هذا العالم الفني النابع من هذا الفاعل في العنوان الذي يمثله الدال "ظمآن" يبقى حتى نهاية هذا العالم؛ فالبطلة تدخل إلى غرفة العناية المركزة مصابة بأزمة قلبية حادة؛ إذ كانت قبل ذلك تعاني مرضًا في القلب؛ وكأن الداء النفسي المتمثل في فقد الحب قد استحال إلى داء عضوي فأصبح القلب ذاته ذاك العضو الجسدي مريضًا يعاني، ولا ندري حتى السطر الأخير في الرواية الذي تنادي فيه منة الله الحفيدة وابنة البطلة سارة بلهفة وحزن على الأم والجدة نجمة ما المصير؟ هل ستموت؟ هل ستحيا لتستأنف نشاطًا جديدًا ملؤه ابتسامات ظاهرة وحزن دفين على عالم لم تعشه؟ الأمر في كلتا الحالتين يقود إلى ختام مفتوح يرسخ لأزمة واقعية ما تزال قائمة على حالها لم تتغير مظاهرها.

وأخيرًا؛ إن الكاتبة عبر الراوي الحاكي حرصت بذكاء منها ألا يبدو في عالمها هذا ما يشير إلى ما يمكن تسميته بتطرف الرؤية، الذي قد يدفع إليه هذه الشيطنة للرجل الذي يشاركها البطولة/ فرجاني البتانوني وإظهاره من أول الرواية حتى آخرها في ثوب القاهر المعتدي؛ لذا نجد أن ثنائية (الرجل والمرأة) في هذا العالم الفني متنوعة في ظهورها بين سلبية كانت فقط مقصورة على الزوج فرجاني، وفي مقابلها وجدنا طقسًا مثاليًا وصورة طيبة يبدو عليها رجال، مثل: أخو البطلة صالح، والابن محمود، وزوج البنت سارة، كل هؤلاء يشغلون موقع الرجل الطيب في مقابل الرجل الشرير فرجاني، وفي والوقت نفسه يشكلون أدوات فنية تعتمد عليها الكاتبة في تدشين صورة متوازنة تحرص على ظهور هذا العمل بها.

وانسجامًا مع مفهوم الهوية يحاول هذا العالم السردي شأنه شأن غيره من العوالم الإبداعية عمومًا أن يصنع لنفسه ما يمكن أن نطلق عليه معجمًا خاصًا يبرز رؤيته لبعض المصطلحات التي وردت فيه وفق فهم فني يوازي المتعارف عليه في المعاجم التقليدية؛ فالظمأ عند ثريا محمد علي لا يعني العطش والحاجة الماسة إلى الماء، بل يعني الفقد الذي يتسع ليشمل: الأب، الزوج الطيب، الوطن. والرجولة الحقيقية هي أن ينهض كل رجل بأعباء المسؤولية الملقاة على عاتقه في احتواء زوجته، والحفاظ عليها، ومنحها التقدير الذي يليق بها بوصفها إنسانًا، والحرية وفق تجربة نجمة تبدو ساطعة في قدرتها على التخلص من سطوة فرجاني ومواجهته والابتعاد عنه بعد أن كبر ولداها محمود وسارة وأصبحا قادرين على فهم ما تعانيه أمهما، هذا التحول النوعي لحق به تحول مادي تمثل في طلاق نجمة من فرجاني ورحيلها عنه بمعونة ابنها محمود؛ إن الهوية تنتقل من عام إلى خاص إلى شديد الخصوصية؛ فمن المدلول (الخصوصية) تسافر مع المبدعة ثريا محمد علي إلى ما يسمى بالأدب النسوي، ومن الأدب النسوي الذي يحاكم رجلاً إلى تجربة خاصة جدًا تعد مثالاً عليه، هي هذه التي تتجلى جماليًا في ثنائية (نجمة وفرجاني البتانوني).

دلالة البنية الروائية ومدلول النص ..

قـراءة سيسـيوتاريخيـة لـروايــة (نساء القاهرة . دبي) لـ: ناصر عراق



عوني عبد الصادق

مصر

يُعد رولان بارت أهم من وضع مفاهيم التحليل البنيوي، هذه المفاهيم التي أسست أدوات تحليلية، ألقت الضوء على الكثير من أسرار السرد الروائي، وفسرت مع التطور المتلاحق الكثير من كيمياء الإبداع في لحظة التخلق الدافئة، لحظة الكتابة المبدعة، هذا على المستوى الداخلي، أما على المستوى الخارجي فتعدُّ "الرواية الحديثة تعبيرًا عن وعي فني متطور، وتجسيدًا لمفاهيم أدبية ونقدية جديدة تتصل بوظيفة الرواية وماهيتها وصلتها بالواقع وعلاقتها بالمتلقي، فهي بنية أدبية متميزة تكون نتيجة للتفاعلات الذاتية (طبيعة العناصر الروائية وتفاعلاتها) والتفاعلات الموضوعية (علاقتها بالواقع والتراث المحلي والعالمي وعلاقتها بجمهور القراء)"[1] ورواية "نساء القاهرة. دبي" تعبير صادق عن هذه الرؤية فهي تحكي عبر فصولها السيرة الذاتية لامرأة (سوزان صبحي ميخائيل) وقد اختار الكاتب أن يسردحياتها وهي تحت ضغط غيبوبة عميقة، بما يوحي بأن كل الاستدعاء الحر للبطلة على لسان الكاتب هو مكنون النفس، وتعبير صادق عن الذات، هذه السيرة التي تبدأ منذ وصول نبأ استشهاد والدها العقيد (صبحي ميخائيل) وهي طفلة خضراء في حرب 6 أكتوبر 1973، في نفس يوم وفاة عميد الأدب العربي طه حسين، (28 أكتوبر 1973) والعلاقة الفكرية والروحية العميقة التي تربطه بجدها جرجس الذي تتلمذ على يديه في كلية الآداب جامعة القاهرة، وقد عُلقت صورة تجمع عميد الأدب العربي مع طلاب دفعته ويظهر بينهم الشاب جرجس، ووضع إلى جوارها صورة الشهيد صبحي ميخائيل، هذه الصورة التي شكلت وجدان سوزان وكان السبب فيما آلت إليه حياتها، وحدد خياراتها التي وصلت بها إلى إصابتها بغيبوبة عميقة، لتستقر في مستشفى الوصل بإمارة دبي، حيث تقيم وتعمل مديرة قسم الديكور في تليفزيون دبي، منذ محاولتها الأولى لرسم بورتريه لأبيها الشهيد، وقد خاضت في غمار البحث عن ملامح أول رجل (الأب الشهيد) في حياتها رحلة طويلة، حاولت اقتناص لحظات الحب والسعادة بكل طاقتها، فشلت في الكثير منها ولكنها تمسكت بصدق المحاولة حتى النهاية، وتعد الشخصية المحورية (سوزان صبحي) في الرواية - فضَّل الكاتب - أو اختارت (لحظة الفعل الروائي) أن تتم القراءة النفسية لشخصيتها من خلال شخصية أمها إنصاف جرجس، هذا الخيال كما حدد دوره بدقة كولردج هو أن يختار الكاتب لكل شخصية من الشخصيات الملامح المتقابلة والمتعارضة، بحيث يعيد كل ملمح كأنه حجر يضاف إلى بناء الرواية الكبير..

هذه الحيلة المتميزة حققت أكثر من وظيفة، أهمها وضع خلفية تاريخية عن حقبة شهدت تحولات ضخمة في تركيبة الشخصية المصرية بشكل عام، وتدور أحداث الرواية في جزء كبير منها في حي شبرا الغارق في المحلية والممثل للطبقة الوسطى، وفي ظرف تاريخي بعد نكسة 5 يونيه، وضع الطبقة الوسطى أمام تحديات ضخمة، كانت تضرب في أعمدتها الصلبة، والمتمثلة في منظومة

التعليم، وقد شن هذا الهجوم على مؤسسة التعليم بمسرحية (مدرسة المشاغبين) في أوائل السبعينيات من القرن العشرين، واكبه نشر أفلام المقاولات وأغنيات وأصوات شعبية رديئة التعبير وتعيسة المعنى، ويعد التعليم هو الوسيلة الشرعية والمتاحة للفقراء للرقي الاجتماعي، وتحقيق الذات وإثبات هوية الانتماء .. وقد جاءت الإشارة الذكية من الكاتب إلى طه حسين صاحب المقولة الأشهر .. التعليم حق للجميع مثل الماء والهواء، ولعقله المستنير الذي كان يطل علينا عبر الأثير بصوت متميز "لغتنا العربية عسر لا يسر ونحن نملكها كما كان القدماء يملكونها ولنا أن نضيف إليها ...."

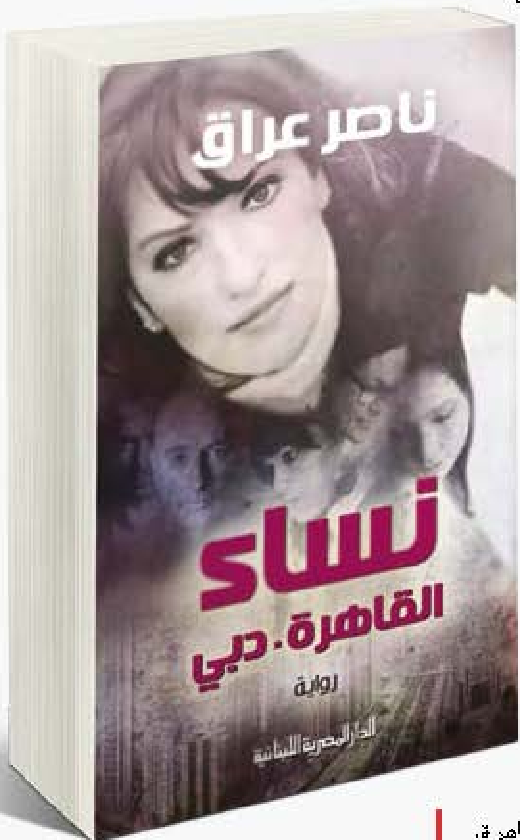
تعد إنصاف جرجس مدرسة التاريخ في مدرسة شبرا الإعدادية للبنات، ممثلة للطبقة الوسطى، في الظرف التاريخي الأخطر وبالظروف التي أحاطت بها، موت زوجها وهي في ريعان شبابها ويُتم أولادها وضعها أمام التحدي، وتركها عرضة للتحرش والطمع من حثالة ستسود بعد سنوات قليلة، ممثلة في موريس ألفونس (أمين المعمل في نفس المدرسة) والذي سيسبح في ماء الفساد الذي انتشر كالفيضان، ويصل به إلى مجلس الشعب رفيقًا لتاجر عتيد من تجار المخدرات (حسن بصلة) ليؤسس مرحلة لا تزال تضغط علي حياة المصريين حتى الآن .. لحظة بدء الرواية بأحداث محمد محمود "الاثنين 21 / 11 / 2011 الخامسة عصرًا" ولأن "الرواية الحديثة" تسعى إلى التعبير عن العلاقات الاجتماعية القائمة، تمثلها علاقة لنعدام التوافق بين سوزان وزوجها فؤاد مسيحة والموقوف في قسم الشرطة لاتهامه بجريمة قتل شاب هندي، هذه العلاقة التي لا جدوى منها والذي عرفها فيلسوف العبث (ألبير كامي) بأنها انعدام التوافق بين الفرد من ناحية والعالم من ناحية ثانية "والرجل يمثل لسوزان صبحي العالم، وتهدف الرواية الحديثة إلى التأثير في القارئ عن طريق تقديم" الحقائق التوعية الفنية "بصورة مقنعة . ويحدث في الغالب التركيز والسعي إلى تجسيد مبدأ مهم من جماليات التلقي يتمثل في الإيهام بالواقعية"[2].

وتظهر العلاقة الجدلية في الرواية، بين الواقع والخيال منذ البداية بأحداث محمد محمود، وبالحديث عن أحداث 18 - 19 يناير 1977 عندما نزل الجيش لحماية الشعب، وما إن رأت سوزان الدبابة في دوران شبرا، تذكرت زيارتها لمعرض الغنائم بعد حرب أكتوبر، وجاءت زيارة السادات لإسرائيل، لتأكيد واقع جديد فرض شروطه على الجميع، "ولم تصدق إنصاف أستاذة التاريخ هبوط السادات مطار بن جوريون، وجلس أبوها جرجس مذهولاً، وسألته: هل يمكن أن يحدث سلام بيننا وبين من قتلوا صبحي؟! هذه العلاقة النوعية بين الرواية والواقع، وقد لا يعنينا هنا الدخول في تفاصيل هذه العلاقة بمقدار ما يعنينا استخلاص الدلالة الكلية في تصميم الرواية الحديثة وأهدافها من خلال علاقتها بحركة الواقع/ لعالم"[3]. وخير من يمثل هذه العلاقة شخصية سيد بن حسين البقال الذي يسافر إلى العراق ويختفي ليظهر بعد سنوات بهيئة غريبة بعد انضمامه إلى المجاهدين الأفغان، ورمي أصدقاء أبيه (جرجس ومرقص ومرسي) بالكفر ويختفي من الحارة ليظهر مرة أخرى بعد ارتكابه لجريمة قتل السياح في الأقصر، يقبض على أبيه ويعود ليلفظ أنفاسه بعد يومين ..

لا حكي دون وظائف كما يذكر فلا ديمير بروب في كتابه (مورفولوجيا الحكاية الخرافية) ربما أن وظائف الشخصية الدراماتيكية من الأجزاء الأساسية للحكاية، "ومهمة الفن الروائي هنا تكمن في إثارة الأسئلة والإجابة عن أسئلة أخرى، وهو قادر على فهم العالم وتفسيره وتغييره والسيطرة عليه"[4]. ويقسم رولان بارت الخطاب السردي إلى وحدات، ويرى أن الوحدة تتألف من كل مقطع من الرواية، ويسهم ذلك في الرواية الحديثة على الإسهام في إيجاد علاقات جديدة (علاقة سوزان ودكتور عزت محمود أبو النيل، الذي يتلقى تليفون يخبره باستشهاد ابن شقيقه في أحداث محمد محمود، فيودعها ويعود إلى القاهرة، ويستقر في ميدان التحرير لعلاج الجرحى، وعندما تلقت تليفون من صديقها القديم وزميلها في الحزب اليساري (محمد وجدي) يخبرها بأن د/عزت قد تلقى عدة رصاصات استقرت واحدة منها في عينه اليسرى، وحمل إلى القصر العيني بين الحياة والموت، تسقط سوزان مغشيًا عليها .. وتتشعب العلاقات بين شخصيات الرواية، فيليب/جيسيكا، مادلين/منير سامي، محمود محروس/ الفلبينية شيماء) فهي تصدر عن وعي جمالي يتخطى حدود الوعي السائد، ويتجاوزه إلى آفاق جديدة"[5]، أن التفاعل بين الحدث والشخصية يؤدي إلى نمو الأحداث وفق مبدأ العلّية أو السببية، وكل هذا يؤدي إلى التوازن في العلاقة بين الحدث والشخصية والزمان والمكان، وتأتي تقنيات الرواية الحديثة تلبية لرؤيتها ووظيفتها وتؤدي الأساليب السردية دورًا رئيسيًا في توازن البنية الروائية برمتها، والاهتمام بالتفاصيل والجزئيات وتصوير نثريات الحياة التي تبدو دالة داخل الإطار الفني للرواية[6] وقد اعتمد الكاتب ناصر عراق على خبرته التشكيلية في رسم الشخصيات، وساعدته خبرته السينمائية على استخدام تقنيات القطع السينمائي، ونثر قطرات الزمن السردي عبر الفضاء الرواية، تقديمًا وتأخيرًا دون أن يفقده ذلك القدرة على التشويق مستخدمًا تقنية الفلاش باك.

الهوامش

1-6 أنماط الرواية العربية الجديدة .. تأليف د. شكري عزيز الماضي



"هذا الخيال كما حدد دوره بدقة كولردج هو أن يختار الكاتب لكل شخصية من الشخصيات الملامح المتقابلة والمتعارضة، بحيث يعيد كل ملمح كأنه حجر يضاف إلى بناء الرواية الكبير."

بلاغة التصوير في نثر الجاحظ

"صورة المرأة في رسالة القيان"



فهد أولاد الهاني
أستاذ باحث - المغرب

"في وقت مبكر من عصرنا الحديث بدأت بلاغة الجاحظ من جديد تشكل موضوعًا للمناقشة وإبداء الرأي"
** البلاغة والسرد، ص: 110

لقد أجمع النقاد والدارسون، لما خلفه الجاحظ من نصوص نثرية، على أن هذه النصوص تكتسب قيمتها الأدبية مما يتسم به نثرها من قدرة على التصوير وبراعة في التعبير عن صغائر الأشياء وغرائب السلوكيات، ولعل ذلك ما جعل طه حسين يفسر أدبية كتاب "البخلاء" بمعيار "التصوير الدقيق الذي لا يقاس إليه تصوير"[1]؛ بيد أن نثر الجاحظ لم يكن ليوجد لنفسه هالة بلاغية متميزة لو لم يستنجد بسمات فنية تنأى بجمالياتها عن سلطة الشعر، وتفتح لنفسها آفاقًا تخرج بلاغة النص من الحدود الضيقة التي طالما انحسرت في جزر جمالية معزولة تحدها أبواب من التشبيه والاستعارة وعموم المجاز، لتتجاوز ذلك إلى حدود أرحب تجعل النثر يستند في رؤيته البلاغية على سمات جمالية تنقاد لمسلمة "الوعي بالجنس" (générique Conscience) وتبني في المقابل ملامح النثر الأدبي الجميل.

ففي رسالة القيان يكشف النثر عن رهان بلاغي يقصد الجاحظ من خلاله بناء أسس مناقضة لأصول الشعر العربي القديم[2]، وهو بذلك يتحدى بنثره بلاغة الشعر التي عنيت بتصوير مفاتن المرأة ومحاسنها، دون أن تخوض في تصوير أفعالها وسلوكاتها؛ من هذا المنطلق تغدو رسالة القيان بمثابة صراع من الكتابة الأدبية التي تسعى إلى الانتصار على ما ألفه الذوق النقدي القديم من بلاغة تولى زمام ريادتها الشعر، وحاول غير ما مرة أن يقدم أيقونة المرأة في حلة من التصوير الجسدي الذي لا يغادر ما تقع عليه الحواس وما تقف عنده العيون، غير أن الجاحظ اتخذ من رسالته هاته مدخلاً إبداعيًا سخر من خلاله نثره الأدبي لمنازعة الشعر تلك المكانة التي طالما حظيت برضا النقاد القدامى واستحسانهم، وهو إذ يعلن عن هذا النوع من التحدي يثير في ذهن المتلقي إشكالات أهمها: إلى أي حد استطاع نثر الجاحظ: في تصويره للنماذج البشرية: أن يتخلص من سلطان التصوير الشعري، ويبني في المقابل قواعد مغايرة للتصوير في النصوص النثرية؟ وهل استطاعت رسالة القيان أن تخرج صورة المرأة من حيزها التقليدي "الصورة الجسد" إلى حيز أغرب يتمثل في "الصورة الفعل"؟ بحيث يسترد النثر ما تم تغييبه من جوانب في شخصية المرأة التي يأبى الجاحظ اختزال أنوثتها في فتنة الجسد ومحاسنه.

1- ومضات من رسالة القيان:

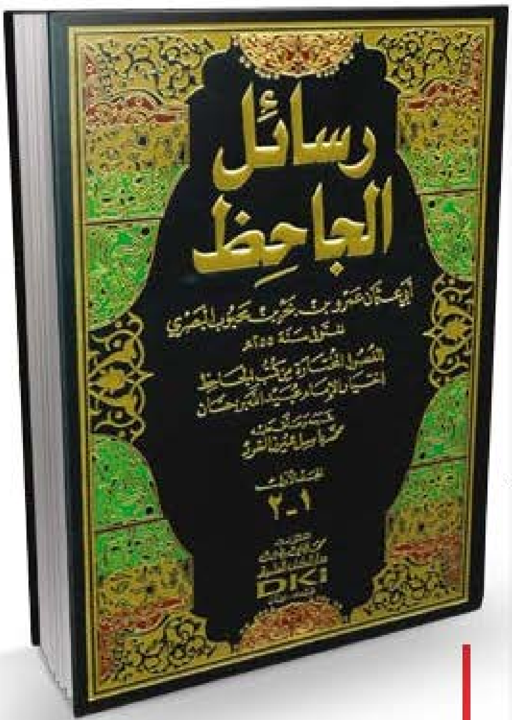
رسالة القيان هي إحدى رسائل الجاحظ في مجموعة "داماد" التي اعتمدها المحقق عبد السلام هارون، وعنوانها "كتاب القيان"، وهو كتاب دعا من خلاله الجاحظ إلى الخروج عن الأعراف والتقاليد في معاشرة النساء، مدافعًا بذلك عن حضور المرأة في النظام الثقافي العام، لأن في هذا الحضور حضورًا لبلاغة المرأة وثقافتها وسحرها، واستشهد لذلك بنوادر النصوص والأخبار، وعرج: بما وهب من قدرة على الملاحظة ودقة في الوصف: على وصف عالم القينة وثقافتها، ورصد بلاغة تأثيرها في نفوس "الربطيين"، دون أن يغض الطرف: وهو الخبير بتصوير خبايا النفوس ودقائق الأشياء: على ما يفعله

الغناء بنفوس المستمعين وما يوقده "الجمال" من مشاعر الحب والعشق والغرام، وقد سخر أبو عثمان رسالته لتصوير خلال "القينة" الساحرة بكلامها، المالكة قلوب العشاق بغنائها، راصدًا بذلك طبقة اجتماعية أفرزها التمدن الحضاري في المجتمع العباسي، حيث كان لحياة البذخ والترف والنعيم التي رسا عليها المجتمع في ذاك العصر الدور الأساس في نشوء فئات مهمشة وروابط اجتماعية متباينة، تلقفها نثر الجاحظ بكثير من التصوير والوصف والتحليل.

والناظر في كتاب (القيان) يقف به نظره على أن الكتاب هو رسالة موجهة من "مقينين"[3] ذكر الجاحظ أسماءهم في صدر رسالته، وأسبغ عليهم أوصاف الإخوان" المستمتعين بالنعمة، والمؤثرين للذة، المتمتعين بالقيان والإخوان"[4]. وهم أناس تربطهم أواصر التمتع بالجمال وتحكمهم تجارة الجواري والقيان، ولذلك تنافسوا في الدفاع عن "أنفسهم وفرض تجارتهم حتى لا تبور سلعتهم، وحرصوا على دفع الناس إلى وصفها تجارة حلالاً، إذ لا نص يحرمها في اعتقادهم، ولا حديث ينكرها"[5]. فمن هؤلاء المقينين وجهت الرسالة إلى "أهل الجهالة والجفاء، وغلظ الطبع، وفساد الحس"[6] الذين ينكرون نعمة القيان، وينتصرون لإنكارهم بدليل من القرآن أو الحديث الشريف.

لقد جعل الجاحظ من رسالته فضاء يتحاور في فقراته قضية نزاع فقهي بين فريقين متعارضين، أولهما يؤمن بجواز اختلاط المرأة بالرجال ومحادثاتهم، والثاني يرفض هذا الاختلاط و يحرمه: ونتيجة هذا التباين في المواقف والاختلاف في القناعات طغى على الرسالة: بالإضافة إلى المقصدية الأدبية الإمتاعية: المقصدية الحجاجية التداولية التي شكلت ملمحًا من ملامح بلاغة الرسالة ورافدًا من روافد خطابها.

إن رسالة "القيان" فن من الكتابة النثرية تم تسخيره لتصوير عالم "القيان" بكل متعلقاته النفسية والاجتماعية والثقافية، وما هؤلاء القيان إلا إماء "يحسن الرقص والمداعبة والغناء"[7] وتكفيهن في ذلك شهادة الجاحظ الذي أقر بأن الواحدة منهن تنشأ "من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والأخانيث وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يسمع منه كلمة جد، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة ولا مروة"[8]. هكذا استوى عالم القينة على خلال من اللهو والمجون والإغراء، وانعقدت نتيجة لذلك روابط مهنية لم يكن للمجتمع العربي إلف بها ولا عهد، فالتأم شمل "القيان" في رابطة اجتماعية تجمع كلا من "القيان" و "المقينين" و"الربيطين" حتى غدا التقيين "صناعة كريمة شريفة"[9] تلبي حاجات من عشق القد الجميل، وسلم مهجته برمية من لحظ وتعابة من تبسم، فأوقعه ذلك في حبال الهوى وانقاد إلى غواية القينة بسحر كلامها وعقيرة حلقها، والظاهر مما سبق أن الجاحظ في تناوله لهذه الطبقة من النساء لم ينطلق "من تجربة غزلية ذاتية، ولم يصف قينة بعينها، بل انطلق من ظاهرة حضارية عامة"[10]. ودليل ذلك أن الرجل لم يختر للقينة "التي يصفها اسما من الأسماء"[11]. فقال "إن القينة لا تكاد تخالص في عشقها، ولا تناصح في ودها لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة"[12]. وكأن الجاحظ يروم تصوير نموذج إنساني ترتد إليه خلال القيان جميعهن، وتقف عند بابه أفعالهن.



لقد شكلت رسالة القيان مرتعًا فسيح الصفحات نثر من خلاله المؤلف ملامح بلاغته الرحبة، وضمنه ما يؤمن به من رؤى ثقافية وفنية واجتماعية، حتى صارت: بما حظيت به من شهرة: قبلة كل أديب، ووجهة كل بليغ شغفه من الكلام سحر وصفه وبراعة تصويره ومنطق احتجاجه.

2: صورة المرأة في نثر الجاحظ:

2-1 : المرأة البليغة:

لم يخل الشعر العربي القديم من قصائد شعرية تناولت بالوصف والتصوير صورة المرأة الجسد، بوصفها أيقونة تبعث على المتعة والتسلية، حيث عرج كثير من الشعراء على تقصي أوصافها الجسدية، وأسهبوا في وصف محاسنها الفاتنة، التي جعلت منها رمزًا يدل على ما تبوح به الطبيعة من جمال أخاذ، ولم يكن الشعر ليستر هذا الوصف الذي أرخى ظلاله على جسد المرأة دون روحها وفعلها، حتى غدا بذلك ظاهرة فنية يتلمسها النقاد في أغراض فنية من قبيل الغزل والتشبيب وغير ذلك، فكان من الطبيعي والحال هاته أن يزخر تراثنا الشعري بشعراء كبار عرفوا بمعية من أسماء صويحباتهم، واستقرت صورة المحبوبة الجميلة موضوعًا للشعر عند طائفة منهم، إلا أن هذه الصورة لم تحد في تكوينها عما تتصف به النساء من جمال فتان "في الوجوه النيرة، والمحاسن الرائعة المعجبة، والصور المليحة الأنيقة، واعتدال التركيب، واستقامة التنوير، وسبوطة الشعر وجزالة الفروع، وجعودة الغدائر واسترسالها على المتون كالأشطان، ونجل العيون وحور الأحداق وبرج المقل وأسالة الخدود"[13] وغير ذلك مما لهجت به خواطر الشعراء، وجادت به قرائحهم في التصوير، حتى ليخيل إلى دارس الشعر القديم أن الباعث على قول كثير من قصائده ما للمرأة من جمال ساحر يخلب ألباب الشعراء و يأخذ بتلابيب إبداعهم، وحسبي من ذلك أن معظم هؤلاء الشعراء[14] وقفوا في وصفهم على مفاتن المرأة ومحاسنها أكثر مما وقفوا على خلالها النفسية، وأفعالها التي تعكس أحوالاً من طبيعتها وشيمًا من سلوكياتها وتصرفاتها، فهذا ذو الرمة يصف الجمال المادي لحبيبته فيقول:

> "وقد سخر أبو عثمان رسالته لتصوير خلال "القينة" الساحرة بكلامها، المالكة قلوب العشاق بغنائها، راصدًا بذلك طبقة اجتماعية أفرزها التمدن الحضاري في المجتمع العباسي، حيث كان لحياة البذخ والترف والنعيم التي رسا عليها المجتمع في ذاك العصر الدور الأساس في نشوء فئات مهمشة وروابط اجتماعية متباينة، تلقفها نثر الجاحظ بكثير من التصوير والوصف والتحليل."

براقة الجيد واللبات واضحة

كأنها ظبية أفضى بها لبب

عجزاء ممكورة خمصانة قلق

عنها الوشاح وتم الجسم والقصب

زين الثياب وإن أثوابها استلب

فوق الحشية يوماً زانها السلب

تريك سنة وجه غير مقرفة

ملساء ليس بها خال ولا ندب [15]

> "لم تكن المرأة في رسالة القيان لذة تباع وتشترى ومتعة تعشق وحسب، إنها؛ بالإضافة إلى ذلك كله، قوة جامحة من الرزانة، وأنموذج بشري ناطق بدرر من الجمل البليغة، وكاتبة بارعة"

وهو وصف جسدي سخره الشاعر بغية تشكيل صورة مكتملة وجميلة لمواضع من جسد حبيبته، بحيث لا مجال للوقوف في هذه الأبيات على ما يرتبط بجوانب أخرى تتعلق بالروح والفعل والعقل، التي قد تفيض بها المرأة على ما حفره الشعر في الوعي الجمعي، فتمحو بذلك صورتها المختزلة في خصال من جسدها، والتي تجعلها ذاتًا تربطها بالمتعة واللذة والإثارة أواصر متعددة.

بيد أن نثر الجاحظ لم يذعن لما ترسب في الذائقة الشعرية من اختزال يحسر المرأة في محاسن جسدها، وإنما سعى؛ في تصويره المرأة؛ مسعى يشكل صورتها من روافد متباينة، وكأن الجاحظ بتبنيه هذا النهج في التصوير يروم كشف الستار عما أغفله الشعر من سمات تقدم المرأة بوصفها "نموذجًا اجتماعيًّا فاعلاً في محيطه"[16]، ولذلك لم تكن المرأة في رسالة القيان لذة تباع وتشترى ومتعة تعشق وحسب، إنها؛ بالإضافة إلى ذلك كله؛ قوة جامحة من الرزانة، وأنموذج بشري ناطق بدرر من الجمل البليغة، وكاتبة بارعة [17] تبدع بدواتها رسائل من العشق تخيط منها شركًا لمربوطيها. أو ليست المرأة عنده مسامرة للرجال في حديثهم، وحافظة من الشعر عيونه التي تصطاد بها طلابها، وصاحبة رأي ومشورة عند بعض الخلفاء؟ ثم ألم تكن بلاغة جوابها هي التي حقنت دمها من الإهدار؟ ففي سياق إبراز الجاحظ لهذه السمة من شخصيتها البليغة أورد في رسالته خبر جميل وبثينة التي "حسك في صدر أخيها ما حسك من استعظام المؤانسة، وخروج العذر عن المخالطة، وشكا ذلك إلى زوجها وهزه ما حشمه، فكمنا لجميل عند إتيانه بثينة ليقتلاه، فلما دنا لحديثه وحديثها سمعاه يقول ممتحنًا لها: هل لك فيما يكون بين الرجال والنساء فيما يشفي غليل العشق ويطفئ ثائرة الشوق؟ قالت: لا، قال: ولم ذلك؟ قالت: إن الحب إذا نكح فسد. فأخرج سيفًا قد كان أخفاه تحت ثوبه فقال: أما والله لو أنعمت لي لملأته منك، فلما سمعا بذلك وثقا بغيبه وركنا إلى عفافه، وانصرفا عن قتله، وأباحاه النظر والمحادثة" [18]

لم تذعن بثينة في هذا الخبر لما راودها به جميل وأبت أن تنقاد لغوايته المفتعلة،وأخرجت بجوابها (إن الحب إذا نكح فسد) المرأة من حيز الشهوة الجامحة التي طالما تغنى بها الشعراء إلى حيز الخطاب البليغ الذي دفع جميلاً إلى تغيير موقفه وسلوكه معًا. جواب مختصر لكنه بالغ التأثير في مخاطبه،وبفضله انتصرت المرأة الناثرة على الرجل الشاعر دون أن تكون في حاجة إلى تطعيم كلامها بشيء من التشبيه و الاستعارة والمجاز، وبذلك يعلن النثر انتصاره على يد المرأة التي أتاح لها الجاحظ فرصة الكلام لتكشف ملامح من شخصيتها البليغة التي تجمع الشعر والنثر والكتابة والارتجال والحفظ والرواية، فتنأى بذلك صورتها عما ألفه القارئ من ملامح مادية فاتنة. وتصطنع لنفسها أبعادًا رحبة تشكل صورتها الشخصية.

2-2 المرأة الفاتنة:

" صورة المرأة في النثر ليست صورة حسية تقوم على وصف المحاسن والمفاتن كما هو الحال في شعر الغزل ، بل تقوم على تأثير الجمال في المحيط الإنساني الذي تعيش فيه"

*** ** محمد مشبال**

بتنا على يقين تام بأن أبا عثمان قد جعل من نثره فضاء تصويريًّا يسع أبعادًا رحبة من السمات الفنية التي غيبها الشعر في تشكيله صورة المرأة، فبعد أن ظفر الشعر بجسد المرأة واحتفى بمفاتنها المادية، يقف نثر الجاحظ مستلهمًا لصورتها خصائص وأفعالاً تعري جوانب منسية في شخصيتها، وتفتح بلاغة التصوير عنده على رؤية من الوصف لا يقف مداها عند حدود الجسد وتفاصيله التي يستسيغها الذوق النقدي العربي، ففي رسالة القيان يكشف النثر عن سمة "المرأة الفاتنة" التي تتخذ من سحر فتنتها سلاحًا تسحر به طلابها من الرجال وتبلغ به أهدافها وطموحاتها؛ ولعل في هذه الفتنة من الفعل ما استدعى من النثر أن يولي وجهه نحو تصوير المرأة الفاتنة وأثرها في المحيط الاجتماعي الذي تعيش فيه. يقول الجاحظ واصفًا غناء القينة و تأثيره على سامعيه:

"وإذا رفعت القينة عقيرة حلقها تغني حدق إليها الطرف، وأصغى نحوها السمع، وألقى إليها القلب الملك، فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدي إلى القلب ما أفاد منها قبل صاحبه، فيتوافيان عند حبة القلب فيفرغا ما وعياه، فيتولد منه مع السرور حاسة اللمس، فيجتمع له في وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له في شيء قط. فيكون في مجالسته للقينة أعظم الفتنة". [19]

هي لوحة من التصوير إذًا، انكب فيها الجاحظ على تصوير ما يتركه غناء القينة من أثر في سامعيه؛ بحيث تصبح القينة ردفًا للبلاغة في التأثير، وتنصهر بذلك المرأة في البلاغة من جهة ما تحققه من أثر في المخاطب، وهو أثر تعوذ منه الجاحظ بقوله "اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل" [20]، هذه الفتنة التي رصد لها النثر في رسالة القيان إمكانات سردية تعاقبت فيها الجمل الفعلية على تصوير جوانب من أثر الغناء في جسد السامع ونفسه معًا، وهو الأثر الذي اقتنص له الجاحظ من ردود فعل السامع صورًا مترابطة من التأثر الذي تذعن له حواس من بصره و سمعه حتى يصل ذلك إلى القلب، وقد استجار السرد في ذلك بجمل ذات أفعال وارفة الظلال في معانيها (حدق، أصغى، ألقى، استبق، تولد ..)، وقيد هذه الأفعال بتواتر الأحداث التي علقت أفعالها بوصف خطية من الحركة المتنامية في نسق تصاعدي (فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدي إلى القلب ما أفاد منها قبل صاحبه فيتولد منه مع السرور حاسة اللمس)، وأوغل بوصفه في رصد الحالة الوجدانية التي تنتج عن سماع الغناء (السرور)، بحيث يجتمع للسامع (في وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له في شيء قط). كل هذا وذاك يجعل من غناء المرأة ثوبًا من ثياب فتنتها، ولونًا من ألوان بلاغتها التي تنازع الشعر في قوة تأثيره على النفوس.

ولم تكن المرأة فاتنة بعقيرة حلقها ورخامة صوتها وحسب، بل أبرز لها الجاحظ وجها آخر من وجوه فتنتها التي ميزت شخصيتها، فهي المرأة المحتالة التي جمعت بالإضافة إلى سمات الغدر والإيهام قلة المناصحة والخيانة، وجبلت في فطرتها على "نصب الحبالة والشرك للمتربطين"، وأظهرت من سلوكياتها عكس ما تضمر في باطنها، "فتبكي لواحد بعين، وتضحك للآخر بالأخرى، وتغمز هذا بذاك، وتعطي واحدًا سرها والآخر علانيتها، وتوهمه أنها له دون الآخر" [21] فجاءت فتنتها مترجمة بترسانة من الأفعال التي تستدرج بها مربوطيها، حتى لتبدو في تصرفاتها متفننة في الاستدراج، قادرة على الاحتيال، متنصلة من عهودها ووعودها، وهي في كل ذلك مراودة بالقول والفعل والحركة. تنصب؛ في خطابها؛ شراكًا من الكلام الجميل الذي يعضد من سحر جمالها وغنائها فيغدو شعرها أداة إغواء وكيد، وتستعين بحركات وجهها في الرفع من حدة المراودة (فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ، وداعبته بالتبسم..)[22]، بحيث لم يهدأ لها بال من دون أن تسخر لمراودتها أفعالاً مصطنعة تتوخى منها الإيقاع بضحيتها وإيهامه بقدر ما هو عليه من منزلة عندها، فتكاتبه "تشكو إليه هواه، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعتها، وبلت السحاءة بريقها، وأنه شجبها وشجوها في فكرتها وضميرها، في ليلها ونهارها، وأنها لا تريد سواه، ولا تؤثر أحدًا على هواه، ولا تريده لماله

بل لنفسه.." [23]، وهي في كل ادعائها تتظاهر بالصبابة، وتبرع في صنعتها بحسن تمثيلها، وتتقن من الحيل ما تسحر به مخاطبها لتملك منه زمام عقله وقلبه. حتى إنها على حد تعبير الجاحظ تحسن ما "ليس يحسن هاروت وماروت، وعصا موسى، وسحرة فرعون". [24]

وقد تولى السرد رسم سمات شخصيتها المحتالة، فأخرج ذلك في أفعال متلونة ساهمت في نمو الأحداث وتقدمها، وأسبغ عليها نعوتًا من الأفعال والأوصاف تفضي كلها إلى معاني الاحتيال والمكر والمراودة، والحق أن هذه الأوصاف جعلت منها امرأة فاتنة بغواية الغناء، ساحرة بما للكلمة البليغة من تأثير في نفسية المتلقي، بحيث لم يكن من المصادفة في شيء أن يعمد الجاحظ إلى وصف ما تحفظه من مادة غزلية توظفها في مقام المراودة والإغراء، فـ "تروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعدًا...ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة، ولا ترهيب من عقاب، ولا ترغيب في ثواب؛ وإنما بنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة، والعشق والصبوة، والشوق و الغلمة"[25]، ويكون في حفظها لهذه المادة من شعر الغزل ما يكشف عن مكون آخر من مكونات صورتها الفاتنة. [26]

في الختام:

لم يكن نثر الجاحظ ليجاري بعض الفنون النثرية التي حاولت أن ترسخ حضورها الأدبي من خلال إذعانها للسلطة الجمالية التي رسخها الشعر في الذوق الأدبي العام، حيث كانت القصيدة "الشكل الأدبي الأقوى حضورًا في الوعي الجمالي والأقوى تحكما في صياغة المبادئ النقدية والمقولات البلاغية" [27]، وإنما نحا نثره؛ ممثلاً في رسالة القيان؛ منحى بلاغيًّا يهتدي في رؤيته البلاغية إلى مسلمة الوعي بالجنس، وهي مسلمة اقتضت من الجاحظ أن ينهل من تصور بلاغي زحزح إلى حد بعيد ما قام عليه الشعر من أصول بلاغية طالما احتفى بها النقد القديم وفرش لها من مصنفاته الشيء الكثير، ولعل في ذلك ما يفسر للقارئ المذهب البلاغي الذي تبناه الجاحظ في تصويره المرأة القينة، والذي جنح فيه نحو شيء من الواقعية في الوصف، وحرص على أن يستمد مقوماته الأدبية بمنأى عن خيالات الشعر ومجازاته، وأخرج بذلك الوصف الأدبي من حدود الجسد وتفاصيله إلى مساحات رصد من خلالها جمال الفعل والكلمة والتأثير. هذا و يظهر من الرسالة أن الجاحظ قد راهن في نثره على نقل "الأدب من طور بلاغة الأسلوب إلى طور بلاغة الحياة"[28] بحيث لم يعد النثر معه مشدودًا إلى سحر الكلمة وفتنتها الأدبية، بقدر ما أنه عكف على تصوير تفاصيل الحياة ودقائقها، وفي ذلك ما يفسر اهتمام الجاحظ بطبقة القيان مولدًا ومنشأً، ثقافةً وسلوكًا، جمالاً وغناءً، فتنةً وتأثيرًا، وهو في ذلك كله لم يحد في كتابته النثرية عن "التصوير الدقيق الذي لا يقاس إليه تصوير" [29] محاولاً بذلك تصوير نماذج من البشر على حقيقتها الإنسانية التي تجمع بين الخير والشر من دون مبالغة أو غلو.

الهوامش

** البلاغة والسرد، جدلية التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ محمد مشبال منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي تطوان 2010، ص: 110

1 – من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف بمصر، سنة 1969، ص: 66

2 – البلاغة والسرد، ص: 162

3 – من هؤلاء المقينين نذكر أبا موسى بن إسحاق بن موسى، ومحمد بن خالد خذار خذاه، والحسن بن إبراهيم بن رباح، وغيرهم.

4 – رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1964 الجزء الثاني، كتاب القيان، ص:143

5 – التقيين في العصر العباسي، محمد المختاري العبيدي، مجلة حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب جامعة تونس، العدد 28، سنة 1988،ص :257

6 – كتاب القيان، ص: 143

7 – مرجع سابق، محمد المختار العبيدي، ص: 256

8 – كتاب القيان، ص: 176

9 –نفسه، ص: 179

10 –أدبية النص النثري عند الجاحظ، صالح بن رمضان، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، تونس، سوسة، الطبعة 1، سنة 1990، ص،23

11 – الجاحظ والمرأة، شارل بلا، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، العدد 25، 1986، ص :17

12 – كتاب القيان، ص: 171

13 –المرأة في الشعر الأموي، فاطمة تجور، منشورات اتحاد كتاب العرب، 1999، ص: 298

14 – من هؤلاء الشعراء شعراء العصر الجاهلي الذين سخروا شعرهم لوصف جسد المرأة، وافتنوا في تصويره حتى عد مذهبهم في ذلك نموذجا يحتذى من لدن من لحقهم من الشعراء، وحسبي من ذلك دليلا قول امرئ القيس:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة　　　ترائبها مصقولة كالسجنجل

انظر في ذلك: ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر، ص:15

15 – ديوان ذي الرمة، رواية أبي العباس ثعلب، تحقيق وتقديم عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان بيروت، سنة 1982، ص: 26

16 – أدبية النص النثري عند الجاحظ، ص: 40

17 – يعتقد عبد الفتاح عثمان أن كتابة الرسائل الغرامية نوع فني جديد ابتكرته الجواري في العصر العباسي، انظر في ذلك: شعر المرأة في العصر العباسي، دراسة تاريخية وتحليلية وفنية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2004، ص:153

18 – كتاب القيان، ص : 149

*** البلاغة و السرد، محمد مشبال، ص: 132

19 – كتاب القيان، ص: 171

20 – البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة الطبعة السابعة،1998. الجزء الأول، ص:3

21 – كتاب القيان، ص: 175

22 – نفسه، ص: 171

23 – نفسه، ص: 172

24 – نفسه، ص: 175

25 – كتاب القيان، ص: 176

26 – أدبية النص النثري عند الجاحظ، ص: 29

27 – بلاغة النادرة، محمد مشبال، دار جسور للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 2001، ص: 64

28 –الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، الطبعة التاسعة، ص: 161

29 – من حديث الشعر والنثر،ص:66

المصادر:

- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة السابعة،1998.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر، 1969.
- ديوان ذي الرمة، رواية أبي العباس ثعلب، تحقيق وتقديم عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان بيروت، سنة 1982.
- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة 1964.

المراجع:

- أدبية النص النثري عند الجاحظ، صالح بن رمضان، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، تونس، سوسة، الطبعة 1، سنة 1990.
- بلاغة النادرة، محمد مشبال، دار جسور للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 2001
- البلاغة والسرد، جدلية التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، محمد مشبال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي تطوان 2010.
- التقيين في العصر العباسي، محمد المختاري العبيدي، مجلة حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب جامعة تونس، العدد 28، سنة 1988.
- الجاحظ والمرأة، شارل بيلا، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، العدد 25، 1986.
- شعر المرأة في العصر العباسي، دراسة تاريخية وتحليلية وفنية، عبد الفتاح عثمان، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2004
- الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، الطبعة التاسعة.
- من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف بمصر، سنة 1969.
- المرأة في الشعر الأموي، فاطمة تجور، منشورات اتحاد كتاب العرب، 1999.

كتاب: مستقبل الإسلام
The Future of Islam

مراجعة: توصيف أحمد باراي
Tauseef Ahmad Parray



ترجمة: عمر عثمان جبق

معاضر في قسم اللغة الإنجليزية بكلية المعلمين في جامعة الملك سعود - الرياض

الملخص

البروفسور جون إل. إسبوسيتو John L. Esposito هو عضو هيئة التدريس في جامعة جورج تاون Georgetown University واحد أهم الباحثين في الإسلام وسياسات المسلمين، وأكثرهم تأثيرًا. يحاول في النسخة الجديدة لكتابه "مستقبل الإسلام" (الذي قدمت له كارن ارمسترونج Karen Armstrong) أن يفهم "الصراع من أجل الإصلاح في الإسلام كي "يستكشف تنوع المسلمين الديني والثقافي والسياسي الذين يواجهون تحديات مخيفة في البلدان المسلمة والغرب، ويوضح حوار الإصلاح الإسلامي وديناميكيته، ويدرس محاولة مكافحة التطرف والإرهاب الديني، ويسلّط الضوء على مستقبل العلاقات بين المسلمين والغرب." ويعد هذا الكتاب ملهمًا وشاملاً وتحفة علمية؛ إذ يقدم طريقة للمضي قدماً نحو مستقبل أفضل للإسلام والمسلمين والغرب. ويخبرنا المؤلف إسبوسيتو من خلال كتابه هذا كيف وصلنا إلى ما نحن عليه الآن، وما يتوجب علينا فهمه وعمله لإيجاد تلك الطريقة الجديدة.

المقدمة

يعد الإسلام اليوم أسرع دين نموًا في إفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا بوجود أكثر من مليار ونصف مسلم يعيشون في 56 بلد تقطنه أغلبية مسلمة وبعض الأقليات البارزة في أوروبا وأمريكا (حيث يعد ثاني وثالث أكبر وأسرع دين نموًا فيهما على التوالي). ينتشر الإسلام في الوقت الراهن في كل أرجاء المعمورة، وتغطي عواصمه ومدنه الرئيسة مساحة عالمية تمتد من القاهرة إلى جاكرتا في العالم الإسلامي، ومن نيويورك وديترويت ولوس أنجلوس إلى باريس ولندن وبرلين في الغرب.

ولكن في الوقت نفسه وبعد مرور 12 عامًا على أحداث الحادي عشر من أيلول ما يزال هناك عدد كبير من الناس يتحدثون عن "صراع الحضارات" أو "ما الخطأ الذي حدث؟" أو "لماذا يكرهوننا؟" ويؤمنون بذلك. و في الوقت نفسه، هناك أسئلة عن الإسلام وكأن كل شيء جيد مرتبط بالجزء الآخر من السؤال، وكأن أي شيء سيء هو جزء من الإسلام، والأمثلة عن ذلك في أسئلة مثل "هل يتوافق الإسلام مع الحداثة والديمقراطية والقوانين

والمساواة بين الجنسين وحقوق الإنسان؟" و "هل الإسلام قادر على الإصلاح؟"

ويعتقد المؤلف، خاصة منذ سبعينيات القرن العشرين، بأن "الإسلام وسياسات المسلمين انتقلا من الكواليس إلى الواجهة " وبذلك يشهد المرء " اهتمامًا كبيرًا بالإسلام و تداولا كبيرًا له " (ص 4) لأن موضوع الإسلام والمسلمين سياسي وديني، وليس الإسلام " مجرد عقيدة ... ولكنه أيديولوجية ووجهة نظر عالمية تميز سياسات المسلمين ومجتمعهم" (ص 4)، وبهذا الاتجاه فإن كتاب "مستقبل الإسلام " يتعلق "بمستقبلنا جميعاً لأنه وكما يقول البروفسور إيسبوسيتو:

الإسلام والمسلمون اليوم لاعبون أساسيون في التاريخ العالمي، وهم جزء من فسيفساء المجتمعات الأمريكية والأوروبية، وفي عالم نستسلم فيه للانقسام بين " نحن " و " هم " فإننا نواجه تحديًا لتجاوز خلافاتنا (مع عدم نكرانها) و تأكيد إنسانيتنا المشتركة، وإدراك أننا مرتبطون فيما بيننا، ومعتمدون بعضنا على بعض، شئنا أم أبينا، وأننا شركاء في تشكيل مجتمعاتنا وعالمنا." (ص 5)

أفكار الكتاب و قضاياه و نقاشاته الرئيسة

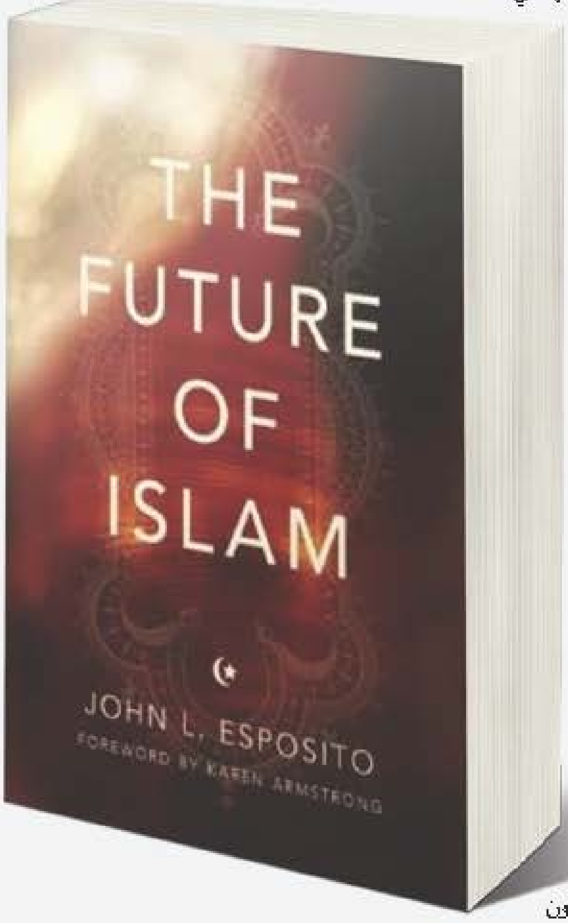
يقدم الفصل الأول من الكتاب بعنوان "الأوجه العديدة للإسلام والمسلمين" (ص 10 – 55) مقدمة مختصرة عن الإسلام والمسلمين، ومقدمة عن الإسلام في والغرب ، ويشير الكاتب هنا بوضوح إلى أنه وبالرغم من كلامنا العام عن الإسلام، " إلا أنه توجد أنواع كثيرة للإسلام أو تفسيرات كثيرة له " وهناك صور كثيرة متنوعة للإسلام والمسلمين، وواقع متعدد ومتنوع لهما كالصور الدينية الثقافية المتنوعة والكثيرة، إضافة إلى الصور السياسية والاقتصادية الأخرى (ص 11)، ويركز الكاتب أيضاً على فكرة أن الإسلام- شأنه شأن باقي المعتقدات - كان وما يزال " مصدرًا للتعاطف والأخلاق والفضيلة من جهة، ومصدراً للإرهاب والظلم والاضطهاد من جهة أخرى." (ص 12)

ويلقي الكاتب الضوء أيضًا على مفهوم "الجهاد في سبيل الله" (ص 48- 50) في هذا الفصل، وغيره من الفصول، ويذكر أن الجهاد - الذي يعني حرفيًا الكفاح/ الصراع، وليس الأعمال المسلحة أو "الحرب المقدسة" – هو مفهوم له "معان عديدة تم استخدامه والإساءة له عبر التاريخ الإسلامي"، ومؤخرًا " يؤكد المتطرفون الدينيون والمجموعات الإرهابية على أن الجهاد هو واجب ديني عالمي، وأنه يتوجب على المسلمين الحقيقيين كلهم الانضمام للجهاد للقيام بثورة إسلامية عالمية " (ص 48).

يقدم الفصل الثاني من الكتاب بعنوان "الله في السياسة" (ص 56 – 87) المعلومات الخلفية والسياق العام لفهم الإسلام السياسي، ودور الدين في السياسة والمجتمع، وأثره على المجتمعات المسلمة والغرب، ويمعن الكاتب هنا في توغّل الإسلام في سياسة المسلمين ومجتمعهم، ويبحث في أثره ومضامينه العالمية، محاولاً الإجابة عن أسئلة كثيرة مثل: ما هو الإسلام السياسي؟ وهل تشكل الحركات الإسلامية كلّها تهديداً؟

ويعتقد الكاتب أن المسلمين اليوم يواجهون تحديًا مضاعفًا يكمن في الإصلاح الديني والإصلاح السياسي، وكلاهما أساسي لتطور المجتمعات المسلمة وتهميش التطرف والإرهاب الديني واحتوائهما، وبذلك فإن التحدي المستمر يكمن في "صياغة إصلاحات عقائدية وتربوية وتطبيقها (في المدارس والجامعات) تقوم بمواجهة تحديات العولمة مواجهة أكثر فاعلية في القرن الواحد والعشرين الذي يحتاج المعتقدات الدينية كلها ليركز على المعتقدات الشاملة التي ترعى التفاهم والاحترام المتبادلين والتعددية الدينية دون المعتقدات الإقصائية" (ص 86 -87)

يتطرق الفصل الثالث بعنوان "يحتاج الإسلام إصلاحًا" (ص 88 – 141) إلى أسئلة وقضايا مهمة في الإصلاح الإسلامي، ويبحث في أصول الإصلاح ودرجة استمراره اليوم من مصر إلى إندونيسيا، مع وجود عدد كبير من القادة المسلمين والمفكرين من الرجال والنساء والإصلاحيين التقليديين والأكثر توجهًا نحو الحداثة ممن يتناقشون ويتحاورون بالعملية الديناميكية لإعادة التفسير والإصلاح، ويعرض الكاتب آراء مجموعة متنوعة، عالميًا وفكريًا، من الإصلاحيين من أمثال طارق رمضان وعمرو خالد والشيخ علي جمعة ومصطفى سيريتش ويوسف القرضاوي ونورشوليش مجيد ووتيموثي وينتر Timothy Winter وفرحات هاشمي وأمينة ودود وهبة رؤوف وعبد الله جيمنستيار وهم يتحدثون عن قضايا الإصلاح الديني والسياسي، ويعتقد الكاتب في بداية هذا الفصل أن السؤالين "هل الإسلام قادر على الإصلاح؟" و "هل هناك إصلاحيون مسلمون؟ "ليسا غريبين وحسب بل هما سخيفان أيضًا " (ص 88 -89) لأن المسألة ليست "فيما إذا سيكون هناك تغيير، ولكنها في حجم التغيير ونوعه " الضروري، ويعدّ الكاتب أن كل "أديان العالم الرئيسة قد تغيرت، وستستمر في التغيير" ومع الأخذ في الحسبان طبيعة البشر والسياق التاريخي والاجتماعي الديناميكي فإن "التغيير حتميّ" (ص 89)، وفي هذا السياق (لهذه الرسالة) أشارت كارن أرمسترونج في تقديمها للكتاب وأكدت أيضًا على وجود "إصلاحيين" - كما كان مارتن لوثر (1483 – 1556) - في العالم الإسلامي يعبرون عن



الكتاب: مستقبل الإسلام The Future of Islam
(Oxford University Press, 2013)
عدد الصفحات: 256
ISBN- 13: 978-0199975778
المؤلف: جون إل. إيسبوسيتو John L. Esposito
مراجعة: توصيف أحمد باراي Tauseef Ahmad Parray

نزعة مهمة في الفكر الإسلامي من خلال تحدي وجهة نظر الغرب السائدة عن الإسلام، وتفكيرهم هذا "لا يُعدُّ التفسير الحرفي للقرآن معياراً" من جهة، ومن جهة ثانية" يُعدُّ النقد الذاتي واجبًا دينيًّا إبداعيًّا و ضروريًّا" و "يمقت الإرهاب والعنف" و "يتوق لإطلاق جهاد يشمل الجنسين معًا." (ص 10)

ويرى الكاتب أنه على الرغم من تطرق هؤلاء المفكرين إلى " دور الإسلام في المجتمع المعاصر" (ص 89)، إلا أن التحدي الرئيس أمامهم يكمن في "أهمية الربط وإظهار الاستمرارية بين التغييرات المقترحة والمعتقدات الإسلامية الراسخة" وهكذا:

تعتمد شرعية الفكر الإسلامي الإصلاحي وقبوله أو رفضه، على الشخصية الإسلامية المزعومة وأصالتها. ولذلك، فإن "طريقة" التغير هي بأهمية "نوع" التغيير؛ أي أن عملية التغيير (المنهجية) غالبًا ما تكون بأهمية الإصلاحات الفعلية نفسها. (ص 94)

بعد تقديم الفكر الإصلاحي والآراء الإصلاحية عن طريق المقارنة يتوصل الكاتب إلى نتيجة مفادها أن "النقاشات القوية" تتنوع تنوعًا كبيرًا من السؤال عمن هو مؤهل لتفسير الإسلام، أو طريقة تفسير النصوص القرآنية المقدسة، إلى إسناد الحديث، أو الإسلام التقليدي القديم مقابل قدسية الحديث (يرجى مراجعة الصفحة 139) – و تضم بعض القضايا الرئيسة مكانة النساء وأدوارهن في المجتمع المسلم، وطبيعة الجهاد وقضايا التطرف الديني (في الغرب بشكل خاص) والعلاقة بين الدين والهوية والثقافة. وهكذا، يلاحظ المرء أن الكفاح (الجهاد) لإصلاح الإسلام قد "ولّد الحرارة والضوء وكلاً من الحوار والنقد اللاذع والتعايش والصراع" (ص 140).

ويقدم الكاتب في الفصل الرابع بعنوان "أمريكا والعالم الإسلامي: بناء طريق جديد " (ص 142 – 194) تحليلاً عن تحديات رهاب الإسلام Islamophobia والسياسات الأمريكية الداخلية والخارجية المخفقة، وأدوار الصهيونية المسيحية المتطرفة، ووسائل الإعلام، والخطر المستمر الذي يسببه التطرف الديني والإرهاب. كما ويلقي هذا الفصل الضوء على المعتقدات المتباينة، والحوار بين الحضارات ومبادرات مثل رسالة عمان و"كلمة سواء " (يرجى مراجعة الصفحات من 186 إلى 191) بالإضافة إلى دور الدبلوماسية العامة في النموذج الجديد لبناء صورة أمريكا ودورها في العالم المسلم. وتدعم كارن أرمسترونج في مقدمة الكتاب هذا الرأي، مقدرة في الوقت نفسه، قناعة كتاب إيسبوسيتو الحالي عندما تقول: إن "مستقبل الإسلام لا يعتمد ببساطة على فاعلية بعض الإصلاحيين المسلمين؛ بل يتوجب على الولايات المتحدة وأوروبا أن تلعبا دورًا رئيسًا أيضًا" (ص 11).

ملاحظات ختامية

وأخيراً يقدم إيسبوسيتو الآراء التالية الرئيسة والمهمة وليس بالضرورة الموافقة على افتراضاته.

– يقف المسلمون في العالم على "مفرق طرق رئيسي" في القرن الواحد والعشرين؛ إذ إنهم يواجهون عالمًا متعدد الحداثة؛ وبذلك فهم في صراع مع "كيفية العيش وتطبيق عقيدتهم في عالم متغير تغيرًا سريعًا. (ص 195)

– يعمل مسلمو الفكر الإصلاحي للتعبير عن "إطار عمل إسلامي تقدمي وبنّاء "لأنهم مهيئون لإعادة تفسير مصادر الإسلام وأعرافه لمواجهة تحديات الحداثة والتطوير والقيادة والأيديولوجية والديمقراطية والتعددية والسياسة الخارجية. (ص 195)

– المشكلة الجوهرية للتطور والاستقرار طويل الأمد في العالمين العربي والإسلامي "ليست في دين الإسلام أو الحركات الإسلامية، ولكنها في الصراع بين الدكتاتورية والتعددية." ولذلك لا ينبغي أن ينصبّ تركيز الاهتمام الأمريكي الرئيسي على الدين، بل على التغيير السياسي والاجتماعي والاقتصادي حيث يعيش المسلمون. (ص 196).

– ويبقى مستقبل العلاقات بين الإسلام والمسلمين من جهة والغرب من جهة ثانية إحدى القضايا السياسية والدينية الرئيسة؛ وليس الحوار بين الحضارات مجرد حكر على القادة والباحثين الدينيين بعد الآن لكنه "أولوية صانعي السياسات والقادة ككل، وموضوع السياسة الداخلية والخارجية، وجدول أعمال المنظمات الدولية." (ص 198)

– من الضروري إدراك أن أولاد إبراهيم ليسوا فقط جزءًا من الإرث اليهودي المسيحي وحسب، بل هم جزء من التاريخ والتراث اليهودي والمسيحي والإسلامي الغني أيضًا، وعليه ينبغي اتخاذ الخطوات وبذل الجهود لربط هذه "الحلقة المفقودة" لأن "شعوب أمريكا وأوروبا والعالم الإسلامي لديهم قيم وأحلام وطموحات كثيرة ومشتركة." (ص 198 – 199)

يختم الكتاب بهذه الرسالة اللافتة – وهي في الوقت نفسه محفزة على التفكير والتبصّر والإلهام:

إن مستقبل الإسلام والمسلمين مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالإنسانية جمعاء. وسيعتمد مستقبلنا جميعًا على العمل سويًّا من أجل الحكم الرشيد وحرية الدين والكلام والاجتماع، ومن أجل التطور الاقتصادي والتربوي. ويمكننا احتواء وإزالة دعاة الكراهية والإرهابيين الذين يهددون سلامتنا وأمننا ورخاء أسرنا ومجتمعاتنا. (ص 199)

على الرغم من أن المرء لا يجد أي تغييرات رئيسة في هذه النسخة الجديدة من كتاب "مستقبل الإسلام" (الذي طبع عام 2010 لأول مرة)، إلا أنه بالمجمل يعد كتابًا نافذًا وواضحًا وشاملاً يقترح طريقة للمضي قدمًا نحو مستقبل أفضل للإسلام والمسلمين والغرب. وبذلك يشكل هذا الكتاب حقًّا إحدى إسهامات البروفسور إيسبوسيتو، ويُوصَى به بشدّة لكل المهتمين في معرفة ماضي وحاضر ومستقبل الإسلام والمسلمين، والعلاقات بين المسلمين والغرب.

مصدر المراجعة الإنجليزية:
http://encompassingcrescent.com/2013/09/john-l-espositos-the-future-of-islam-oxford-university-press-2013-a-book-review-by-tauseef-ahmad-parray/

المرأة الصواب في الدنيا الخطأ



شعر

د. حسن كمال محمد محمد

الرياض

نساء الكون في امرأة أراك — فتيهي لن تطالي في علاك
ومن تبع الدلال ألا فعبي — فهاك الكون أجمعه فداك
جمعت من المحاسن خط حور — جمال لا يسطر في سواك
ولو كان الكمال حليف حي — أناخ الركب في عليا رباك
تخذت السامق الزاكي مرادا — مراقي الفضل تقصر عن مداك
حصان لا تحوم بك الدنايا — فربي من صفاء قد براك
غضضت الطرف في خفر رزانا — فيا لك من عروب بل ملاك!
وما أخلاك في حور وقد — وإشراق هتون ما جفاك!
فطهر فيك يرفل في حبور — وسيل براءة يكسو رداك
وأي سجية سكنت بأنثى — تغذ السير يحدوها خطاك
وكل جميلة ترنو إليك — فتفتن بالسواحر في لماك
وكل خميلة ظمئت لري — غداة شكت بعادا عن رواك
أريج منك يخلب كل صب — وكل العطر يقبس من شذاك
ولم تعلق بك الريب الدواهي — فأنى للمعايب من ذراك!
وإن تظلم ربوع الأرض طرا — فلا منجى لها إلا سناك
ولم تثمر حدائق يانعات — إذا ما فاتها يوما جناك
على بسط التألق قد درجت — ولم ترضي نوالا من بهاك
صنعتك من خيالي محض أنثى — فيرسو الحسن في مرفا حماك
وصغتك من جناني فوق ترب — فكنت الفكر يرقى مذ حواك
إليك القلب يملؤه حنين — وأشواق تفيض من نداك
أما تدرين أمنيتي وقصدي؟ — مناي العمر في امرأة أراك

تعرض "المجلة" على قرائها من أفضل الكتب المختارة.. كتب قيمة تستحق القراءة والتأمل.



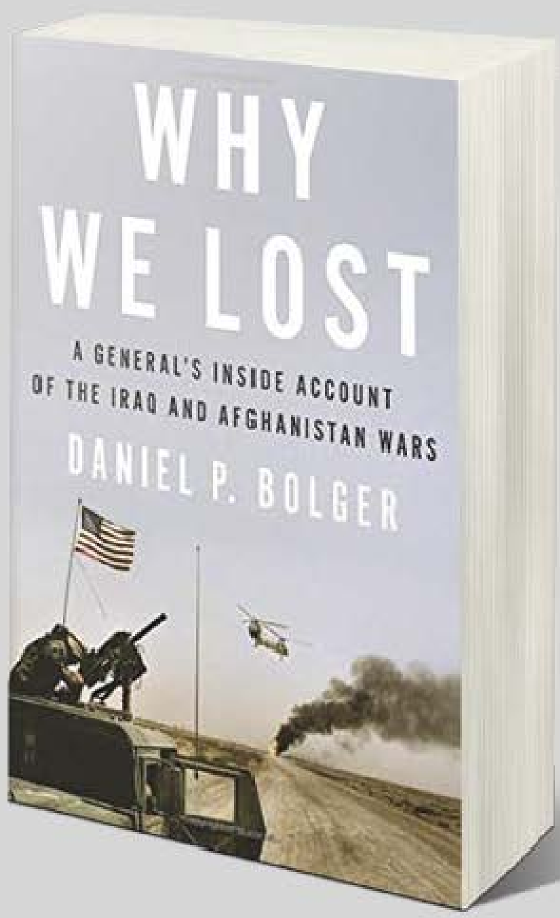
كتاب: البرنامج النووي الإيراني

- العنوان: البرنامج النووي الإيراني
- اسم المؤلف: أ.د. عطا محمد زهرة
- الناشر: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
- عدد الصفحات: 106
- تاريخ النشر: يوليو 2015

يتعرض الدكتور عطا محمد زهرة أستاذ العلوم السياسية إلى تحليل البرنامج الإيراني في كتابه "البرنامج النووي الإيراني"، الذي يتكون من مقدمة وخمسة فصول وخاتمة.

جاءت عناوين الفصول الخمسة على النحو التالي: الطموحات والدوافع، ومسيرة البرنامج النووي، وتداعيات تطور البرنامج النووي، وتسوية الأزمة النووية الإيرانية 2003-2015، ومستقبل البرنامج النووي. أما الخاتمة فقدم فيها بعض التوصيات المقترحة للدول العربية في كيفية التعاطي مع هذا الاتفاق الدولي.

كتاب: لماذا خسرنا.. نظرة من داخل الحرب في العراق وأفغانستان



- العنوان: لماذا خسرنا.. نظرة من داخل الحرب في العراق وأفغانستان
- اسم المؤلف: دانييل بولغر.
- اسم الناشر: أيمون دولان/ هوتون ميفلين هاركورت.
- الطبعة: الأولى، نوفمبر 2014
- عدد الصفحات: 544

مؤلف هذا الكتاب - الشاهد الحي على حربي العراق وأفغانستان- هو الجنرال دانييل بولغر، الذي تدرج من جندي في قوات المشاة الأمريكية حتى أصبح يحمل ثلاث نجوم على كتفه خلال 35 عامًا من عمله في الجيش الأمريكي.

بولغر كان قائدًا ميدانيًا في حربي العراق وأفغانستان حيث ساهم مع أرفع القيادات العسكرية في وضع الإستراتيجيات والخطط القتالية وكذا تنفيذها، وكان بذلك شاهدًا رئيسًا على مجريات هاتين الحربين منذ أحداث أيلول/سبتمبر 2011 حتى انسحاب القوات الأمريكية من العراق.

وقد سجل بولغر للموقف الأمريكي من خلال استقصائه الميداني للعمليات القتالية، بأمانة وشفافية، وخلص من خلال كتابه إلى حقيقة أن الأمريكيين قد "خسروا الحربين وكان بإمكانهم أن يتفادوا هذه الخسارة".

واعتمد بولغر في هذه الخلاصة التي وصل إليها على حقائق دامغة، في مقدمتها أن المعلومات الاستخبارية التي توفرت للجيش الأمريكي كانت مشوشة وغير دقيقة في معظم الأحيان، بينما كانت قرارات القيادة تتخبط بين النظريات العسكرية والجداول المضللة، ويتابع بولغر وينتهي إلى أن "الخسارة الحقيقية هي أننا لم نفهم طبيعة الطرف الآخر الذي نقاتله".



كتاب: الاستغراب.. المنهج في فهمنا الغرب

- العنوان: الاستغراب.. المنهج في فهمنا الغرب
- المؤلف: د. علي إبراهيم النملة
- الناشر: المجلة العربية، سلسلة: كتاب المجلة العربية، الرياض.
- الصفحات: 91
- الطبعة: الأولى، 2015

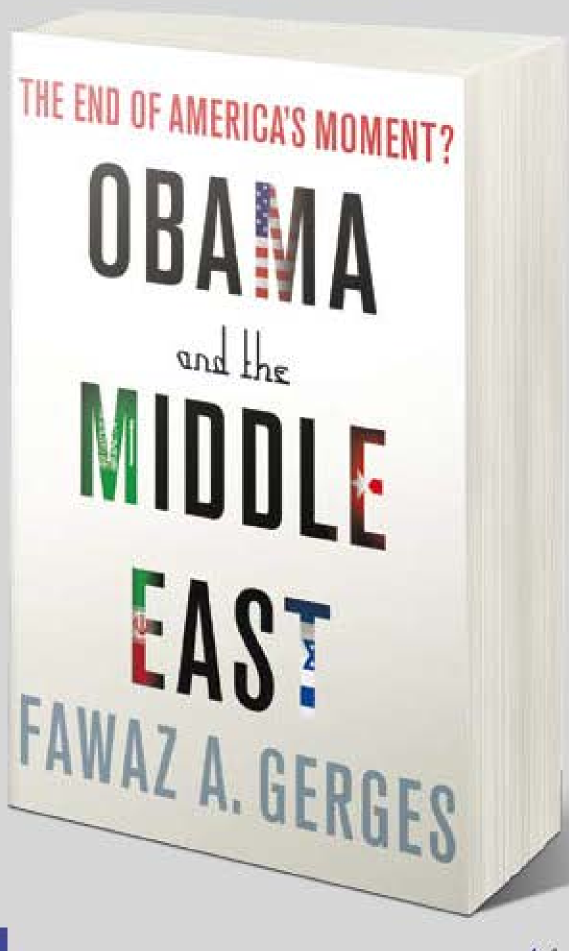
يأتي هذا الكتاب الذي وضعه المفكر السعودي الدكتور علي بن إبراهيم النملة، بعنوان: "الاستغراب.. المنهج في فهمنا الغرب"، محاولة تأسيسية لعلم "الاستغراب"، وهو المعادل الشرقي أو العربي لعلم "الاستشراق" في الغرب.

ويقول: إنه برغم أن "الاستغراب"، مفهوم جديد، فإنه قديم في محتواه وطرقه، حيث يرتبط بالعلاقة بين الشرق الإسلامي من جهة والغرب المسيحي اليهودي أو العلماني من جهة أخرى، بما مر على هذه العلاقة من مد وجزر في وجوه التلاقي، وأوجه الاختلاف، طيلة القرون الماضية.

ويقول: إن الموقف من "الاستغراب" لم يتحدد بعد تمامًا كما الموقف من "الاستشراق" الذي لا يظهر أنه سوف يتحدد بسبب اضطراب المصطلحَيْن، ولاختلاط مفاهيمهما بين المفكرين، ناهيك عن غير المثقفين، وكونهما أصبحا مصطلحَيْن مشحونين بشحنات أيديولوجية تجعلهما موضع اشتباه في كل من الغرب والشرق.

ومن خلال استعراض آراء بعض المفكرين الغربيين من المستشرقين، وبعض الشرقيين من العرب والمسلمين، يسلط هذا البحث الضوء بصورة مكثفة على الأفكار التي انطلقت منها أدبيات سابقة، خصوصا كتابات الدكتور أحمد الشيخ، ومن بينها كتاب "من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب"، وكتاب "من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب.. حوار الاستشراق".

والكتاب لم يأت في صورة فصول، وإنما جاء في صيغة مجموعة من الأفكار جمعها سياق مقالي واحد، تناول فيه الكاتب القضايا الأهم التي يمكن أن تشكل مدخلاً أكثر فاعلية لفهم الغرب، والعقل الجمعي والفردي الغربي، وأهم نقاط التلاقي التي يمكن أن تجمع بين الطرفين.



كتاب: أوباما والشرق الأوسط: نهاية لحظة أمريكا؟

- العنوان: أوباما والشرق الأوسط: نهاية لحظة أمريكا؟
- المؤلف: فواز جرجس
- الناشر: بالغريف ماكميلان
- الصفحات: 304 صفحات
- الطبعة الأولى، 2012

في هذا الكتاب رصد فواز جرجس سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط منذ عصر فرانكلين روزفلت، وتوصل إلى أن هناك نزاعًا دائمًا بين «الإقليميين» الذين لديهم حساسية مفرطة تجاه خصوصية الشرق الأوسط و«العولميين» الذين يرتكز توجههم على الدعم المطلق لإسرائيل، والذي بدأ انطلاقًا من كونها حليفًا أثناء الحرب الباردة، ثم بعد ذلك كشريك في «الحرب على الإرهاب».

وبشكل عام، كان العولميون دائمًا ما يهيمنون، ولكن تلك الهيمنة كانت في حدها الأقصى خلال سنوات حكم جورج بوش، وعلى الرغم من أن جرجس يفضل الإقليميين فإنه يقر بأن الرئيس باراك أوباما لم يغير التوازن بين الاثنين، فهو يرى خطاب أوباما في القاهرة في عام 2009 بوصفه خطابًا محرجًا، لأن الآمال التي أثارها لم تتحقق، ونظرًا لوجود رغبة في استمرار السياسة الأمريكية فيما يتعلق بالنزاع الإسرائيلي الفلسطيني، فصل أوباما رد الفعل الأمريكي تجاه الانتفاضات العربية التي اندلعت عام 2011 عن النزاع، برغم الصلة الطبيعية بين الاثنين، ولكن هناك فرضية رئيسية في الكتاب مشكوكًا بها، إذ يؤكد جرجس أن «قدرة أمريكا على أن تتصرف وحدها، وبشكل متسلط قد انتهت»، ولكن الولايات المتحدة لم يكن لديها أبدًا تلك القدرة، عدا لمدة قصيرة للغاية في نهاية الحرب الباردة، وفي الحقيقة، كانت السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط معاملاً في العديد من الإحباطات التي تخللتها بعض النجاحات من وقت لآخر، مثل اتفاقية كامب ديفيد وعملية عاصفة الصحراء.

مثاليون!



بقلم: عماد أحمد العالم

الرياض

@emadelalem

يمتلك حسابًا في تويتر والفيس بوك وماي سبيس والإنستجرام وقناة في اليوتيوب وفعال جدًا في التواصل بالواتس آب وجميع برامج المحادثة الفورية ومواقع التواصل الاجتماعي، وله أتباع بعشرات الألوف ومريدون ومتبعون لكل ما يكتبه ويقوله، من كثرة ما يصبغ نفسه بهالة المصلح أو الحكيم تظنه ملاكًا لا يخطئ أبدًا ومنزهًا، حديثه يبدؤه بأخي وأختي منمقًا عباراته، ويجامل الجميع، هو في "السيبر" أو الفضاء الافتراضي إنسانٌ آخر بخلاف واقعه، وبشهادة جميع من حوله، سواءٌ كانوا أصدقاءه أو أهل منزله.

لا يتحرك إلى مكان وإلا وقد تسلح بجهاز الآيفون والبلاك بيري والنوت ومعهم كمبيوتره المحمول، ما إن يجلس على كرسيه إلا ويبدأ تشغيل أجهزته بانتظام مستخدمًا كلا منها على حدة في تناغم وتعامل سريع، حيث يطفى على ما يقوله حكمته التي عرفها عنه الجميع، وينتظرها كل متبع له علّه يحظى منه بنصيحة لمشورة سألها له.

هو المثالي الذي تتمنى كل زوجة أن يكون زوجها مثله وكذلك الأخت التي تعاني من قسوة إخوتها... لكن، هل هو بالفعل في حياته الخاصة وبعيدًا عن الأعين والآذان كذلك؟ وهل تحولنا لممثلين نحاول أن نظهر دومًا بخلاف طبيعتنا، وهل أصبحنا مثاليين في محاولتنا للظهور أمام الآخرين، فيما نحن بشر بخطئهم وصوابهم في حياتهم العامة والخاصة، ولم نتقمص باقتناع دومًا وبأريحية دور الشخصية المزدوجة التي تحاول أن تظهر باستمرار بصفات الكمال، فيما هي من بني آدم ومن لحم ودم؟

من باب الإنصاف لسنا وحدنا كذلك، فجميع من يختلف عنا عرقًا ودينًا هم كذلك، حتى أكثر الشعوب تطورًا وتقدمًا ليسوا باستثناء، خذ مثلاً أمريكا، وانتقي أحد مواقع التواصل من أجل الزواج أو ما يسموه بالمواعدة، وقم ببحث قصير لن يأخذ منك وقتًا حتى تجد أن أغلب من يشترك في هذه المواقع قد وضع أجمل صورة له، والتي قد لا تعكس ماهيته الحقيقية بدون الإضافات والمكياج واللبس والفلاتر الإضافية، راجع "بروفايله" أو ما يصف به نفسه للآخرين وستجده الرجل الأنسب أو المرأة المناسبة، ولكن هل يعكس ذلك واقعهم؟.... بالطبع قد يكون بعضهم إلى حد ما كذلك، لكن العديد منهم بعكسه، والكثير من الجرائم التي تعرضت لها نسوة كانت بدايتها تعارف عن طريق أحد مواقع التواصل الاجتماعي أو المواعدة.

الظهور بمظهر المثالية أو الرغبة في إسباغها على الشخصية لا يمكن وصفها بالعمل الناتج عن فطرتنا كبشر، كما لا يمكن أن نجد فيه عذرًا لأحد أو مبررًا ليكون كذلك، يتحمل فيه المسؤولية ليس فقط المدعي ولكن المتبعين أيضًا، وهم الذين أضفوا عليه هالةً منذ البداية، ورفعوه لمرتبة ومقام جعلته لا يملك إلا أن يستمر في أداء الدور الذي رسمته له أقلام من منحوه الشهرة والظهور.

قالوا وباللهجة الشعبية "المعربة": ما الذي فرعن فرعون، فأجابوا: هم من زينوا له ذلك، واستبدلوا حريتهم بعبوديتهم له!

نحن كعامة وكجموع بشرية من تصنع نماذج تحب أن تراها في شكل أشخاص وبحديثهم وبتصرفاتهم وأفعالهم وأقوالهم، ونحن أيضًا من يرفع مقامهم ويعليه، ومن يجعل كل إنسان عادي مثاليًا متصنعًا، لأننا نرخي

له آذاننا. ونأبى انتقاده حال خطئه. فيما نصفق له وبكل مبالغة إن أصاب. وكأنه أتى بما لم يأت به أحدٌ غيره.

الشعوب هي من تصنع أبطالها. وهي أيضًا من توجد ديكتاتوريها وطواغيتها الذين يمارسون بحقها التنكيل فيما هي تبهل بالدعاء والتمنيات لهم. إن منحوا الفرصة يومًا للمفاوضة في مقابل الحصول على الحرية؛ تجدهم استبدلوها بشروطٍ أخرى لتحسين حياتهم وحالهم في العبودية!

لا عيب في أن يرسم الإنسان نفسه. وأن يضفي لشخصه سمة معينة وطابعًا يأمل أن يتعامل معه الآخرون على أساسها. لكن الخطأ في التصنع وازدواجية التعامل والتصرف وأمر الآخرين بأمرٍ لا ينفذه قائله. هذه هي المعضلة والمشكلة في كون الإنسان مثاليًّا!

يتميز العديد من مشاهيرنا. أو لنقل "يُعرف" - لمن يعترض على الكلمة- بتصنعهم وتكلفهم ومحاولتهم دومًا الظهور بصفة الكمال أمام محبيهم. خطأهم كما أسلفت ذكره يتشاركه معهم كل معجب لهم. فهو من يرغب في رؤيتهم بصورة ترسمها لهم. فيما هم من حققوه له أو لها عبر تمثيلهم لنمطها. على العكس تمامًا وفي الكثير من الحالات. تمتلئ الصحف والمجلات الغربية بفضائح وفظائع يقترفها المشاهير. منها من يُسجن بسببها أو يحاكم. وفي أخرى يُشهر به؛ ومع ذلك قد تزيد مثل هذه الحوادث من شعبية النجم الذي يسعى مصورو الباباراتزي (الفضائح) خلفه لينال صورة يبيعها لأي وسيلة إعلامية.

مثاليتنا أو لنقل تصنعنا الكمال (الذي لن نناله) جعل من بعض الشخصيات المعروفة تُصاب بجنون العظمة. الذي يتجلى في عدم اعترافها تحت أي ظرف بخطأ ارتكبته إلا إن وصل الأمر لحد الفضيحة.

طبعا كم سمعنا عن كاتب مشهور سرق أفكار غيره كما هي ونشرها باسمه أو أعاد صياغة بعض كلماتها ونسبها لنفسه. منكرًا الفضل لكاتبها ومتجاهلاً عن عمد حتى بالإشارة إليه!.... إن تم اكتشافه. سيهب جيش متابعيه ومحبيه للذود عنه وكأنه ملاك لا يخطأ. وستنال ألسنتهم من صاحب الحق. الذي إن لم يكن يمتلك حينها المادة والحجة والقوة للدفاع عن نفسه؛ فاعلم حينها أنه قد خسر المواجهة لطرف على باطل. لكنه انتصر بفضل تصنعه المثالية وتبعية محبيه التي أعمتهم عن رؤية الحق وعن إمكانية خطئه!

مفهوم الاعتذار لديهم غريب. ويظنون أنه قد ينقص من شأنهم ويفض الناس من حولهم. يخافون من أن يفقدوا شعبيتهم والهالة التي يستمتعون بها. لكنهم وبجهل يفقدون الاحترام وإن طال أمده.

المثالية سواءً كانت مثالية أو تصنع أفضل ما يمكن وصفها به هو التمثيل الرديء السيء. لكن العديد يصدقه برغم ذلك ويتعلق بالفاشل الذي يلعب دور الممثل فيه!

وطنٌ على الغدرِ عسير

د. نسرين الحميد

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن – الرياض

"تفجير انتحاريٌ في مسجد لقوات طوارئ عسير"

هكذا قرأناه عنوانًا لكنه أشاع شعورًا موحشًا هناك في الخبر مالا يتوافق مع نسيج وحدتنا وديننا!

من نكث نسيج الأفكار؟ وأحال الأخوة في نظر الآخر فجار؟ من غلغل في دمهم صوت التفجير وأزاح عن العقل التفكير. من دبر كيدًا بنفوس بعض الأبناء ما أنجسه من تدبير! حينما يتسلل للمسجد من ينوي القتل... لا نعلم كيف دخل إلى بيت الله. بعد أن سمع الأذان. كأنه يقول لمن فيه: "لكم دينكم ولي دين" دخل إلى محطّ جباه الراكعين الساجدين. لا ليسجد. بل لينثر أشلاءه لم يجد له رداءً يواري سوءة فكره فتدثر بالدين!

من علمه نسف الدين! من اختطف طريقه وقاد جسده كي يمزق أجساد المصلين!

طاقةٌ ضلت الطريق وابنٌ عقّ بلده. ومزّق بالديناميت جسده. اخترق الظلام عقله وتوسّدتْه آثام الغادرين تجرّد إلّا منها وسهل عليه أن يمتطي قسوة ذنبه. موقفٌ مسرفٌ بالوحشة وتفاقمٌ في تغييب الفكر وتجريدٍ تامٌ تخطى مظاهر الإنسانية. إغترابٌ موحش وعميق على أرض الوطن وعقوق فاحش ومركّبٌ لروابط لا يمكن أن يتم إخفاءها مع الحزام الناسف. توارت عن أنظار المجرمين وظهرت بأبشع منظر لاقترافٌ لحرمة المسجد وحرمة المصلين وحرمة الدم غيلةً لمرابطين!

حرماتٌ فوقها فوق بعض وظلماتٌ فكرية متلاطمة الغرق يكتنف الظلاميون على تعدد درجات السواد في عقولهم فمن ينجو منهم من فكرٍ واجف لن ينجو من أن يلف جسده بحسام ناسف!

هل تناقص الأعداء كي تبكي أجساد جنودنا دمًا على وقع تطاير جسد أحد أبنائه!

الوطن كالجسد الطاهر قد يتكون فيه بعض الورم ويتألم حتى يلفظه بشتى الأشكال وإن تضخم الورم لن تكفيه المهدئات ولن يزول إلا بسكين الجرّاح طبيبٌ لا يبالي بقطع الجلد وتتغلغل آلته الدقيقة الحادّة بين اللحم والعظم وإن تمزّق ما بينهما من أورده من أجلِ أن ينتزع مصدر الألم ويلفظه بعيدًا وتقتفي إبرته بعد ذلك آثار الجرح كي تقفله في مشهد وداعٍ لقطعة تعفنت من هذا الجسد ستنسى مع الأيام وتلتئمُ الجراح العميقة وتشفى ويبقى على الأديم ندبات جرح لن تختفي لتذكرنا بتلك الآهات الصدرية حين انتزعته ذات يوم من بين اللحم والدم كي يتطهر الجسد ويشفى أما الشُهداء اصطفوا للصلاة في مشهد ختام ووداعٍ واستشهدوا في أجمل وقفةٍ بين يدي الله واحتضنهم الوطن في يوم ماطر ضمّ رفاتهم. في حزنٍ يعيد لنا مشهد الأم الباكيّة عند وداع أبنائها ولم يتبق لنا بعد هذا الوداع إلا أن نعود إلى المساجد لله ذاكرين بأن يحفظ المولى لنا ديننا وأمننا وليبقى وطننا :

لم يشُقُّوا صفَّنا فاستأْسدت
في بيوت الله.. هاتيك القُرود
لم ينالـوا منك إلّا ســاجداً
بئست القبلةُ في وقتِ السُّجود
بئسـتِ الأجسـادُ باتت آلــةً
ليُدار الفكر من خلفِ الحدود
جُرّدتْ إلا من الرِّجسِ الذي
لفّها فانفجرت نفس الكنود
وطني يفديك شبلٌ مـؤمنٌ
سـاجدًا مات وجُنديٌ يذود
هـم أشدّاءٌ على من خاننـا
رحمـاءٌ بيننا. غيثٌ بجُـود
شـهد الحدُّ جنوباً بأسهُـم
وعباد الله في الأرضِ شهود
وعلى أكتافهـم بـات لنـا
أملُ الكهلِ وأحلامُ الـورود
كل مـا فينا عسـيرٌ ولظى
نخلةُ الأحساءِ أو سيفُ النُّفود
إن يمسُّوا بحرنـا أغرقهم
وصحارينا مفازات الحقود
وطني يفديك شبلٌ مؤمنٌ
ساجدٌ مـات وجُنديًا يذود
هم رجالٌ إن غفونا لم تنم
أعينٌ للسّهلِ فرسان النُّجود
وطـنٌ نغفُـوا على أيكتـه
يتّقي يقْظتنا عند الرُّقود
ليس يفديه جبانٌ خائنٌ
يرتدي الدين بمنْهاجٍ يهُود



دور الصورة التعليمية في تنمية المعرفة والإدراك لدى الطفل



نجاة مزهود

روائية وأديبة جزائرية

إن الأطفال هم مصدر الثروة الحقيقية لأي مجتمع، وهم أمله في تحقيق مستقبل أفضل، والاهتمام بالطفل في مرحلة التعليم الأولى ضروري جدًا، لأن هذه المرحلة تمثل البداية والأساس في تشكيل شخصيته، فالتنشئة التي يحظى بها الطفل في بدايات تعلمه ستظهر واضحة كلما تقدم عامًا في عمره فكرًا ووجدانًا وسلوكًا وجسدًا.

إذ إنَّ أهمية رعاية الأطفال وتربيتهم وحثهم على القراءة والمطالعة ودفعهم إلى التساؤل والبحث والاكتشاف يعد جزءًا لا ينفصل من البنيان التعليمي وخطوة جادة في السلّم التعليمي، حيث إن حث الطفل على المطالعة منذ تواجده في الروضة والمدرسة كليهما، يعد من المراحل المهمة التي تبني إدراكه واهتمامه، وتكون شخصيته وتشكل عاداته واتجاهاته وتنمي ميوله واستعداداته وقدراته الفكرية، فالاهتمام بالطفل في مرحلة الروضة يحقق نسبة عالية من النجاح في مراحله القادمة في المدرسة، ويسهم بشكل كبير في اكتسابه مجموعة من الخبرات والمهارات حيث إنها ليست مرحلة تعليمية فحسب، بل هي مرحلة لتحقيق نمو شامل وكامل في جميع الجوانب الشخصية للطفل.

فالطفل يولد ولديه استعدادات التفاعل مع البيئة والمحيط الخارجي، إذ ينطلق هذا التفاعل حين تتوفر له بيئة الاهتمام الأسري من الآباء وكذا من المدرسة، فالطفل ينتبه إلى كل شيء أمامه فيستقبل ذلك عن طريق حواسه سواء أكانت بصرية أم سمعية، وإن كانت المثيرات البصرية تعمل بشكل أكبر في إدراكه واستيعابه، ولذلك تُعد الصورة التعليمية من أهم الوسائل في تعليم الطفل وتثقيفه، وهي القادرة على شحن طاقاته تجاه المعرفة وتنمية مداركه واهتماماته، لأن البصر يُعدُّ أهم منافذ المعرفة في حياة البشر، وله القدرة الفائقة في الربط بين المعنيين المجسم واللفظي وهي قدرة مستمدة من الإدراك، فلا يمكن أن نتعرف على شيء عن طريق اللفظ فقط، دون رؤيته أو معرفة مواصفاته، وهذا الذي يسمى بالثقافة الحسية البصرية، فمن خلال الصورة تتولد المعرفة وينتج الإدراك والوعي لدى الطفل، ومنْ ثُمَّ فنحن -من خلال الصورة التعليمية- نضع الأساسات الأولى لتنشئة الطفل ورسم شخصيته وتحديد ملامح الوضع الذي سيكون عليه مستقبلاً.

ومن هنا تبدو قيمة عملية تثقيف الطفل وتعليمه، في إطار التنشئة الاجتماعية التي أحيانًا لا تراعي المحيط الذي يعيش فيه الطفل، كأن تقدم له تنشئة خارج الأدوات الموجودة في عالمه ومحيطه، فالطفل مثل الإسفنج يمتص كل ما يصل إليه سواء أكان جيدًا أم رديئًا، لذلك يجب أن تكون التنشئة في مجالها التربوي الناضج، لأنها الأقدر على توصيل المفاهيم والمعارف للطفل.

فالصورة بالنسبة للطفل لغة تعبيرية أكثر من كونها وسيلة لرؤية الجمال، ونحن نرسم للطفل ما يعرفه من أشياء وأدوات، ثم نتدرج معه حتى نقدم له ما يراه في بيئته، لأن الصورة بما تعكسه من دلالة للنمو العقلي والمعرفي واللغوي هي أساس العملية التربوية والتثقيفية للطفل، ومن هنا نطرح تساؤلنا عن كيفية دفع الطفل إلى القراءة والاستمتاع بما يوجد فيها سواء حكاية أو معلومة علمية أو تربوية في ظل ما يعرف بالتكنولوجيات الحديثة التي أصبحت أداة معرفية تنافس الكتاب والمدرسة؟

مفهوم الصورة التعليمية

إن الصورة تعني النظر والإدراك والتخيل والإصغاء إلى مثير بصري يستطيع الطفل من خلاله التعرف على الحياة التي يعيشها داخل المدرسة والأسرة والشارع والبلدة، وبذلك يستوعب الأشياء المحيطة به من خلال الصور التي يتعلمها ويشاهدها.

والصورة التعليمية هي عبارة عن صورة مرئية، وتمثيل محسوس ومشخص ظاهر أمام البصر، وتتميز عن الصور الأخرى من بلاغية ولغوية التي ينحصر فيها التخيل ويكون مجردًا، يعني أن الصورة البصرية صورة سيميائية وأيقونية بشكل كبير يتداخل فيها الحس والمحسوس والدال والمدلول، وتمتاز بالواقعية والعيان، وهي أقرب للحياة من اللغة التي تتحدث بها، فالصور موجودة أمامنا مثل الطبيعة والمنازل والأشياء الموجودة داخل المنازل، وأيضًا الحيوانات وغيرها من الكائنات والأشكال والألوان والخطوط والظلال والنقاط والهيئات... وبشكل أوضح الصورة المرئية هي صورة حسية تخاطب البصر أكثر مما تخاطب الحواس الأخرى، فهي أسرع مرورًا للعين من اللغة التي تمر إلى الأذن فيحتاج الدماغ إلى مثير مرئي لتفكيك معناها فالصورة بشرحها العلمي تعمل على إثارة العصب البصري، والسبب وجود مؤثرات من ألوان وأشكال تتكرر على حدقة العين فتثير لديها حاسة الإبصار.

ومن حيث سيمة الصورة ودلالتها فهي أكثر تعبيرًا وتوضيحًا من الكلمات اللغوية، وأكثر تأثيرًا في تنشئة الطفل وتدريبه على المعرفة، ومن ثمّ فصورة واحدة تغني عن ألف كلمة، ولذلك تلتجئ وسائل الإعلام إلى توظيف الصورة في عملية التواصل ونقل الخبر، فهي أبلغ للتعبير عن أي حدث موجود، ومن هنا يتبين لنا أن عملية نقل المعلومة هي من أصعب المهمات وتحتاج إلى مثير بصري يكون دافعًا لها أو حافزًا لنقلها وحفظها. وهذا الذي تقوم به المدرسة تجاه الطفل، وأيضًا يقوم به الأديب الذي يكتب للأطفال، فلو خلت القصة من الصورة لن تجد تشويقًا ولا متعة لدى الطفل، لأن الصورة التربوية أو التعليمية هي صورة هادفة تستخدم في مجال توصيل المعلومة وإيضاح المعنى، وأداة بيداغوجية مهمة، تساعد الطفل على الفهم والإدراك وتسهل على المدرس التبليغ والإيضاح، وتفسّر ما غمض من المسميات والألفاظ وتبيّن تفاصيلها المعقدة بشكل محسوس مشخص، فالصورة التربوية هي صورة إدراكية ذهنية قبل أي شيء، وصورة انفعالية ووجدانية من جهة أخرى، وصورة حركية تجسد الفعل والأداء والإنجاز من ناحية، ولذلك أوصت الدراسات العلمية التربوية بضرورة الاهتمام بالبرامج التي تساعد على تنمية الإدراك لدى الطفل، والاهتمام بالصورة وخصائصها من إخراج ومؤلفات تعليمية لمساعدة الطفل على الإدراك والتعلم، ومراعاة الجوانب الفنية فيها من ألوان وخطوط ورسوم، والتركيز على ألوان مثيرة وجذابة، هي الأحمر والأزرق والأصفر لإثارة انتباه الطفل، وهي منوعة بين الصورة المرسومة باليد، والصورة الفوتوغرافية، ترتبط بما يقع تحت بصر الطفل من البيئة الموجود فيها، وتكون مكبرة إلى حد مناسب بحيث لا ترهق عينيه.

فالصورة تُعدُّ تمثيلاً دقيقًا للمعنى اللغوي، وأحيانًا دون الحاجة إلى إبراز الكلمة التي تعنيها الصورة نجد الطفل بتلقائية، وبرصيد لغوي اكتسبه من العائلة مدركًا اسمَ الصورة، وهذه تسمى في العلم: البصريات بالعلاقة المباشرة بين المعين البصري (الصورة) وبين العنصر اللغوي (الكلمة) وهي أوضح علاقة من أي مثير آخر، إذ إنّ الصورة التعليمية تستخدم في استحضار المعنى من خلال ما يدل عليه أو استحضار المعنى من خلال الكلمة التي يراها أو يسمعها، وبذلك فإن الصورة تسمح بعرض وفهم دقيق وسريع للكلمات، وهذه العلاقة الفورية بين الصورة والعبارة اللغوية لا تعين الطفل على الفهم فحسب وإنما تسهل عليه الحفظ أيضًا، ومن ثم تساعده على عملية التذكر حين ترد الكلمة لاحقًا في جملة أو في تعبير في أثناء العملية التعليمية، إنما جمالية الصورة هي التي تدهشه وتدفعه للبحث والتساؤل، ومن ثم التعلم والإدراك. وبذلك تصل العملية التعليمية والتثقيفية إلى أهدافها المنشودة ورسائلها الهادفة، ومن ثم فالطفل يتعلم ويدرك حين يرتاح إلى الصورة المرئية أكثر مما يرتاح إلى درس جاف خال من مثيرات بصرية وحسية، وهذا هو الدور التربوي والتوجيهي الذي تحققه الصورة سواء في قصة أو في كلمة.

الأبعاد المعرفية للصورة البصرية لدى الطفل

تنمية إدراك الطفل تعد أهم مبدأ في العملية التربوية التعليمية، ذلك لأن الطفل يمر بمرحلة التكوين في عدة مجالات منها: المجال الحسي والعقلي والمعرفي والاجتماعي والتواصلي واللغوي، فهذه المجالات تحتاج للنمو بشكل يومي وسلس وتتطلب وسائل تعليمية نستطيع من خلالها تعميم المعرفة والعلوم على جميع ما يقع عليه بصر الطفل، وبذلك نجلب انتباهه لتلقي العلم، ولا يمكن إيصال المعرفة للطفل دون استعمال الصورة، فهي بمثابة المثير الأكثر قدرة على تنشئة الطفل وتنمية إدراكه، ففي عملية التعلم بالصورة يبدأ الطفل بالانتباه وينتهي بالانتباه، أيضًا، وعن طريق الصورة أو بواسطتها يتلقى الطفل المثيرات العقلية والحسية ويضعها في دائرة اهتمامه، ولا تتم عملية إدراك الصورة بمعزل عن لغة الحوار.

فالصورة تمثل اللغة التعبيرية، وهي أهم لغة يفهمها الطفل، كونها تقوم مقام الكلام والتحدث، فلو أراد المدرس أو كاتب قصص الأطفال أن يحكي للأطفال عن شكل هندسي دون رسمه، فإنه يحتاج لوقت طويل ليفهم

> **"الصورة ودلالتها فهي أكثر تعبيرًا وتوضيحًا من الكلمات اللغوية، وأكثر تأثيرًا في تنشئة الطفل وتدريبه على المعرفة، ومن ثمّ فصورة واحدة تغني عن ألف كلمة، ولذلك تلتجئ وسائل الإعلام إلى توظيف الصورة في عملية التواصل ونقل الخبر، فهي أبلغ للتعبير عن أي حدث موجود"**

التلاميذ ماذا يعني بالدائرة، فالكلمة لا تثير خيال الطفل ولا تنمي لديه معرفة الأسماء والأشكال، ولكن الصورة توضح المعنى في ذهنه وترسخه.

إنّ لغة الصورة هي لغة مرئية لا تحتاج إلى أي وسيط توضيحي، ونستطيع القول: إن الصورة هي ربط للكلمة المراد إدراكها، كون أن الكلمات المكتوبة عبارة عن صور مرسومة، فلا توجد لفظة نتحدث عنها أو نتعلمها أو نكتبها دون وجود الخلفية أو الظل لهذه لكلمة والمتمثلة في الصورة، ومن ثم فإن عملية القراءة لدى الطفل تنطلق أو تبدأ بقراءة الصورة، وهي التي من خلالها يتعرف الإنسان على شكله ومحيطه، كما قال أرسطو، كما أن حضارة الإنسان الحالي هي حضارة الصورة كما أشار إلى ذلك الفيلسوف والمفكر "رولان بارث"

فالوصول بالطفل إلى مستوى إدراك الصورة واستيعاب خصائصها المعرفية لا يتأتّى إلا بوجود شرطين أساسيين هما: الأسرة والمعلم؛ فكلاهما يجب أن يحبب للطفل القراءة الفنية للصور، ويدفعه إلى الاستمتاع بالنظر إليها، مما يجعله يكتسب ملكة الذوق والتفكير، فالصورة تنشيء لديه نشاطًا وفاعلية، وهذا ما يؤكده عالم التربية "جيروم بروفر" حين قال: "إن الناس يتذكرون فقط مما يسمعونه وفقط مما يقرؤونه، في حين يصل ما يتذكرونه من بين ما يرونه أو يقومون به" وهو يقصد أن تذكر الأشياء بشكل كبير يتم عن طريق الرؤية.

ومن هنا يكمن الدور الكبير الذي يتحمله المدرس، لأنه مسؤول مسؤولية كاملة عن تشكيل هذا المجتمع الصغير وتنشئته على ثقافة أصيلة من القيم والأعراف التي يتميز بها المجتمع، فالطفل في حالة تلقي كل ما يصل إليه من معلومات ومعارف، ويفعل ذلك بسعادة كبيرة لأنه في حالة اكتشاف وبحث عن عالمه وأشيائه التي تبعث فيه الأمل والفرح، وبحث عن إجابات عن مسائل هي بالنسبة إليه غامضة يريد معرفة حقيقتها، فهو لا يدرك من الحياة سوى ما يشغل ذهنه الصغير ويلفت انتباهه في كل لحظة، ويثير لديه الاستمتاع بمباهج الحياة.

وقد أشار المربي جان جاك روسو إلى هذه النقطة بقوله: "دعوا الطفولة تنضج في الأطفال، احترموا الطفولة ولا تتسرعوا في الحكم عليها خيرًا أم شرًّا، إن الإيقاع البطيء لزمن النمو ليس شرا نحمله، بل وظيفة ضرورية للنمو، إننا نرعى النبتة بالحراثة ونبني الإنسان بالتربية".



حماية البيئة والتعليم 3-3

حماية البيئة مطلب أخلاقي وحضاري



عبد الله بن محمد اليوسف

الرياض

إن موقف الإسلامي أصيل وقديم من القضية البيئية حيث إن الشريعة الإسلامية تنفرد عن القوانين الوضعية، بخاصية العموم والشمول في كل زمان ومكان وفي جميع جوانب الحياة المختلفة، مما يجعلها قادرة على معالجة قضايا البيئة الطارئة بكافة مشاكلاتها الصعبة وحمايتها والحفاظ عليها مستقبلاً. فما من نازلة في الحياة البشرية إلا وللإسلام فيها حكم شرعي، وهناك الكثير من المبادئ والأسس في الإسلام التي تحمي البيئة، وتمنع أخطر تدهور لها، ألا وهو تدهور الأخلاق، ولنحطاط القيم، فإذا انعدمت الأخلاق كان الفساد والأنانية، ولهذا فقد أمر بالعدل والحرية والمساواة والصدق والأمانة، وحارب الظلم وكل أشكال الاستغلال والنفاق والغش والكذب والفساد، وهذا ما تعاني منه البيئة الإنسانية الحالية على مستوى الأفراد والشعوب. قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ 205 (البقرة). المجتمع عدد 1738 باختصار

- أرست الشريعة الإسلامية: مجموعة من المبادئ التي تعد من أهم الإجراءات الوقائية للحفاظ على البيئة البشرية، ويتمثل ذلك:

○ في عناية الإسلام بطهارة الإنسان ونظافته من خلال الدعوة إلى تنظيف الجسد والثياب.

○ والناظر إلى الإسلام عقيدة وشريعة، يجد أن رعاية البيئة تتصل بعدد من العلوم الإسلامية، وفي مقدمتها علم أصول الدين، الذي يرى أن البيئة مخلوقة مثل الإنسان، وأنها مكلفة بالسجود لله تعالي وتسبيحه ولكن بطريقة يعلمها الله تعالى، فالإنسان ليس إلها في الكون ولكنه مخلوق مثل بقية الأشياء.

○ وترتبط رعاية البيئة بعلم السلوك في الإسلام على اعتبار أن الدين في حقيقته هو السلوك والخلق.

○ بل إن الإسلام نظر إلى الأمور البيئية نظر ود وحب، فجعل القرآن الكريم الحيوانات والطيور أمما مثل أمة الإنسان، مميز عليها بالعقل وبالإرادة ونص القرآن الكريم أن الشجر والدواب والجبال والنجوم تسجد لله تعالى.

وبرى علماء الأخلاق الكون (البيئة):

○ على أنه آي آيات الله تستوجب من الإنسان التفكر فيها، وأنه نعمة تستوجب الشكر والمحافظة عليه والاستمتاع بعنصر الجمال فيه، وتنمية هذا الجمال، لأن كل شيء في البيئة من الضروري أن يظهر فيه بديع صنع الخالق سبحانه، المحيطة به، المؤمن وأنها تسبح ربها إلا أن الإنسان.

○ أما علم الفقه وأصوله، فقد ارتبطا بالشأن البيئي ارتباطًا كبيرًا في حالة السلم والحرب على حد سواء، ووضع الفقهاء عددا من القواعد التي تنظم هذا الأمر.

- إن التربية البيئية في الإسلام:

بأنها النشاط الإنساني الذي يقوم بتوعية الأفراد بالبيئة وبالعلاقات القائمة بين مكوناتها ، وبتكوين

القيم والمهارات البيئية وتنميتها على أساس من مبادئ الإسلام وتصوراته عن الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، ومطالب التقدم الإنساني المتوازن. وفي ضوء هذا التعريف للتربية البيئية من منظور إسلامي يجب أن يكون هناك تفاعل إيجابي بين الإنسان والبيئة، وأن يكون ذلك التفاعل شاملاً ولا يقتصر على زمان معين أو مكان معين، وليصبح جهد الإنسان موحدًا وموظفًا توظيفًا حضاريًا وتاريخيًا في ضوء العقيدة الإسلامية. وتتضح حاجتنا الماسة إلى وجود التربية البيئية بصورة تطبيقية وليست نظرية في عصرنا الحالي، خاصة إذا تعرفنا على مظاهر سوء استخدام البيئة في العالم. الكائن البشري غير منفصل عن البيئة، فهو عنصر مميز من عناصرها، ومكون فريد من مكوناتها. وعلى ضوء كل ذلك، فإن علاقة الإنسان ببيئته الطبيعية لا تتحول إلى علاقة مالك بمملوك. إنها علاقة أمين استأمن عليها بكل ما يعنيه من وفاق وانسجام وتكامل معها، ومن خلال تفاعله مع البيئة، سيواجه أحداثًا مستمرة، لكل منها تغيرات يجب أن لا تتجاوز الحدود التي فرضتها السنن الطبيعية، والخصوصيات البيولوجية والعقلية الثابتة للفطرة البشرية، لأن هذه السبيل هو الكفيل وحده للاستمرار في التمتع بالخيرات الطبيعية عبر الزمان والمكان ومن العادات الاجتماعية والخلق التي لها تأثير سلبي على البيئة، منها:

عادة ظاهرة الإسراف:

في الأكل والشرب والملبس وأدوات الزينة والسيارات والسكن والفرش والاستهلاك عموما وأمور عديدة يطول سردها.

- التربية البيئية ضرورة لتأصيل القيم الأخلاقية في نفوس الطلاب والطالبات
- بمشاركتهم في الحملة دليل على وعي مؤسسات المجتمع بأهمية الحفاظ على البيئة؛ حيث يتكامل البيت مع المدرسة في تأصيل قيم التربية البيئية في نفوس أبنائنا الطلاب والطالبات.

وعن أهمية الزراعة والخضرة ودورها في الحياة، يقول "مالكوم ويلز" Malcolm Wells: "خذ بعيدًا كل الحكومات والجيوش والصناعة وخذ المواصلات وخذ أيضًا السيارات والمدن والمستشفيات والمدارس والمكتبات، خذ بعيدًا الكهرباء والملابس والأدوية والشرطة خذ كل شيء واترك لنا المزروعات الخضراء، وسوف يحيا معظمنا ولكن إذا أخذت المزروعات فسوف نموت جميعًا". ويكشف لنا هذا القول الأهمية الكبيرة للمسطحات الخضراء، والتي قد تسبق أولوية تحقيقها أولوية تحقيق الخدمات المختلفة داخل المدينة أو في المواقع السكنية المختلفة.

- الوظائف الطبية للأشجار والنباتات:

أثبتت الأبحاث والتجارب العديدة في مجال الطب الشعبي والتداوي بالنباتات والأعشاب أن هناك العديد من الأشجار والنباتات والأعشاب التي لها فوائد طبية عديدة، مما يصعب حصرها في هذا المجال.

ومن الأمثلة على دور الأشجار والنباتات في الطب ما روي عن سعد (رضي الله عنه) قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من تصبح سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر".

لقد أثبت تقدم العلم أن للأشجار والنباتات وظائف أخرى ومنها أنها ذات ضرورة فيزيولوجية بوصفها ذات قدرة على امتصاص ثاني أكسيد الكربون وإنتاج الأكسجين.

وتلعب المسطحات الخضراء دورًا بارزًا بالنسبة لحياة البشر من جهة، وبالنسبة للتوازن البيئي (الأيكولوجي) من جهة أخرى، بوصفها ذات قدرة على امتصاص ثاني أكسيد الكربون وإنتاج الأكسجين.

فشجرة زان كاملة النمو – على سبيل المثال - تمتص من الهواء ما يزيد عن 2.5 كجم من ثاني أكسيد الكربون وتنتج في الهواء 1.7 كجم من الأكسجين كل ساعة، أي أن هذه الشجرة تنتج من الأكسجين ما يكفي احتياج عشرة أفراد لمدة سنة كاملة.

وقد حسب أن هكتارًا واحدًا في متنزه إحدى المدن بما يحويه من أشجار وشجيرات وحشائش يمتص من الهواء 900 كجم من ثاني أكسيد الكربون ويطلق في الهواء 600 كجم من الأكسجين وكل ذلك خلال اثنتي عشرة ساعة.

إن وجود الأشجار على جانبي الطرق من شأنه أن يحد من شدة الضوضاء:

1. فقد اتضح أن بإمكان الأشجار تحويل الضوضاء عن اتجاهها أو عكسها إلى اتجاه آخر.
2. بزراعة سياج من نبات "أبيرس" بعرض 60 سم وجد أنه يخفف الضوضاء بمقدار 5 ديسبيل.
3. وبزراعة الأشجار في الشوارع والميادين لتقليل الضوضاء الناتجة عن المرور، وجد أنها تخفض لضوضاء بمقدار 10-15 ديسبيل.
4. وعليه فقد أوصت هذه الدراسات بزراعة الميادين والشوارع بالأشجار للمساهمة في امتصاص الضوضاء بها والمنعكسة على حوائط المباني، كما أن كل فرع من فروع النباتات يحدث رنينًا خاصًا يتراوح بين (275 – 450 لفة / ثانية)، مما يحدث اهتزازات أو ذبذبات تعمل على الامتصاص أو القضاء على الضوضاء الزائدة.
5. هذا وقد يظن البعض أن وجود الأشجار يزيد من الضوضاء بسبب صوت حركة الأفرع وكذلك الطيور التي تسكنها، وعمومًا فهذه الأصوات تكون ذات شدة مقبولة بالنسبة للإنسان كما أنها تبعث على البهجة والتغيير عن طريق قطع حالة السكون.



أحمد صالح الصمعاني
aalsmany@hotmail.com
@alsmany

لغة الفشل

من طبيعة البشر التغير والتطوير والتجديد بجميع مستلزمات الحياة في أي مكان وبلد وفي أي عصر وزمان، وفي عصرنا الحاضر عصر السرعة نلاحظ تحول كبير مع الحديث والنقاشات وهو نطق كلمات ومفردات اللغة الإنجليزية في أثناء الحديث، خصوصًا في السنوات الأخيرة حيث أن نسبة اللغة الإنجليزية بدأت تسيطر في حواراتنا، وهذا مؤشر خطير مما سوف يؤدي إلى خطورة مستقبلية في نطق اللغة العربية من الممكن تقبل الوضع الحالي لأن معدل النسبة بسيطة لا تذكر.

ماذا عن لغة الأجيال في المستقبل؟

وصلني مشهد مرئي لشاب سعودي يشرح موضوع يختص بالأجهزة المحمولة ولفت انتباهي الطريقة والأسلوب في أثناء حديثه الغريب فلن أبالغ بأن حديثه يتضمن أكثر من 7 % من مفردات اللغة الإنجليزية وفي الحقيقة ليست نسبة ضئيلة بل هو مؤشر عالي جدًا، فسألت نفسي لو تحولت لغتنا في المستقبل بهذه الأسلوب لأصبحت كارثة فهناك كلمات أساسية باللغة العربية أستبدل نطقها باللغة الإنجليزي مثل (إجازة نهاية الأسبوع) تنطق في وقتنا الحالي (Weekend) و(على كل حال) تنطق الآن (Anyway) وغيره من الكلمات الأحرف المهمة في الجمل، فالموضوع ليس بالتشدد والتعصب للغة والبلد، فالواجب أن نفتخر بلغتنا لغة القرآن ولغة أهل الجنة، ولا بد من البحث عن حل قبل وقوع كارثة في مجتمعنا العربي على سبيل المثال أحد الدول العربية المجاورة الذي طغت عليهم هذه المشكلة ولن أبالغ بأن حديثهم لا يتجاوز 70 % لغة عربية فقط وللأسف يعتقد الكثير أن هذا التخلف من التطور الذي يواكب بعض المراهقين في هذا العصر، قبل عدة أسابيع انتشر في مواقع التواصل الاجتماعية مشهد لطفل يقرأ الفاتحة وعندما أخطاء استنجد بعيسى عليه السلام، دائم يطبق لدينا ما تُنشئه الدول الغربية سواء كان إيجابيًا أو سلبيًا وهل يعي مجتمعنا عن خطورة ما يورد لنا الدول الأجنبية

ملاحظة للفائدة فقط

كل الأنبياء عجم باستثناء أربع أنبياء هم هود صالح وشعيب ونبينا محمد عليهم الصلاة والسلام.



تقنية المنجز المسرحي الحديث

جمالية البناء وتقنية التقديم



د. صفاء الدين أحمد فاضل

أستاذ النقد الأدبي الحديث المساعد

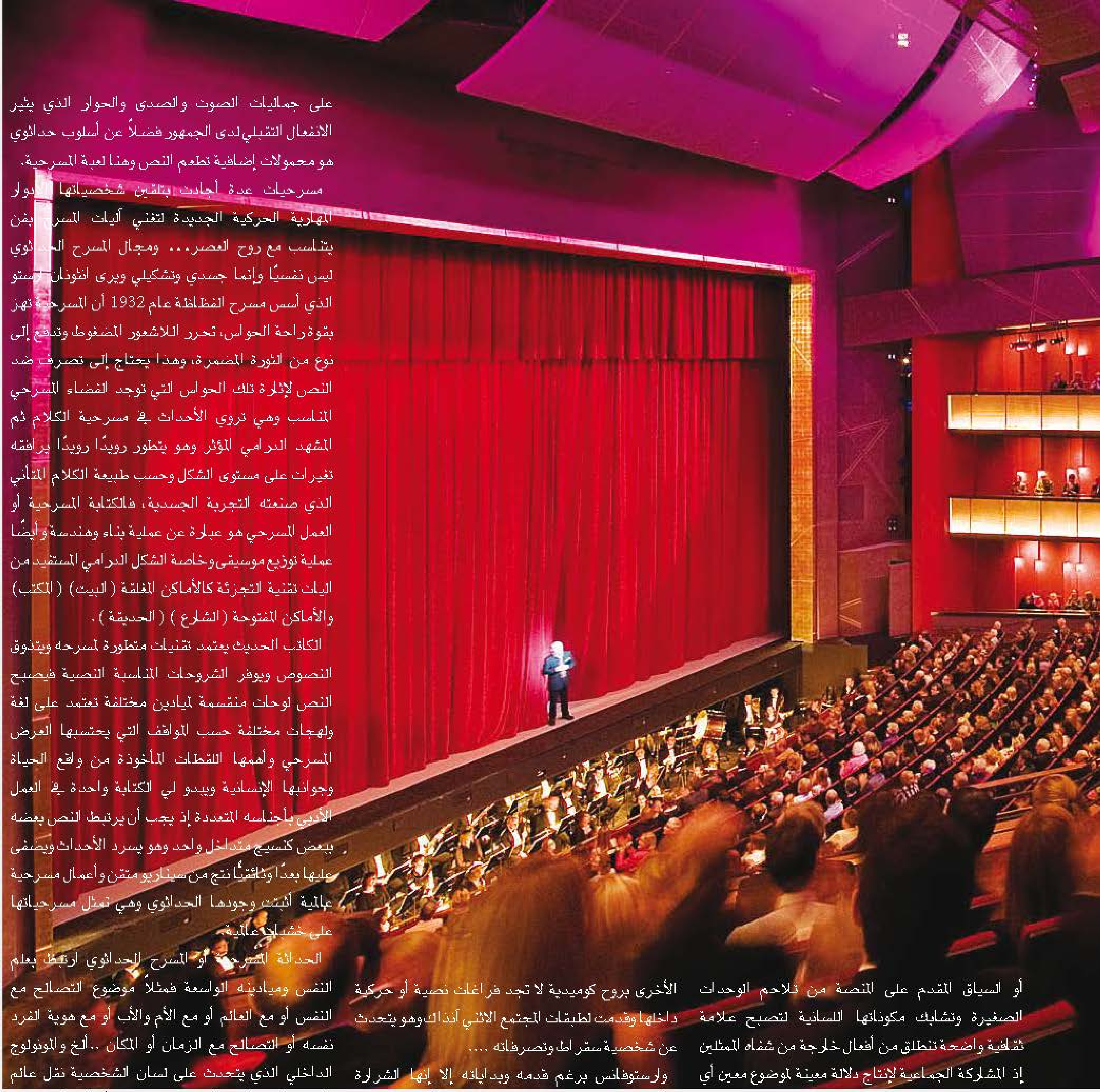
فاكلتي التربية الأساس – جامعة رابرين
كردستان العراق

للنهوض أسرار وللهبوط أسباب ولكل فن نسيج فكري مأخوذ من فكرة الحياة وتفاعل الإنسان بما حوله، فالحياة ومطالبها تصنع مصانع عدة معتمدة على قاعدة فكرية تنطلق منها ثقافات متلونة ترسم لنا لوحة شاملة معرفية يكون بطلها الإنسان وهو يجول بعالم بيئته ومجتمعه.

يستخدم المسرح الحديث آليات الخطاب المتقدمة الحداثوية لنشر الفكر لدى طبقات المجتمع فيقيم علاقات بين العقل والنقل من أجل المحافظة على الثقافة والفكر أساسها الحوار المعتمد على تقنيات التقديم والعرض والنقد الحضاري الدال على أخلاقيات التفكير الابداعي وامكانيات التوصيل المعرفي العصري، الذي يصور تفاعل العصر مع الفرد بمسرح أصبح جزءًا من حياة الفرد بصفته وسيلة إعلامية هادفة إلى تحقيق الوعي المعرفي لطبقات المجتمع وهذه الوسيلة الاعلامية تتم على ثلاثة أوجه هي الوجه المرئي والمسموع فضلاً عن النص المكتوب فهذا العمل تبدو فيه المهارة الحرفية واضحة المعالم لتزيد من تلقي الجمهور وتفاعلهم ولا يخفى على القارئ أن المسرح الحديث تقدم تقدمًا ملحوظًا إثر دخول التقنيات الحديثة واقامة العلاقات المتشابكة في مضمونه، مراجع عدة تناولت حضور المسرح الحداثوي من تلك الدراسات دراسة الأستاذ عبد الفتاح قلعجي في دراسته (المسرح الحديث الخطاب المعرفي وجماليات التشكيل) برغم الانتقادات التي وجهت إلى هذه الدراسة إلا إنها تعد خطوة أكثر تقدمًا في مجال الانفتاح المسرحي الحديث وتسليط الضوء على قواعده الأكثر حضورًا.... فضلاً عن دراسة د. باسم الأعسم (مقاربات في الخطاب المسرحي) الذي ركز فيها على القيم الجمالية المنبعثة من الأنساق البصرية والسمعية والحركية التي يعتمد عليها الشكل المسرحي.

نواحي المسرح وجمالياته كثيرة وآفاقه رحبة وواسعة تستحوذ الأفكار وتبادلها على قيمة المسرح ومن ثم هي قيمة انسانية منتجة....

هذه القيمة ترتبط بالوظيفة التداولية التي تحدد استعمال النص وآليات توصيلية على وفق لغته المشروعة في المسرح والتي تبني علاقات مركبة داخل المنجز اللغوي



أو السياق المقدم على المنصة من تلاحم الوحدات الصغيرة وتشابك مكوناتها اللسانية لتصبح علامة ثقافية واضحة تنطلق من أفعال خارجة من شفاه الممثلين إذ المشاركة الجماعية لإنتاج دلالة معينة لموضوع معين أي علاقة الحضور المرئي.

الكل يعلم إن المسرح ومشاهديه لديهم مستويات عدة وقدرات متفاوتة للفهم أو بمعنى قدرات الاستيعاب الحدثي فلا بد من الكاتب ان يجسم الصور المشهدية التي تسد الفجوة أو مسافة الترك بين المتلقي والممثل وهي عملية استدعاء مشاهد تطعيمية (ملء الفراغات) ليحقق التفاعل بين الطرفين فلو عدنا إلى الكاتب الإغريقي ارستوفانيس (444 ق.م – 380 ق.م) لوجدنا مسرحية (السُحُب) من أروع النماذج الكوميدية التي تستهوي فكر القارئ من خلال رسم المشاهد المتتالية الواحدة تلو الأخرى بروح كوميدية لا تجد فراغات نصية أو حركية داخلها وقدمت لطبقات المجتمع الاثني آنذاك وهو يتحدث عن شخصية سقراط وتصرفاته ....

وارستوفانس برغم قدمه وبداياته إلا إنها الشرارة الأولى التي وهجت الروح المسرحية بالآداب الغربية فبناءه الهندسي واضح وهو يبني أحداثها وصراع شخصياته بحركة ديناميكية متكاملة من الصعب حذف أي مشهد أو حركة من فصول المسرحية إثر التناغم والانسجام والتكامل النصي في أثنائها كما حافظ على الائتلاف المشهدي والتكامل الحركي، تتابع جملي بحركة استعراضية على طول وقت المسرحية زادت من التفاعل مع الجمهور وجمالية البناء لم تنته لهذه النقطة فخصائص البناء المسرحي متعددة وعلى الكاتب أن يحافظ على جوانب المسرح الداخلية والخارجية ويحافظ على جماليات الصوت والصدى والحوار الذي يثير الانفعال التقبلي لدى الجمهور فضلاً عن أسلوب حداثوي هو محمولات إضافية تطعم النص وهنا لعبة المسرحية.

مسرحيات عدة أجادت بتلقين شخصياتها الأدوار المهارية الحركية الجديدة لتغني آليات المسرح بفن يتناسب مع روح العصر... ومجال المسرح الحداثوي ليس نفسيًا وإنما جسدي وتشكيلي ويرى انتونان أرتو الذي أسس مسرح الفظاظة عام 1932 أن المسرحية تهز بقوة راحة الحواس، تحرر اللاشعور المضغوط وتدفع إلى نوع من الثورة المضمرة، وهذا يحتاج إلى تصرف ضد النص لإثارة تلك الحواس التي توجد الفضاء المسرحي المناسب وهي تروي الأحداث في مسرحية الكلام ثم المشهد الدرامي المؤثر وهو يتطور رويدًا رويدًا يرافقه تغيرات على مستوى الشكل وحسب طبيعة الكلام المتأني الذي صنعته التجربة الجسدية، فالكتابة المسرحية أو العمل المسرحي هو عبارة عن عملية بناء وهندسة وأيضًا عملية توزيع موسيقى وخاصة الشكل الدرامي المستفيد من اليات تقنية التجزئة كالأماكن المغلقة (البيت) (المكتب) والأماكن المفتوحة (الشارع) (الحديقة).

الكاتب الحديث يعتمد تقنيات متطورة لمسرحه ويتذوق النصوص ويوفر الشروحات المناسبة النصية فيصبح النص لوحات منقسمة لميادين مختلفة تعتمد على لغة ولهجات مختلفة حسب المواقف التي يحتسبها العرض المسرحي وأهمها اللقطات المأخوذة من واقع الحياة وجوانبها الإنسانية ويبدو لي الكتابة واحدة في العمل الأدبي بأجناسه المتعددة إذ يجب أن يرتبط النص بعضه ببعض كنسيج متداخل واحد وهو يسرد الأحداث ويضفي عليها بعدًا وتأثيرًا نتج من سيناريو متقن وأعمال مسرحية عالمية أثبتت وجودها الحداثوي وهي تمثل مسرحياتها على خشبات عالمية.

الحداثة المسرحية أو المسرح الحداثوي ارتبط بعلم النفس وميادينه الواسعة فمثلاً موضوع التصالح مع النفس أو مع العالم أو مع الأم والأب أو مع هوية الفرد نفسه أو التصالح مع الزمان أو المكان ..الخ والمونولوج الداخلي الذي يتحدث على لسان الشخصية نقل عالم باطني إلى عالم خارجي تخرج فيه أفكار الشخصية وأحلامها وآمالها وتطلعاتها وكل ما يجيش في داخلها تطعمها الجمل الشعرية الأكثر تعاطفًا مع الحالة النفسية، إذ جوانب علم النفس والعلوم الأخرى ساهمت بهذا التحديث لتقنيات المسرح، فالمسرح في الختام ما هو إلا تحويل المكتوب إلى حركة سينمائية مشهدية وحداثة العصر تطلبت إبداع خطوات متقدمة أكثر مما احتفظ به أصحاب المسرح التقليدي.



لوحة الصرخة ذروة القلق لإدفارت مونش

من أعمال الفنان النرويجي إدفارت مونش لوحة الصرخة وهي مجموعة أعمال لوحات تعبيرية مصورة شخصية معذبة أمام سماء حمراء دموية عام 1893. والمعالم الظاهرة في خلفية اللوحة هي من خليج أوسلوفورد في أوسلو جنوب شرق النرويج.

وللرسام إدفارت مونش سلسلة لوحات سماها الفنان باسم "إفريز الحياة"، حيث طغت عليها مواضيع الحياة، والحب، والخوف، والموت، والكآبة. كما هو الحال مع معظم أعماله الأخرى، أصدر أكثر من نسخة من لوحة الصرخة. مواضيع "إفريز الحياة" طغت أيضًا على معظم أعمال مونش الأخرى، مثل: "الطفل المريض"، و"مصاص الدماء"، و"الرماد"، و"الجسر".

ولد إدفارد مونش عام 1863 في أوسلو عاصمة النرويج لعائلة عُرف عن أفرادها شدّة تديّنهم. والده كان طبيبًا في الجيش دفعته مسيحيّته المتشدّدة إلى أن يزرع في نفس الصغير إدفارد بذور القلق الديني. وقد كتب مونك في ما بعد في مذكّراته يقول: «كانت ملائكة الخوف والندم والموت تحفّ بي منذ أن ولدت ولم تكفّ عن مطاردتي طوال حياتي. كانت تقف إلى جانبي عندما أغلق عيني وتهدّدني بالموت والجحيم وباللعنة الأبدية».

كان إدفارد شخصًا قلقًا ومسكونًا بالهواجس والأفكار المؤرّقة. عندما كان عمره خمس سنوات، توفيت أمّه بالسلّ ثم تبعتها أخته التي لم تكن قد أكملت عامها الرابع عشر. وعندما بلغ الخامسة والعشرين مات والده ثم لم تلبث أخته الأخرى أن أصيبت بالجنون لتودع إحدى المصحّات العقلية.

حاول أن يدرس في المعهد التقني لكي يتخرج مهندسًا لكن مرضه المتكرر منعه من الاستمرار فترك الدراسة وقرر أن يصبح رسامًا. التحق في عام 1881 بالمعهد الملكي للفنون والتصميم، وأنجز خلال دراسته هناك أول لوحه بورتريه.

بعد دراسته في النرويج قضى منش سنوات عده متنقلاً بين فرنسا وألمانيا حيث تأثر فنه بالانطباعيين الجدد من أمثال غوغان وفنسنت فان كوخ ، لكنه تمكن من تطوير

أسلوب مميز خاص به جعله من قمم الحركة التعبيرية فقد كانت معظم لوحاته تدور حول المعاناة الانسانية.

فيما بعد، قرّر مونش أن يصبح رسّامًا. فاستأجر "ستوديو" في الحيّ البوهيمي من أوسلو. وهناك وقع تحت تأثير هانس غيغر، وهوفيلسوف عَدَمي كان قد تعهّد بأن يدفع كلّ واحد من أبناء جيله إمّا إلى الانحلال أو الانتحار! وقد فضّل مونش الخيار الأوّل. فانغمس في السنوات العشر التالية في حياة بوهيمية جرّب خلالها الكحول والابسنث والأفيون وعرف الحب والسيفلس والجوع والفقر.

في ذلك الوقت كتب هنريك ابسن مسرحيته المشهورة الأشباح التي سخر فيها من رياء المجتمع النرويجي وانحلاله وتفكّكه. غير أن مونش كان متأثّرًا بالروائي الروسي الكبير دستويفسكي. وقد قال لأحد أصدقائه ذات مرّة: لم يظهر من الرسّامين بعد من استطاع النفاذ إلى العوالم الموسيقية للروح والميتافيزيقيا واللاوعي بمثل ما فعل دستويفسكي في الرواية. كان واضحًا أن مونك يريد أن يرسم الروح. وفي عام 1890، رسم سلسلة لوحاته المشهورة "دوامّة الحياة" التي يصوّر فيها قصّة نموذجية لرجل وامرأة يتنقلان خلالها من الحبّ والعاطفة إلى الغيرة والحزن ثم أخيرًا إلى القلق فالموت.

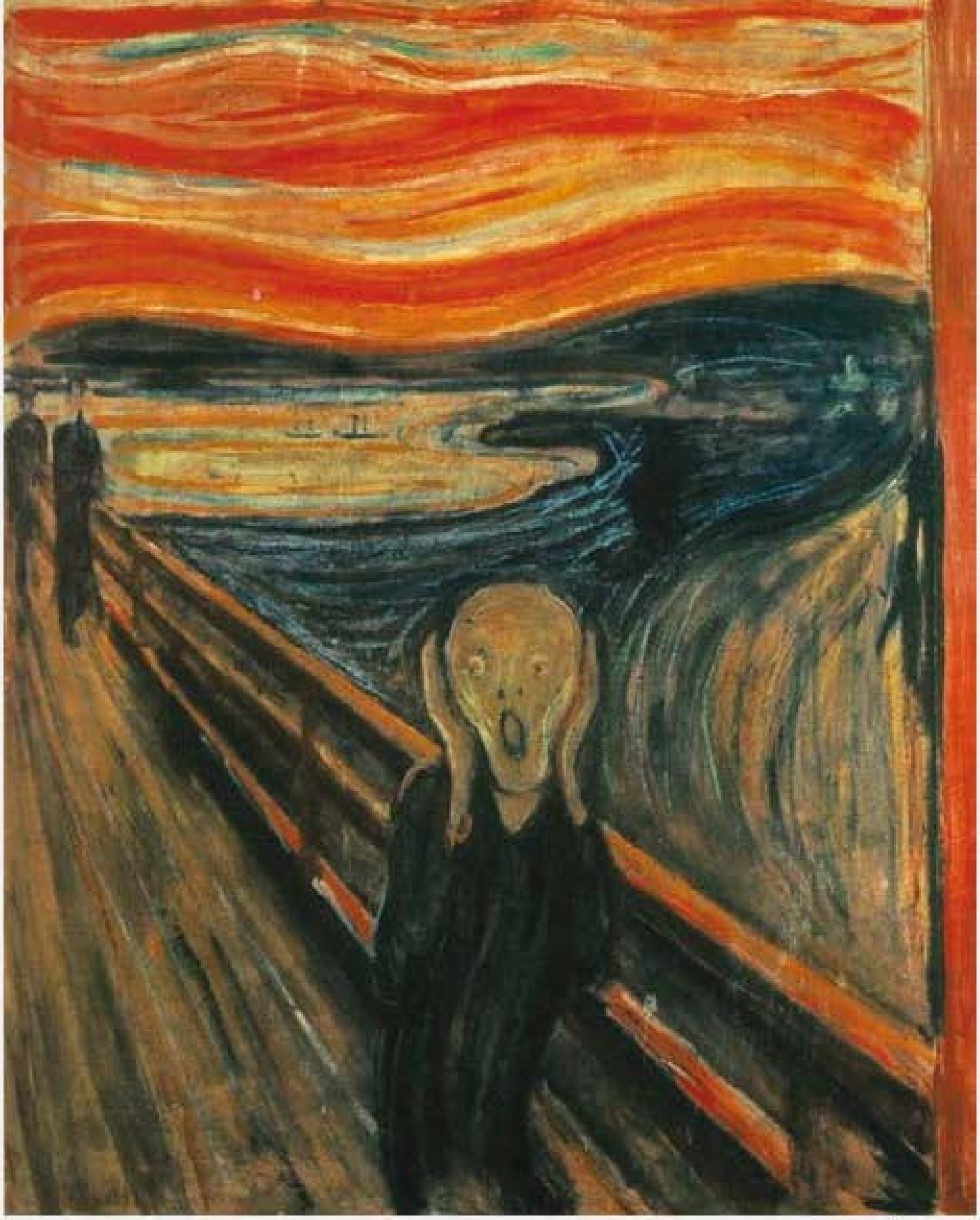
لوحة الصرخة:

هناك العديد من النسخ للوحة الصرخة. اثنتان منها محفوظة في متحف مونك، والأخرى محفوظة في معرض النرويج الوطني. وأيضًا مونك ابتكر طباعة حجرية في عام 1895.

لقد كانت لوحة الصرخة هدف للسرقة لعدة مرات. في 22 آب/ أغسطس 2004 اقتحم أربع لصوص متحف مونك في أوسلو وقاموا بسرقة النسخة الرابعة للوحة الصرخة وأعمال أخرى من ضمنها لوحة مادونا من أعمال مونش أيضًا وثلاث لوحات لرامبرانت. وفي أيلول/سبتمبر 2006 نجحت الشرطة النرويجية في استعادة اللوحات المسروقة. كانت نفس النسخة من اللوحة قد سرقت لوقت قصيرة في عام 1994 واستعيدت بعد ثلاثة أشهر دون أن يلحق بها أي أضرار. كلتا اللوحتين تم استرداها في عام 2006. لقد تكبدت لبعض الضرر وتم إرجاعها للعرض في أيار/مايو 2008 بعد خضوعها للترميم.

مؤخرًا كشفت جريدة ستريت جورنال الأمريكية أن الملياردير الأمريكي ليون بلاك هو الذي اشترى لوحة الفنان النرويجي الراحل الصرخة التي بيعت في مزاد في نيويورك بمبلغ 120 مليون دولار.

ترمز اللوحة إلى ذروة القلق، أي إلى النقطة النهائية لانكسار الروح، في النسخة الثانية من اللوحة، وهي التي أصبحت مشهورة جدًا في ما بعد والتي تُقدّر قيمتها اليوم بأربعين مليون جنيه إسترليني. اختار مونش أن يرسم الشخص ذا الوجه الطفولي الذي لا يبدو إن كان رجلاً أو امرأة واقفًا أمام طبيعة تهتزّ بعنف وهو يحدّق في الناظر، فيما يطبق بيديه على رأسه الشبيه بالجمجمة ويفتح فمه بذهول ويأس.



وقد كتب إدفارد مونش في مذكّراته شارحًا ملابسات رسمه لهذه اللوحة: كنت أمشي في الطريق بصحبة صديقين. وكانت الشمس تميل نحو الغروب عندما غمرني شعور بالكآبة. وفجأة تحوّلت السماء إلى أحمر بلون الدم. توقفت وأسندت ظهري إلى القضبان الحديدية من فرط إحساسي بالإنهاك والتعب. واصل الصديقان مشيهما ووقفت هناك ارتجف من شدّة الخوف الذي لا أدري سببه أو مصدره. وفجأة سمعت صوت صرخة عظيمة تردّد صداها طويلاً في أرجاء المكان". وقد ظهرت حكايات عديدة تحاول تفسير ما حدث لـ مونش في تلك الليلة المشهودة. بعض المحلّلين استوقفهم بشكل خاصّ منظر السماء في اللوحة. وقالوا: إن هالة ما أو غسقًا بركانيًا قد يكون صَبَغ السماء والغيوم باللون القرمزي في ذلك المساء. ويحتمل أن يكون ذلك المشهد قد ترك تأثيرًا انفعاليًا دراماتيكيًا على مونش.

يقول الدكتور شاكر عبد الحميد في كتابه (عصر الصورة) الصادر عن سلسلة عالم المعرفة 311 كانون الثاني/يناير 2005 "إن لوحة الصرخة الشهيرة لإدفارد مونش مثلاً التي رسمها عام 1893، قد وجهت لتصوير ذلك الألم الخاص بالحياة الحديثة. وقد أصبحت أيقونة دالة على العصاب والخوف الإنساني. في اللوحة الأصلية تخلق السماء الحمراء شعورًا كليًا بالقلق والخوف. وتكون الشخصية المحورية فيها أشبه بالتجسيد الشبحي للقلق. ومثلها مثل كثير غيرها من اللوحات الشهيرة فقد تم نسخ الصرخة وإعادة إنتاجها في بطاقات بريد وملصقات إعلانية وبطاقات أعياد الميلاد وسلاسل مفاتيح. واستخدمت كذلك كإطار دلالة في فيلم سينمائي سمي الصرخة ظهر عام 1996 وتجسدت اللوحة في أقنعة بعض الشخصيات في الفيلم. حيث كان القاتل يرتدي قناعًا مستلهمًا منها.

لوحة الصرخة لإدفارد مونش تحولت منذ ظهورها في العام 1893 إلى موضوع لقصائد الشعراء وصرعات المصممين، برغم أن للفنان لوحات أفضل منها وأقل سوداوية وتشاؤمًا.

جزيرة فيكتوريا كندا

سما يوسف
جدة

تقع جزيرة فكتوريا Victoria في أرخبيل القطب الشمالي الكندي في الجزء الجنوبي الغربي من دولة كندا بالقرب من الحدود الأمريكية، حيث إنها قريبة جدًا من المدينة الأمريكية ستابل، وتمتاز برخص المعيشة والدراسة والجو المعتدل.

وتعد جزيرة فكتوريا ثامن أكبر جزيرة في العالم، بامتداد 217291 كم 2 (83897 ميل مربع) . يبلغ حجمها تقريبًا ضعف حجم نيوفاوندلاند 111390 كم 2 (43008 ميل مربع)، وهي أكبر قليلاً من جزيرة بريطانيا العظمى 209331 كم 2 (80823 ميل مربع) . وهي من أكبر جزر العالم.

ويعود تسمية الجزيرة إلى اسم الملكة فيكتوريا بعد أن تم استكشافها لأول مرة من قبل جون راي في عام 1851 .

والتنقل من فانكوفر إلى جزيرة فيكتوريا، عن طريق .. tsawwassen ferry ، في أكثر من رحله باليوم، ويبلغ سعر التذكرة 13 دولار كندي، ومدة الرحلة تقريبًا ساعة ونص،

وكانت من أجمل الرحلات التي لا تنسى..

وربما تكتشف أيضًا بعض من مزارات المدينة السياحية التي تشمل متحف كولومبيا البريطاني الملكي، وفي الظهيرة تتناول الشاي في فندق امبرس أو تنضم إلى واحدة من نزهاتنا الاختيارية لمشاهدة الحياة البحرية وقطعان الحيتان أو الذهاب في رحلة بالطائرة تحلق بها فوق جزيرة فانكوفر وجزر سان جوان .

تقع حدائق البوتشارت في كندا التي تبعد عن فكتوريا حوال الـ20 كم، وقصة بنائها تعود إلى أوائل القرن العشرين مع السيدة جيني بوتشارت التي استفادت من عمل زوجها في صناعة الإسمنت، فكانت تأخذ الأرض التي ينتهي زوجها منها، وتقوم بزراعتها حتى وصلت لمساحة 55 فدان؛





وما أن بدأ جمال الحديقة في الظهور حتى قامت بجلب العديد من الأنواع النادرة والغريبة من الزهور التي لا تنبت ولا تزرع في كندا. لتصبح الحديقة من أروع حدائق العالم. وبعد أن ماتت السيدة بوتشارت استمرت عائلتها في هذا التقليد حتى يومنا هذا!!

وتبدو هذه الحدائق طبيعية إذ تحتوي على جميع أنواع النباتات. وتقع هذه الحديقة في مدينة كولومبيا وهي قرية صغيرة تقع على شبه جزيرة سانيش في بلدية سانيش الوسطى والتي تعتبر جزء من أكبر الجزر الكندية.

ويوجد في فيكتوريا متحفًا للشمع وتحتوي على نماذج للشمع للملكة اليزابيث الثانية وهي ترتدي المجوهرات حين تتويجها ملكة لبريطانيا. ويبدأ العرض من هنري الثامن إلى العصر الإليزابيثي. وهناك نماذج لرؤساء دول مثل رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية. وهناك نماذج من الشمع معاصرة مثل ديزني والأفلام القديمة.







مهرجان رمال الدولي في الكويت .. رؤية إبداعية

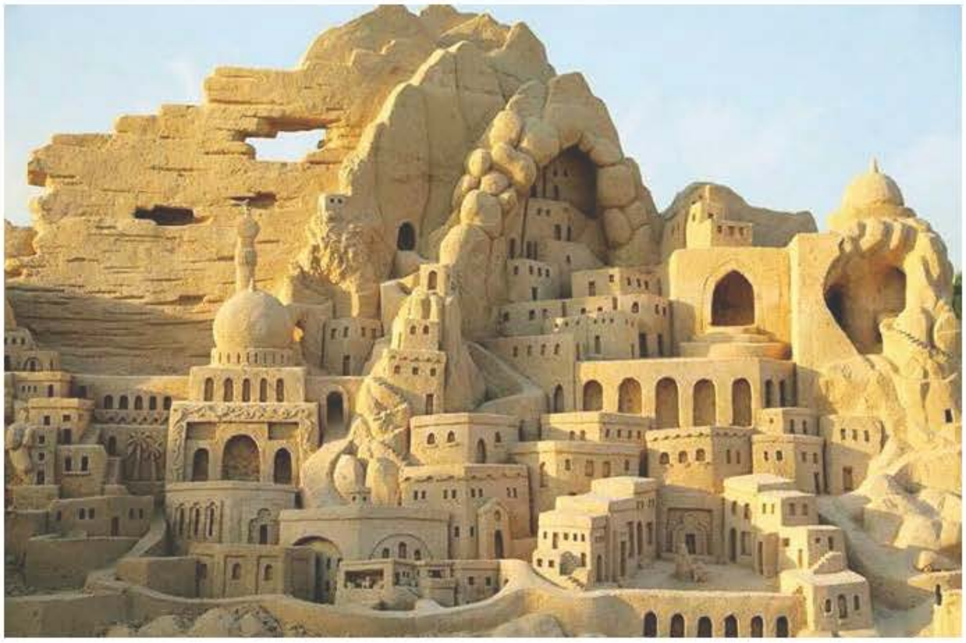


حسن محمد النعمي

لكل شعوب الدنيا تراثها وإرثها الثقافي الخاص بها وهي فقط من تتميز به خلاف غيرها من الشعوب الأخرى، ولهذا الإرث الثقافي ارتباط بثقافة كل شعب من هذه الشعوب . ومهرجان رمال الدولي بدولة الكويت هو ثقافة رائعة من ثقافات الشعب الكويتي الشقيق يقام الاحتفال بهذه المناسبة في أواخر شهر يناير من كل عام ولمدة حوالي ثلاثة أشهر ، وهو مهرجان سنوي أضيف إلى ثقافات الشعب الكويتي، حيث لا يخلو تاريخ الكويت ذلك البلد العريق على رأس الخليج العربي، من ميل فطري للبهجة والمرح، ويتلخص ذلك في العديد من الاحتفالات والمهرجانات التي تتوزع على مدار العام، والتي تعد أحد أهم عوامل الجذب السياحي في هذا البلد الجميل، ومن أهمها مهرجان رمال الدولي. وتحت رعاية أمير دولة الكويت . يقام مهرجان رمال الدولي على أرض المعارض الدولية في منطقة مشرف.

ويُعد مهرجان رمال الدولي تجسيد للرؤية المستقبلية الإبداعية لرئيس مشروع "كويتي وافتخر" ضاري حمد الوزان، الذي قدم للشباب الكويتي الفرصة لعرض إبداعاتهم وأفكارهم في إطار فعاليات "كويتي وافتخر" على مدى السنوات الثمان الماضية، وفي هذا الإطار يذكر أن "كويتي وافتخر" هي منظمة غير ربحية تقوم على مجموعة من المبادئ، التي تهدف إلى تشجيع الإبداع وتعزيز الشعور بالفخر بالإنجاز النوعي.

تُعد قرية رمال فريدة من نوعها وفق كل المعايير ، فعلى الجانب الفني نجحت إدارة المهرجان بجمع 73 نحاتًا وفنانًا من 24 بلدًا، هم الأفضل على مستوى العالم لتتضافر جهودهم في تشييد أكبر قرية رمال على مستوى العالم، على مساحة 30,000 متر مربع مستخدمين 35,000 طن من الرمل لتظهر بأبهى صورة من حيث نوعية المنحوتات ومستويات تعقيدها الكبيرة كما من ناحية الاهتمام بالتفاصيل ودقة تنفيذها ، وعلى الجانب التقني فقد نجح الفريق في تحديث للمكونات الأساسية للعمل الفني من رمل وماء لتصبح أكثر صلابة وطواعية، يذكر هنا أن الأبحاث أثبتت بأن الرمل الكويتي هو الأفضل من نوعه في العالم لإقامة المنحوتات الرملية، كما وتعد بعض المنحوتات ضمن الأكبر حول العالم والوحيدة التي تمنح الزوار الفرصة للصعود عليها أو المرور عبرها كما الالتفاف حولها . أما على صعيد الفعاليات الترفيهية فإن مهرجان رمال الدولي يعد زواره ببرنامج حافل بالأنشطة الفنية تشتمل على





أكثر من ألفي عرض حي تقدمها فرق عالمية، برامج خاصة بالأطفال منها البحث عن الكنز في المتاهة، عروض ضوء تصاحب الحديقة الضوئية التي ستكون الأولى من نوعها في الكويت والمنطقة، إلى جانب مجموعة منتقاة من المقاهي والمطاعم ليقدم المهرجان لزواره تجربة ترفيهية وثقافية لا تنسى.

وتضم قرية رمال عدة مجسمات أولها: لوحات تعريفية وتوضيحية خاصة بعرض قصص وروايات ألف ليلة وليلة والتعرف على أدق التفاصيل المرتبطة بالمجسمات وقصصها، حتى يتمكن الزوار من التعرف على القصص بصورة أفضل وأسهل وبشكل أجمل.

ومجسم قصر شهرزاد وهو عبارة عن قلعة كبيرة مستوحاة من رواية ألف ليلة وليلة على ارتفاع 15 مترًا ومكونة من ثلاثة طوابق، ويمثل المجسم الرئيسي في القرية وقد استهلك 10 آلاف طن من الرمال، حيث تم تصميمه بشكل يسمح للزوار من الصعود إليه والدخول عبر الدرج، وكذلك منحدر خاص لذوي الاحتياجات الخاصة إلى لقاء شهرزاد التي ستحكي القصص لشهريار أمام الجمهور من خلال المؤثرات الصوتية والضوئية باللغتين العربية والإنكليزية، ومشاهدة القرية الرملية بالكامل من الأعلى.

أما مسرح مهرجان «رمال الدولي» يعد الأول من نوعه في العالم بتصميمه المبتكر والمبدع، حيث جسد واحدة من أنجح وأشهر القصص في العالم وهي قصة علاء الدين والمصباح السحري بالمجسمات والمؤثرات الصوتية والضوئية.

ويعد مهرجان رمال الدولي خطة جذب سياحية غير مسبوقة في الكويت، قرر المسؤولون عن المشروع اختيار روايات عالمية وتبني إحداها لتصميم القرية الرملية وفق مواضيعها وتغيير التصميم واختيار رواية جديدة سنويًّا وتصميم المجسمات حسب الرواية التي تم اختيارها.

وفي عام 2014 اختارت اللجنة رواية "ألف ليلة وليلة" بوصفها واحدة من أكثر الروايات شهرة عالميًّا، إضافة إلى أصولها العربية التي يود المشروع تسليط الضوء عليها لقيمتها الكبيرة والثمينة.

ويهدف مهرجان رمال لإعادة الكويت إلى خارطة السياحة الدولية ولمد جسر للتواصل بين الترفيه والثقافة والفن التشكيلي. وهو المهرجان الأول من نوعه في العالم الذي يقيم قرية كاملة من المنحوتات الرملية تتناول موضوعًا واحدًا. ليبهر زواره بإبداع عالمي المستوى مدعم بعروض فنية مميزة وفعاليات غير مسبوقة تستهدف امتاع جميع أفراد العائلة.



قصر نويشفانشتاين في ألمانيا ..

إبداع استثنائي من جنون الملك لوفيك

على النقيض تمامًا من هذه الأطلال الويلزية تقع نويشفانشتاين وهي مسكن برجي كبير على قمة جبل البافاري ويحمل شبهًا كبيرًا من قلعة أخرى في متنزه معين على الطراز الأوروبي. هذا الإبداع الاستثنائي من جنون "الملك لودفيك Ludwig" كان مصدر إلهام للكثير من الفنانين والمصورين عبر الأجيال. يُنصح الزوّار بأن يأخذوا وقتهم لمشاهدة هذا القصر الفخم من الطرق الفرعية المجاورة للحصول على كامل الأثر الذي يتركه هذا القصر في النفس.

يقع القصر في جنوب ألمانيا، بالقرب من هوهينشفانغاو وفوسين الذي تم بناؤه من قبل والد لودفيك الثاني ماكسميليان الثاني ملك بافاريا في جنوب غرب ولاية بافاريا، ليس بعيداً عن الحدود النمساوية.

يعني اسم القصر حرفيًا "حجر البجع الجديد"، سمي بذلك نسبة إلى فارس البجع، لوهينغرين، أحد شخصيات أوبرا للمؤلف الموسيقي فاغنر، يقال عن القصر بأنه أكثر بنايات العالم التي تم تصويرها وهو أحد أشهر معالم ألمانيا.

في عام 1869م بدأ الملك الشاب لودفيك الثاني ملك بافاريا الذي عرف تحت اسم "الملك لودفيغ المجنون"، في بناء القصر على الطراز الروماني القديم في أعلى مكان يمكن الوصول إليه داخل منطقة حكمه، ورأى أن أنسب مكان لهذا الغرض هو إحدى التلال العالية على جبال الألب البافارية التي ترتفع 800 مترًا.

ويبدو أن لودفيج كان مغرمًا بفكرة البناء فقط دون أي هدف عملي يريده من ورائها، سوى أنه يريد توفير ملجأ آمن له في آخر حياته، فقد أمر ببناء قلعتين إضافيتين بالتوازي مع هذا القصر، وأنفق عليها ببذخ من ماله الخاص، لكنه توفي قبل إتمام البناء.

تم تصميم القصر من قبل المهندس كريستيان يانك واستغرق بناؤه 17 سنة.

كان الملك لودفيج يتابع العمل بنفسه ويزور موقع البناء كل مدة، وأمر بأن يكون القصر مغطى بألواح الحجر الجيري ذي اللون الأبيض ليتناسب مع لون الجليد المحيط بها من جميع الجهات، إلا أن الأسرة الحاكمة انزعجت من تبذير الملك للمال في بناء قلاع لا تكتمل ولا جدوى منها، لذا أعلنوا جميعًا بأن الملك لديه مرض عقلي ولا يصلح للحكم، ونفوه إلى قلعة ببرج Berg Castle في 1886م، وبعد أيام معدودة وجدوا جثته طافية في بحيرة Starnberg، ولا تزال وفاته لغزًا حتى الآن، فلا يدري الجميع ما إذا كان انتحاراً أم قتلاً، وتوقف بناء القصر من ذلك اليوم وحتى الآن.

بعد أسابيع من هذه الحادثة فتحت الأسرة الحاكمة قلعة نويشفانشتاين للجمهور العام، حيث يتم دخولها وزيارة غرفها الأربعة عشر مع مرشد سياحي، وتحول من قصر كان يراد أن يكون آمنًا ومعزولاً ولا يصل إليه الناس ليحتمي به الملك في آخر حياته إلى قصر يزوره كل الناس

بعد وفاته، حتى إنه من أكثر القصور زيارة في أوروبا كلها، ومنذ افتتاحه للزيارة عام 1886 زاره أكثر من 60 مليون شخص، ويزوره يوميًا خلال الصيف قرابة ستة آلاف سائح من داخل وخارج ألمانيا، ومن شهرته أصبحت علامة بارزة في الأفلام الألمانية حينما يراد الإشارة إلى مقاطعة بافاريا.

كثير من الروائع الفنية المرسومة على جدران القصر، تم استيحائها من أعمال فاغنر، الذي كان لودفيغ الثاني مولوعًا فيه وفي أعماله، تم فقط استكمال تزيين 14 غرفة من غرف القصر الـ360 وبقيت الغرف الأخرى خالية من أي أعمال فنية أو أثاث.

يرتفع القصر 800 مترًا فوق سطح البحر، مما يتيح للزائر رؤية الحدود الألمانية النمساوية منها، يؤدي طريق ضيق مرتفع إلى بوابة القصر الرئيسية، يوجد بالأبراج المحيطة بالقصر بيت درج دائري، غرفة العرش، التي في الواقع لا تحتوي على أي عرش، تقع في مؤخرة القصر في الدور الرابع، استغرق بناء سرير الملك الذي يقع في غرفة نوم الملك، مدة سنتان، ويوجد في القصر ساحة داخلية كبيرة.

وقد أعدت القصر بناءً على خطة مدروسة جيدًا بحيث تكون نموذجًا حديثًا حينذاك، فقد اشتملت على كافة الوسائل المتطورة من مضخات ترفع الماء لجميع الطوابق الأربعة، كما اشتملت على نظام لتدفئة الهواء في تلك المنطقة المتجمدة شتاءً، ونظام لتوفير الماء الساخن لدورات المياه والمطابخ.

في بداية زيارة للقصر يشاهد الزائر الطابق الأول وما به من قاعات الاستقبال وغرف الخدم، وينتقل منه إلى الطابقين الثالث والرابع مباشرة لمشاهدة غرف الملك وأجنحته الفاخرة، أما الطابق الثاني لم ولن تكتمل غرفه، لذا يكون هو المحطة الأخيرة بعد انتهاء الجولة لتناول الوجبات والمشروبات الساخنة في المقاهي التي بنيت فيه.

في الطابق الثالث يوجد صالون الملك على شكل حرف L، وتفصله عدة أعمدة عن بقية الغرف، وجميع المفروشات والأثاث به تأخذ شعار طائر البجعة الذي اتخذه الملك لودفيغ الثاني شعارًا له، ويجاور الصالون غرفة الدراسة والتي يتوسطها مكتب كبير كان يجلس عليه الملك يمارس هوايته في التأليف والكتابة، ومازالت مؤلفاته موجودة بالقصر.

بين الصالون وغرفة الدراسة مكان لا تجده في جميع القصور الملكية في العالم، وهي مغارة صناعية، حيث أراد الملك عمل كهف به شلال صناعي وتأثيرات ضوئية، وجعل الكهف له باب زجاجي شفاف ليستطيع رؤية جبال الألب وما يحيط بها في أثناء الجلوس في هذا الكهف الغير تقليدي.

أما قاعة العرش أو ما يعرف بالـ Throne Hall فهي قاعة في منتهى البذخ تحتل الجزء الغربي من القصر، ومزينة بصور نباتات ونجوم، وقد استلهم الملك تصميمها من قاعات الكنائس الموجودة في وقتها التي كانت على الطراز البيزنطي، مما يعطي انطباعًا بأن الملك لودفيغ الثاني كان يعد نفسه وسيطًا بين الناس وبين خالقهم، أما أهم قطعة في هذه الغرفة فهي مفقودة ولا يعلم أحد مصيرها إلى الآن، وهي كرسي العرش.

بعد ذلك نجد غرفة طعام الملك، وقد تم تزويدها بنظام جرس كهربائي وقتها بحيث يتم استدعاء الخادم في أي وقت يريده الملك، وفي الغرفة مائدة الطعام المصنوعة من الرخام والبرونز المذهب، ومفارش المائدة مصنوعة من الحرير الأحمر.

يليها غرفة النوم وبها نافورة مطلية بالفضة على شكل بجعة، وقد أولى الملك اهتمامًا كبيرًا بالغرفة حتى أن العمل بها وحدها استغرق أربع سنوات ونصف.

في نهاية الحرب العالمية الثانية، تم تخزين أموال من الخزينة الألمانية في القصر لحمايتها من القصف الجوي لدول الحلفاء، ثم حمل هذه الأموال الطائلة إلى مكان آخر مجهول بعد ذلك، حسب أحد الشائعات، يقال: إنه تم رمي الأموال في بحيرة ألات القريبة، تم حفظ رسومات وقطع أثاث قيمة ومجوهرات في القصر أيضًا في أثناء مدة الحرب.

تفتح قلعة نويشفانشتاين أبوابها يوميًا من الساعة التاسعة صباحًا حتى الثالثة عصرًا، عدا يوم 1 يناير وآخر أسبوع من ديسمبر، وتكلفة التذكرة 12 يورو، ومجانًا لمن هم دون الثامنة عشرة، ويرافقك مرشد سياحي باللغتين الإنجليزية أو الألمانية.







جيمي ويلز مؤسس ويكيبيديا

WIKIPEDIA
The Free Encyclopedia

رقميون غيروا حياتنا

هذه المادة مختارة من كتابي (رقميون غيروا حياتنا)



ناصر بن محمد الزمل

رئيس التحرير @nalzumal

يُعدّ جيمي ويلز JIMMY WALES مؤسس أكبر موسوعة علمية إلكترونية على الإنترنت وأحد أهم الشخصيات التي غيرت مجرى الويب، إذ إنه استطاع من خلال موقعه الذي انطلق عام 2001 أن يوصل للمستخدمين أكبر مكتبة معلومات متكاملة، ويمكن التعديل عليها من قبل المستخدمين.

جيمي ويلز رجل أعمال أمريكي وتاجر إلكتروني، مؤسس الموسوعة الحرة WIKIPEDIA التي غيرت الكثير من المفاهيم فيما يتعلق بحرية المعرفة والمشاركة المجتمعية في بنائها، يدخلها نحو 470 مليون شخص شهريًّا ليستفيدوا من محتواها، وليشاركوا في تغذيتها بملايين المعلومات، ونتيجة لعمله في ويكيبيديا، التي أصبحت أكبر موسوعة في العالم، وضعته مجلة التايم واحدًا من أكثر الشخصيات تأثيرًا في العالم اليوم.

ولد جيمي ويلز في 7 آب/أغسطس، 1966 بمدينة هانتسفايل بولاية آلاباما الأمريكية، وعقب إتمامه مرحلة التعليم الأساسي، التحق بمدرسة (راندولف) التمهيدية للمرحلة الجامعية بمدينة هانسفايل، وتخرج فيها في عمر السادسة عشر.

حصل على البكالوريوس من جامعة أوبرن في مجال العلوم المالية، وبدأ الدكتوراه في المجال نفسه في جامعة آلاباما، ولكنه توقف عند الماجستير.

بعدها التحق بجامعة أخرى وحضر دروسًا في مجال الدكتوراه، ولكنه لم يحضّر الرسالة التي عن طريقها يمكنه نيل الدكتوراه.

وبينما كان في الدراسات العليا بالجامعة، درّس في جامعتين، حصل ويلز لاحقًا على وظيفة في التمويل، وعمل مديرًا للأبحاث في شركة للبيع الآجل والمضاربة في شيكاغو سنوات عدة.

قرر ويلز العمل في مجال الإنترنت عقب الطرح العام الأول، الذي أجرته شركة NETSCAPE عام 1995، الذي استوحى منه ويلز قراره.

وعام 1996، أسس ويلز البوابة الإلكترونية بوميس BOMIS على الإنترنت بالتعاون مع شريكين أمداه بالتمويل اللازم لمواصلة شغفه العظيم وطموحه الكبير في إنشاء موسوعة مباشرة على الإنترنت.

وبعد سنوات عدة، قرر ويلز مواصلة مشروعه لإنشاء

WIKIPEDIA
The Free Encyclopedia

موسوعة على الإنترنت، فدعا لاري سانجر - الذي كان طالبًا بدرجة الدكتوراه في الفلسفة حينها بجامعة أوهايو - ليكون رئيساً لتحرير الموسوعة. وفي آذار/مارس 2000 طُرحت موسوعة نوبيديا NUPEDIA بوصفها موسوعة مجانية ذات محتويات مفتوحة علنية.

خضعت الموسوعة لعملية مراجعة شاملة؛ لجعل موضوعاتها ومقالاتها بنفس جودة الموسوعات الاحترافية المتخصصة. وفي 2 كانون الثاني/يناير 2001 اقترح أحد المبرمجين، ويدعى بن كوفيتس على سانجر استخدام برمجيات WIKI التي تتيح للمستخدم إمكانية ربط المقالات ببعضها وتحريرها بسهولة. وأوضح كوفيتس لسانجر أن تبني برمجيات WIKI سيساعد المحررين على الإسهام فوريًا طوال المشروع، وحازت الفكرة إعجاب سانجر الذي انجذب إليها بشدة، وعقب عرضها على ويلز، أنشأ أول نوبيديا ويكي NUPEDIA WIKI في العاشر من كانون الثاني/يناير 2001.

بدأت موسوعة ويكي في البداية بوصفها مشروعًا تعاونيًا للجمهور لكتابة مقالات يتم مراجعتها بعد ذلك للنشر من قبل خبراء نوبيديا المتطوعين، ومن ثم أطلق ويلز مشروع ويكي - الذي أطلق عليه ويكيبيديا WIKIPEDIA باسم نطاق مستقل - بعد 5 أيام من إطلاقها التي تمتعت بنمو وشعبية فائقين، ومع نمو أهمية ويكيبيديا، أصبح ويلز المروج للمشروع والمتحدث باسمه.

ويُذكر ويلز تاريخيًا بأنه أحد مؤسسي ويكيبيديا، وليس المؤسس الوحيد، يجلس ويلز في مجلس أمناء مؤسسة ويكيميديا، المؤسسة الخيرية غير الربحية التي تدير ويكيبيديا، ويشغل منصب (مؤسس المجتمع) الذي أقره مجلس الأمناء.

وعام 2004، شارك في تأسيس ويكيا، ذات الملكية الخاصة، وهي خدمة استضافة على الويب، وكان ذلك بالتشارك مع زميلته في أمانة ويكيميديا أنجلا بيزلي.

في مقابلة عام 2004 أوجز ويلز رؤيته لويكيبيديا: «تخيل عالماً يتاح به لكل شخص في الكوكب أن يعطي كل شخص على النفاذ المجاني والحر لتحصيل المعرفة البشرية، وهذا ما نقوم به».

ويدير ويلز، ويكيبيديا في شكل مشروع خيري، حيث إنه يرفض وضع أي إعلانات على الموقع، ويرفض بيعه أو جعله بمقابل، فيما يديره اعتمادًا على التبرعات السنوية التي يجمعها بشكل ناجح منذ سنوات عدة.

في عدد يناير/فبراير 2006 من مجلة PC ذكر ويلز أنه رفض الامتثال لطلب من جمهورية الصين الشعبية لفرض رقابة على المواد (الحساسة سياسيًا) في ويكيبيديا كباقي شركات الإنترنت التجارية الأخرى مثل جوجل، وياهو، ومايكروسوفت التي أثمرت تجاهها ضغوط الحكومة الصينية.

وفي أيار/مايو 2010، ذكرت هيئة الإذاعة البريطانية أن ويلز كان قد تخلى عن كثير من امتيازات التقنية الخاصة به في (ويكيميديا كومنز مشروع شقيق ويكيبيديا الذي يستضيف الكثير من محتوى الوسائط المتعددة).

في بداية السنة الحالية 2012، عين رئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون مؤسس موقع ويكيبيديا جيمي ويلز مستشارًا، ويأتي تعيين ويلز لتحسين مشروع بريطاني كبير لتفعيل دور المعلومات والمحتويات مفتوحة المصدر OPEN SOURCE، التي نجح ويلز في استخدامها بشكل رائع من خلال موقع ويكيبيديا الذي يُعدّ أكبر موقع يحتوي على معلومات مجانية كتبها مستخدمون متطوعون.



الإنترنت وعصر «البيانات الضخمة BIG DATA»

هل فكرت يومًا ما هي كميّة المعلومات التي يقدّر أنها تتوافر للبشر الآن؟ إذا وُضِعَت هذه المعلومات على أسطوانات رقميّة مدمَجَة «CD»، ثم جُعِلَت في صفوف متراصة، لصنعت الأسطوانات المدمَجَة 5 طرق بين الأرض والقمر، مع ملاحظة أن المسافة بين الأرض والقمر هي قرابة 384.4 ألف كيلومتر، ما يعني أن معلومات البشر تساوي قرابة 1.9 مليون كيلومتر من الأسطوانات الرقمية المدمَجَة.

كم يبلغ متوسط حصّة الفرد من هذه المعلومات؟ عندما كانت «مكتبة الإسكندرية» هي مخزن معلومات البشر، بل المكان الذي كان أسطورة في ضخامة ما يحتويه من المعلومات المؤرشفة في وثائق مكتوبة، لم يكن ما تحتويه يزيد عن 1200 «إكسا بايت» Exabyte، مع ملاحظة أن كل «إكسابايت» تساوي بليون غيغابايت. لنعد إلى الفرد العادي في القرن الـ21. ما هي حصّته من المعلومات؟ إنها 320 «مكتبة إسكندرية» في عزّ ازدهارها وذروة تألّقها أيام الرومان. لو وُزّعت المعلومات على البشر، لنال كل شخص يعيش الآن أكثر مما احتوته «مكتبة الإسكندريّة» عندما كانت معقلاً ومخزنًا للفكر البشري، بما يزيد عن 320 ضعفًا.

ما هي البيانات (Data): هي الصورة الخام للمعلومات قبل عمليات الفرز والترتيب والمعالجة ولا يمكن الاستفادة منها بصورتها الأولية قبل المعالجة.

المعلومات (Information): هي البيانات التي خضعت للمعالجة والتحليل والتفسير والتي يمكن الاستفادة منها في استنباط العلاقات المختلفة بين الظواهر واتخاذ القرارات.

تُقسم البيانات الخام إلى ثلاثة أنواع:

بيانات مهيكلة: وهي البيانات المنظمة في صورة جداول أو قواعد بيانات تمهيدًا لمعالجتها.

بيانات غير مهيكلة: تشكل النسبة الأكبر من البيانات وهي البيانات التي يولدها الأشخاص يوميًا من كتابات نصية وصور وفيديو ورسائل ونقرات على مواقع الإنترنت إلخ.

بيانات شبه مهيكلة: تعد نوعًا من البيانات المهيكلة إلا أن البيانات لا تصمم في جداول أو قواعد بيانات.

لنتابع مع لعبة الأرقام قليلاً. من المثير أيضًا أن كثيرًا من هذه المعلومات باتت مكتوبة بـ «لغة واحدة: لغة الكومبيوتر». وتتوفر قسم كبير من هذه المعلومات على هيئة ملفات إلكترونيّة رقميّة مكتوبة على الكومبيوتر، تشمل الكتب والنصوص والصحف والمجلات والمنشورات والدراسات والصور والخرائط والرسومات والأفلام والأغاني والموسيقى والرسائل وما يكتب يوميًا على مواقع شبكات التواصل الاجتماعي ورسائل الخليوي. بات كل شيء يكتب ويوضع على الكومبيوتر، فيصبح جزءًا من ملفات رقميّة مكتوبة بلغة الإلكترونات التي تتألف من عددين هما صفر وواحد. لنتأمّل ثانية. صارت كل المعلومات قابلة لأن توصف وتخزّن وتُصنّف وتبحث وترصف، عبر أداة واحدة هي الإلكترونات وملفاتها الرقميّة. يطلَق على هذا الأمر تسمية «الرقمَنَة» Digitization، وهي من الملامح الأبرز لزمن البيانات الضخمة. لم تعش البشرية شيئًا كهذا من قبل، وهو أمر يجدر تذكّره كثيرًا عند التفكير في البُعد المختلف لمسألة البيانات الكبيرة في عصر المعلوماتية.

ما هي البيانات الضخمة؟

البيانات الضخمة عبارة عن مجموعة من البيانات ذات أحجام تتخطى قدرة البرامج التي يشيع استخدامها لالتقاط وإدارة ومعالجة وتخزين وتحليل تلك البيانات في غضون مدة زمنية مقبولة.

وتتوافر البيانات الضخمة حولنا ففي كل دقيقه يولّد العالم من حولنا ما يقرب من 1.7 مليون بليون بايت من البيانات من مواقع التواصل الاجتماعي والبريد الإلكتروني لمواقع الأعمال الخاصة كأمازون واي- باي وأعمال البيع بالتجزئة للمشاريع العلمية والقومية العملاقة.



منذ عام 2012 كانت الحدود المفروضة على حجم مجموعات البيانات الملائمة للمعالجة في مدة معقولة من الوقت خاضعة لوحدة قياس البيانات إكسابايت. وتضاعفت القدرة التكنولوجية العالمية لتخزين المعلومات للفرد الواحد تقريبًا كل 40 شهر بدءًا من العام 1980 حيث في عام 2012 تم تقدير البيانات المُنتجه ب 2.5 كوينتيليون بايت (2.5 × 1018) من البيانات يوميًا 80% منها غير مهيكلة مقابل 20% فقط من البيانات المهيكلة.

وبحسب شركة إنتل أن حجم البيانات التي ولدها البشر منذ بداية التاريخ وحتى عام 2003 ما قدره 5 إكسابايت، لكن هذا الرقم تضاعف 500 مرة خلال عام 2012 ليصل إلى 2.7 زيتابايت، ويتوقع أن يتضاعف هذا الرقم ثلاث مرات حتى عام 2015.

ويقوم كل فرد منا بإطلاق 2.2 مليون تيرا بايت من البيانات يوميًا، و هناك 12 تيرابايت من التغريدات يوميًا مع 25 تيرا بايت من سجلات الدخول على فيس بوك يوميًا وعلى تويتر أكثر من 200 مليون مستخدم نشط يكتبون أكثر من 230 مليون تغريدة يوميًا.

حجم البيانات كان في 2009 حوالي 1 زيتا بايت (تريليون غيغابايت) وفي 2011 ارتفع إلى 1.8 زيتا بايت

تقول IBM إننا ننتج 2.5 كوينتيليون بايت من البيانات كل يوم (الكوينتيليون هو الرقم واحد متبوعًا بـ18 صفرًا). هذه البيانات تنبع من كل مكان، مثل المعلومات حول المناخ والتعليقات المنشورة على مواقع التواصل الاجتماعي والصور الرقمية والفيديوهات ومعاملات البيع والشراء.

تعد البيانات الضخمة الجيل القادم من الحوسبة والتي تعمل على خلق القيمة من خلال مسح وتحليل البيانات.

ومع مرور الزمن أصبحت البيانات التي ينتجها المستخدمين تنمو بشكل متسارع لعدة أسباب، منها بيانات المشتريات في محلات السوبر ماركت والأسواق التجارية وفواتير الشحن والمصارف والصحة وشبكات التواصل الاجتماعية.

ومع تطوير تقنيات التعرف على الوجه والأشخاص، فإنها ستتمكن من العثور على المزيد من التفاصيل والمعلومات عن أي شخص، ومع تزايد عدد الأجهزة المتصلة بالإنترنت، الأجهزة التي لم نعتد عليها أن تتصل بالشبكة العالمية مثل السيارات والبرادات والغسالات فإنها كلها تساهم في زيادة حجم البيانات المنتجة.

وتعد اليوم Hadoop من أفضل تقنيات التعامل مع البيانات الضخمة، وهي مكتبة مفتوحة المصدر مناسبة للتعامل مع البيانات الضخمة المتنوعة والسريعة، وتستخدم شركات كبرى خدمة Hadoop، مثلاً هناك لينكد إن شبكة التواصل الاجتماعية المتخصصة بالوظائف والعمل تستخدم الخدمة من أجل توليد أكثر من 100 مليار مقترح على المستخدمين أسبوعيًا.

لكن ما الفائدة من البيانات الضخمة؟

تقول IBM إن البيانات الضخمة تعطيك فرصة اكتشاف رؤى مهمة في البيانات، وتقول أوراكل أن البيانات الضخمة تتيح للشركات أن تفهم بعمق أكثر زبائنها.

قدرت شركة سيسكو أنه وبحلول عام 2015 فإن حركة الزيارات على الإنترنت بالشكل الإجمالي ستتجاوز 4.8 زيتابايت (أي 4.8 مليار تيرا بايت) سنويًا.

ومن الأمثلة العلمية لفائدة البيانات الضخمة:

– مصادم الهيدرون يملك 150 مليون جهاز استشعار تقدم بيانات 40 مليون مرة في الثانية الواحدة. وهناك ما يقرب من 600 مليون تصادم في الثانية الواحدة. لكن نتعامل فقط مع أقل من 0.001 % من بيانات تيار الاستشعار، فإن تدفق البيانات من جميع تجارب المصادم الأربعة يمثل 25 بيتابايت.

– موقع Amazon.com يعالج ملايين العمليات الخلفية كل يوم، فضلاً عن استفسارات من أكثر من نصف مليون بائع طرف ثالث. وتعتمد أمازون على نظام اللينوكس بشكل أساسي ليتمكن من التعامل مع هذا الكم الهائل من البيانات، و تملك أمازون أكبر 3 قواعد بيانات لينوكس في العالم التي تصل سعتها إلي 7.8، 18.5 و24.7 تيرابايت.

– سلسلة المتاجر Walmart تعالج أكثر من مليون معاملة تجارية كل ساعة، التي يتم استيرادها إلى قواعد بيانات يُقدر أنها تحتوي علي أكثر من 2.5 بيتابايت (2560 تيرابايت) من البيانات – وهو ما يوازي 167 ضعف البيانات الواردة في جميع الكتب الموجودة في مكتبة الكونغرس في الولايات المتحدة.

– يعالج فيس بوك 50 مليار صورة من قاعدة مستخدميه. ويقوم نظام حماية بطاقات الائتمان من الاحتيال "FICO Falcon Credit Card Fraud Detection System" بحماية 2.1 مليار حساب نشط في جميع أنحاء العالم.

– تقوم شركة Windermere Real Estate باستخدام إشارات GPS مجهولة من ما يقرب من 100 مليون سائق لمساعدة مشتري المنازل الجدد لتحديد أوقات قيادتهم من وإلى العمل خلال الأوقات المختلفة لليوم.

ينصحنا علماء عالم المعلوماتية وتقدّمها، على غرار ما ورد في كتاب صدر أخيرًا في أمريكا بعنوان «البيانات الكبيرة: ثورة تغيّر طريقة حياتنا وعملنا وتفكيرنا» Big Data: A revolution that would Change the Way we Live, Work & Think للبروفسور كينيث كروكر؟ ما هو الشيء الذي يرون أن الفكر البشري الآن يكسبه من الانتقال إلى «عصر البيانات الكبيرة»، بمعنى ما هو الأثر المستفاد من هذا التدفّق الهائل في المعلومات؟ لا تسرع في الإجابة، لأنها ربما تحمل كثيرًا من الصدمة. ثمة 3 مسارات أساسية (مهارات، طرق في التفكير، أساليب في التدبير: سمّها ما شئت) هي:

1 – ضرورة هجران الدقّة لمصلحة التشديد على أهمية الخطأ ووجوده Get Rid of Accuracy. لا نكران للخطأ، بل الأهم وضعه دائمًا في الاعتبار والتفكير بأنه موجود فعليًا.

2 – وضع الجهد باتجاه تجميع المعلومات والمزيد منها، ووضع المعلومات المتراكمة موضع الاستخدام اليومي والمستمر، Collect & Use a Lot of Data. خصوصًا مع تفتّح آفاق واسعة في الحصول على المعلومات وتنويعها وتجميعها وتخزينها، وبكلفة تتدنى باستمرار.

3 – التركيز على فهم العلاقات والروابط والميول بدل التشديد على البحث عن الأسباب والعلل Give Up On Causes- Accept Correlations! ربما لا يعجب كثيرًا من العقول في العالم العربي هذا الكلام في هذا الكتاب الذي تجدر ترجمته إلى اللغة العربيّة، لأنه ينطق عن لحظة الحياة الحاضرة مع تلمّس جريء للمستقبل.

العثور على كوكب جديد شبيه بالأرض



الكوكب الجديد يوجد على بعد 1400 سنة ضوئية في مجموعة شمسية تعرف بـ "الدجاجة"

عثرت إدارة الطيران والفضاء الأميركية (ناسا) على كوكب خارج النظام الشمسي يكاد يكون مماثلاً للأرض، ويعتقد العلماء أنه أكبر من الأرض بنحو 60%، ويوجد على بعد 1400 سنة ضوئية في مجموعة نجمية تعرف بمجموعة الدجاجة.

وقال العلماء: إن الكوكب الجديد الذي أطلق عليه اسم "كيبلر452- بي" تم اكتشافه باستخدام المنظار الفضائي "كيبلر"، وأضافوا أنه يوجد في منطقة يمكن السكنى فيها بالقرب من نجم آخر يشبه الشمس، كما أن الماء على ظهر ذلك الكوكب يمكن أن يكون سائلاً وهو شرط أساسي لوجود الحياة.

وسبق أن رصدت كواكب قريبة من الأرض في الحجم لكن "كيبلر452- بي" يدور حول نجم شديد الشبه بالشمس، وعلى مسافة تقارب مدار الأرض.

وأكد جيف كوفلين - وهو عالم في أبحاث كيبلر بمعهد سيتي في ماونتن فيو بولاية كاليفورنيا- أن العثور على كوكب شبيه بالأرض ويماثلها بالحجم ودرجة الحرارة، ويدور حول نجم يشبه الشمس يُعد تقدمًا هائلاً.

ووفقًا لحجمه يعتقد العلماء أن "كيبلر452- بي" كوكب صخري ويشبه الأرض ويقع على مسافة مناسبة لوجود مياه سطحية سائلة يعتقد أنها ضرورية للحياة.

الكشف عن مجموعة روسية للتهديد الإلكتروني



أصدرت مؤسسة فاير آي تقريرًا عن تهديد استخباراتي جديد يتعلق بمجموعة روسية للتهديد الإلكتروني.

ويقوم التقرير الذي صدر اليوم الأحد بتحليل التكتيكات الخاصة بطريقة العمل وأساليب التخفي لمجموعة متقدمة من البرمجيات الخبيثة تستخدمها على الأرجح مجموعة التهديد المتقدم المستمر (APT) وتدعمها الحكومة الروسية، التي أطلق عليها مجموعة أي بي تي 29 (APT29).

وأظهرت مجموعة أي بي تي 29 منذ عام 2014 على الأقل، قدرات قوية جدًا لتعديل أنشطتها والتعتيم عليها والتخفي من إجراءات الحماية الشبكية، بما في ذلك قدرتها على الرصد الدقيق لأنظمة الحماية عن الشبكات وأساليب التحقيق التقني للكشف عن أي جرائم إلكترونية ومحاولة تدميرها.

وتتميز هذه المجموعة عن غيرها من مجموعات التهديد المتقدم المستمر (APT) الروسية الأخرى التي ترصدها فاير آي، في منهجها في الأمن التشغيلي.

وقالت مديرة استخبارات التهديدات في فاير آي، لورا جالانت، إن النهج الجديد الذي تتبعه مجموعة أي بي تي 29 تتمثل في تنفيذ هجماتها وتعزيز وجودها في الشبكات بمستوى من الصعوبة يمكّن المتخصصين الأمنيين من أن يشهدوا بأنفسهم تسلل هذه المجموعة إلى أنشطة شبكاتهم الأمنية.

وأضافت أنه بمواصلة تتبع مجموعة أي بي تي 29، سيتم التمكن من الكشف عن المزيد من معلومات الاستخبارات، وهو ما سيساعد العملاء في تحسين إجراءات دفاعهم ضد الهجمات المتقدمة.

تجدر الإشارة إلى أن برمجيات HAMMERTOSS الخبيثة التي تستخدمها مجموعة أي بي تي 29، تتبع نظامًا لاسترجاع الأوامر خطوة بخطوة عن طريق خدمات الويب المشتركة التي تتفادى في الغالب الاكتشاف المبكر، ويتضمن:

الإرشاد في كل يوم عن تتبع مختلف روابط وأوسمة (هاشتاغ) موقع تويتر.

متابعة روابط وسائل التواصل الاجتماعي لمواقع مثل GitHub التي تستضيف الصور مع الأوامر المخفية داخلها باستخدام طريقة معروفة باسم ستيغانوغرافي، لتنفيذ الأوامر واستخراج البيانات من أجهزة الضحايا المستهدفين قبل رفعها على خدمات التخزين السحابي.

فيسبوك تصنع طائرة بدون طيار لنشر الإنترنت



أكمل مسؤولون في شركة فيسبوك صناعة أول طائرة بدون طيار تعمل بالطاقة الشمسية قادرة على بث إشارة الإنترنت للمناطق النائية في العالم حيث لا توجد بنية تحتية لشبكات الاتصالات.

وستختبر شركة فيسبوك الطائرة التي لها جناحان مشابهان لجناحي طائرة "بوينغ737" في الولايات المتحدة في وقت لاحق هذا العام.

وقال مسؤولون تنفيذيون في شركة فيسبوك: إن الطائرة بدون طيار جزء من برنامج يسمى "أكويلا" يستهدف نسبة 10% من السكان الذين لا يتاح لهم الاتصال بالإنترنت.

وأوضح مدير قسم هندسة الاتصال بالشركة يائيل ماغوير أن وزن الطائرة سيبلغ أربعمئة كيلوغرام، مشيرًا إلى أنها ستحلق على ارتفاع يتراوح بين ستين وتسعين ألف قدم (بين عشرين وثلاثين كيلومترًا) فوق الارتفاع الذي تحلق عليه الطائرات التجارية حتى لا تتأثر بمشكلات الطقس.

وأضاف ماغوير أن بوسع الطائرة - التي صنعت في 14 شهرًا - أن تحلق في الجو لمدة تسعين يومًا في المرة الواحدة، مشيرًا إلى أن مناطيد تعمل بغاز الهيليوم ستقوم بتثبيتها لتحلق في الجو.

من جهته، ذكر جاي باريخ نائب رئيس قسم الهندسة أن هذه الخطوة "ستكون هذه فرصة عظيمة للشركة لتحفيز الصناعة لتتحرك بوتيرة أسرع في هذه التكنولوجيا". وبين أن "مهمتهم تتمثل في الربط بين الناس بالعالم".

وكانت شركة فيسبوك دشنت قبل عام مبادرة "إنترنت دوت أورغ" لإتاحة خدمة الإنترنت لثلثي سكان العالم الذين ليس لهم اتصال ثابت بالشبكة.

اليابان تختبر أقوى ليزر في العالم



هذا الجهاز من تصميم علماء الفيزياء في جامعة اوساكا، واطلق عليه اسم "LFEX-Laser for Fast Ignition Experiments" (ليزر للتجارب ذات الاحتراق السريع) يبلغ طوله حوالي 100 متر (مع الأجهزة البصرية للمراقبة).

بدأ علماء اليابان في اختبار جهاز الليزر هذا في نهاية عام 2014، وبعد اختبارات عديدة كان آخرها في شهر تموز/يوليو 2015، حققوا مؤشرات عالية سجلت رسميًا. بلغت مدة نبضة ليزر قوتها 2 بيتاواط "petawatts"، بلغت بيكوثانية، أي واحد من تريليون ثانية.

أعلن اليابانيون أن طاقة هذه النبضة (2 بيتاواط) أكبر تقريبا بـ 100 مرة من قدرة ليزر مماثل في جامعة اوستن بولاية تكساس الأمريكية.

يذكر أن علماء الفيزياء بجامعة اوستن بولاية تكساس الأمريكية كانوا قد صمموا ليزرًا مشابها لهذا الليزر. يقول العالم مايكل دونفان من جامعة اوستن، "تبلغ طاقة الليزر الأمريكي (150 - 200 جول) أي تعادل الطاقة التي تحصل عليها من فنجان القهوة. هذه الطاقة تعادل الطاقة التي يستهلكها مصباح قدرته 100 واط خلال ثانيتين.

القدرة - هي الطاقة المتحررة خلال وحدة الزمن. بما أن بيكو ثانية واحدة هي مدة زمنية قصيرة جدًا جدًا، ولكن اتضح أن القدرة الناتجة كانت هائلة".

المغرب بين المتوسط والمحيط

ميسون أبو بكر



أديبة وشاعرة ومذيعة في التليفزيون السعودي

mysoonabubaker@yahoo.com

@Mayabubaker

قصيرة جداً هي المسافة بين جنوب فرنسا والمغرب، والبحر المتوسط هو المشترك الذي يسور المدن التي يجمع بينها كرابطة العقد، وفي المملكة المغربية تراث ينبض بالحياة في كل تجلياته اليومية والاقتصادية والحضارية والثقافية، فالحاضر يعانق أصالة الماضي الذي تذكر به تفاصيل الحياة ومعالمها سواء في المناطق القديمة الموغلة في القدم بمبانيها وأسواقها وطريقة الحياة بها وازدحامها، أو في المطاعم والفنادق التي تحتفظ بعراقة الماضي سواء في نمطها العمراني أو زخارفها ونقوشها، كما تقدم الطعام المغربي المتنوع والمشهور بأنواع مختلفة كالطاجين والبسطيلة باللحم أو الدجاج أو ثمار البحر أي الحوت كما يسميه المغاربة كما اللحم المشوي بأشكاله المختلفة، ويشتهر الطعام الذي هو ما بين المالح والحلو والذي يقدم في أوانٍ فخارية ويكاد يكون متشابهًا رغم فروق بسيطة بين المدن.

كازا المدينة التجارية في ازدحام شوارعها طابع خاص يصاحبك منذ وصولك المطار إلى المناطق المختلفة، يتراءى بشدة عند ساحل المحيط الأطلسي وفي منطقة عين دياب، حيث الشواطئ الممتدة والمقاهي، وفي بعض المناطق قد تحاول تجاوز الأسوار الطويلة التي تسور البحر لغرض أشغال أو مشروع فندق جديد.

والرباط العاصمة تعد ثالث أكبر مدينة في البلاد، تقع على ساحل المحيط الأطلسي الذي تنتشر فيه بعض المقاهي وعلى الضفة اليسرى لمصب نهر أبي رقراق الذي يفصل المدينة عن سلا المدينة القديمة.

الطرق إلى المدن محفوفة بالغابات والأشجار والمراعي الخضراء التي تقدم أشهى الفاكهة.

فاس المدينة الثقافية بكل ما تحمل من عراقة، بواباتها القديمة التي تأخذ زائريها لمحلات شبه اندثرت المهن التي تضم بعض دكاكينها، الجلود ونقش النحاس وصناعة الزخارف الخشبية، ثم الحلوى المغربية والثياب التقليدية التي نجدها حاضرة في أسواق العالم تشير إلى منبعها وموطنها.

الكثير من الحكايا والأساطير قد تكون فاس مهدها ثم قد تكون بين طيات الكتب وأشهر الجامعات (جامعة القرويين) التي لا تهدأ فعالياتها وملتقياتها وندواتها.

إفران ليست بعيدة عن فاس تلك التي تشبه سويسرا حين تتغطى جبالها بالثلج في موسم الشتاء وهي قبلة السياح صيفاً وشتاءً. والمدن الأخرى حكاية يختصرها فلكلورها وطقوس ساكنيها واختلاف لهجاتهم ولباسهم ومهرجاناتهم، حيث لكل مدينة في المغرب مهرجان سنوي خاص بطابع المدينة، فمن مهرجان أصيلة إلى مهرجان الموسيقى الروحية في فاس إلى مهرجان إفران وغيرها.

تصادفك اللوحات قبل مداخل المدن : مكناس تراث عالمي.. فاس تراث عالمي .. للحياة صوت شجي في تلك الديار، المآذن الصديقة لأسطح المنازل، والجبال التي تحدها أشجار الزيتون الباهتة الخضرة، وحولها مراع من الصفرة والخضرة يلتقيان كألوان قزح، الأرض التي تبدو كالسلالم إلى السماء، والسماء التي لا يعكر زرقتها شيء بل تمر منها الغيوم البيضاء سريعة تهدئ وهج الشمس الحارقة في الصيف.

وقع خطا المحيط الثائر الذي يختلف عن هدوء المتوسط ما يميز الشواطئ القريبة منه، ثم بساتين القصب التي تختفي بين سيقانها الطويلة الأجساد الذاهبة للحقول والحصاد، والطيور التي ترفرف فوق الحقول كأنها الفراشات وكأنها نوارس البساتين.

تلك هي بلاد المحيط الأطلسي والمتوسط التي تنتظر المزيد والمزيد من التنظيم الذي يجذب السياح والمستثمرين وما يمكن أن يتوج جمال طبيعتها وغنى مراعيها.

من آخر البحر

بلاد العرب أوطاني.. من الشام لبغداد
ومن نجد إلى يمن.. إلى مصر فتطوان
فلا حدٌ يباعدنا.. ولا دين يفرقنا
لسان الضاد يجمعنا.. بقحطان وعدنان